لجنة التأليف والترجمة والنشر

حياة نابليون

تأليف

حسن جلال

مؤلف كتاب الثورة الفرنسية

الجزء الثانى

سلسلة المعارف العامة

فهرست الجزء الثانى

ص

الصحيفه	السطر	الخطا	الصواب
٣٥٣	٢	الفريقين	الفريقان
٣٦٩	٣	امبراطورية	امبراطوريته
٣٧٧	١٣	كال	كان
٣٨٢	١٧	كما	كيما
٣٨٥	١٢	ابرينى	خبرينى
٣٩٨	٦	غرفة	غرفته
٤٠١	١٤	تستطيع أن	تستطيع فيها أن
٤٠٣	١٢	وزملائهم	وزملاؤهم
٤٢٧	١٦	١٩٠٨	١٨٠٩
٤٢٨	١٦	١٩٠٨	١٨٠٩
٤٢٨	٢٠	ساعة	الساعة
٤٣٠	٢	جمبع	جمع
٤٤٤	١٧	تقلتنى	تقتلنى
٤٦١	٧	الخطابات	خطاباته
٤٦٥	١٧	١٩٠٨	١٨٠٩
٤٦٧	١٦	وضيعة	ومضيعة
٤٦٨	١٠	عليه أثناء	عليه برياسة ستاين أثناء
٤٧٢	١١	البرتقال	البرتقال وأن

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٧٣	١	التآلف	التحالف
٤٧٨	١٦	بحسبك	وبحسبك
٤٨٢	٣	والغازى والماتح	والغازى الفاتح
٤٩٢	١٥	مثلا	مثيلا
٤٩٣	٢	وجد	وجدة
٤٩٨	١	نابليون	[illegible]
٥٠٤	١٨	صنع	صنيع
٥٢٨	٥	فرارهم	قرارهم
٥٢٩	٣	١٩١٣	١٨١٣
٥٣٦	١	أعسطس	أكتوبر
٦٠٩	١٨	ناتنة	ناتئة
٦١٢	٣	يستقيط	يستيقظ

ملحوظة : سقطت عند طبع الكتاب الملزمة الواقعة بين الصحيفتين ٤١٦ و ٤١٧ فأعيدت تحت نمرة ٤١٦ — ولزم التنوية



الأمبراطور نابليون الأول

الكتاب الرابع

الامبراطور

الباب الأول : التحالف الدولى الثالث

الفصل الأول ـــ أسباب التحالف

« الثــانى ـــ موقعتان فريدتان فى التاريخ

« الثالث ـــ توزيع التيجان

الباب الأول

التحالف الدولى الثالث

الفصل الأول

اسباب التحالف

كانت الجرثومة الحقيقية لهذا التحالف الجديد تلك الحرب التى أعلنتها انجلترا على نابليون (فى ١٨ مايو سنة ١٨٠٣) وهى مندفعة اليها بعامل الكراهة لشخصه والخوف من اتساع نفوذه .

وقد تركنا نابليون فى بعض الفصول السابقة عند بولونى يدرب جنده كل يوم على ركوب البحر والنزول منه الى الأرض توطئة للغزوة التى أزمع القيام بها على شواطىء انجلترا نفسها وأشرنا إلى ما استشعرته انجلترا من الخطر المحقق أمام هذه الاستعدادات التى يقوم بها نابليون على بعد ٣٠ ميلا من بلادهم .

والآن أصبح نابليون امبراطورا على فرنسا فزاد مركزه ثباتا وقوة وزادت فى الوقت نفسه أحقاد الانجليز عليه كما زاد توجسهم من شره . فلقد كانوا يرجون الخلاص منه على كل حال وهو زعيم عارض تولى حكم فرنسا لمدة عشر سنين أو لمدة حياته . أما وقد أصبح امبراطورا يحكمها هو ثم يحكمها من بعده أبناؤه وأحفاده على نفس طريقته فهذه هى النكبة المؤبدة التى لا تطيق انجلترا أن تفكر فى احتمالها والتى لا بد لها من محاربتها مهما ضحت فى سبيل ذلك من أنفس وأموال .

وتصادف أن عاد وليم پت إلى رياسة الوزارة الانجليزية فى مايو سنة ١٨٠٤ وكان تعيينه فى ذاته نذيرا كافيا لنابليون بما سيلاقيه فى عهده من المتاعب والمشاغبات . وذلك لما اشتهر عن پت من مقته الشخصى لنابليون وحقده الشديد عليه .

وكان دوق دنجين قد قتل قبل ذلك بشهر وأحدث قتله ضجة عظيمة فى الدوائر الملكية الأوربيــة حتى أن قيصر الروسيا أمر أن يلبس بلاطه عليه الحداد ثم لم يلبث أن قطع علاقاته السياسية بسببه مع فرنسا .

ولم يكن پت ممن تفوتهم أمثال هذه الفرص فأنه سارع

الى القيصر بمجرد أن اشتم منه ريح السخط على نابليون واتفق الفريقين فى ١١ أبريل سنة ١٨٠٥ على تكوين حلف أوربى جديد على طاغية فرنسا .

وعرض على النمسا أن تشترك فى هذا التحالف الجديد ولكنها كانت تخشى مطامع الروسيا بقدر ما كانت تخشى أطماع نابليون فبقيت مترددة زمنا طويلا واخيرا غلب عليها سخطها على نابليون بسبب تدخله فى إيطاليا وقضائه على نفوذها فيها بتعيين نفسه ملكا عليها فانضمت إلى الحلفاء .

أما بروسيا فأنها على قدر تضررها من احتلال الجيوش الفرنسية لمقاطعة هانوفر فى بدء حربهم مع الانجليز كانت لا تميل إلى الاشتراك فى حرب أوربية عامة تخسر فيها جيشها الفخم ولذلك اعتصمت بخطة الحيـــاد وبقيت عليها دهرا طويلا على الرغم من الحاح بريطانيا والروسيا عليها فى وجوب الاشتراك .

وكانت غاية المتحالفين إعادة التوازن الدولى الذى أفسده نابليون بتوليه مُلْكَ إيطاليا . وتدخله فى سويسرا . وهولندا . وهانوفر . وارتباطه بمعاهدات صداقة مع كثير من الولايات

الألمانية . واهتمامه المتجدد بشئون مصر والشرق عامة وجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة فرنسية .

ولذلك اتفقت كلمتهم على مداومة القتال حتى يتم لهم الغاء الحكم الفرنسى من إيطاليا — وهولندا — وسويسرا — وهانوفر — واعادة بيمون Piedmont إلى ملك سردانيا — وحماية نابولى — واقامة حاجز بين فرنسا وأوربا بضم هولندا إلى بلجيكا تحت حكم أسرة أورانج .

أما خطة القتال فكانت أن يسير جيشان نمسويان أحدهما يتجه جنوبا نحو إيطاليا والآخر يتجه غربا نحو فرنسا . وكان من المتفق عليه أن يتئد الجيش الأخير فى سيره حتى يلحق به جيش آخر تبعث به الروسيا لينضم إليه وتتوحد جهودهما فى مفاجأة نابليون وهو ما يزال على انهماكه فى شواطىء فرنسا الشمالية يشرف على معدات تلك الحملة الخطيرة التى كان ينوى الأغارة بها على الجزائر البريطانية .

الفصل الثاني

معركتان فريدتان في التاريخ

أولم Ulm وأوسترلتز Austerlitz

كانت عادة نابليون التى جرى عليها فى كل خططه — « ان يعد لموضوعه مشروعين » «faire son thême en deux»— كما كان يقول — حتى إذا اتضح له فساد أحد المشروعين تحول عنه بسرعة البرق إلى المشروع الآخر .

وعلى الرغم من تكتم الدوائر الأوربية لهذا التحالف الجديد بغية مفاجأة نابليون به وتماديهم فى ذلك إلى حد اشتراك النمسا فى الحرب من غير أن تسحب سفيرها من باريس . فأن نابليون لم تفت عينه الراصدة اليقظانة جزئية من جزئيات هذه العاصفة العنيفة التى عبأها له وليم بت فى شرق أوربا لينسف بها ملكه . ولكنه رأى قبل أن يتوجه إلى أعضاء هذا التحالف (فى أوربا) أن يضرب رأسه (انجلترا) تلك الضربة التى طال تأهبه لها .

وكان نابليون يعلم أن الاسطول البريطانى كله قد احتشد فى المضيق ما بين فرنسا وانجلترا لما كان يعلم أنه لا يستطيع ركوب البحر ما دام نلسون مرابطا له على هذه الصورة فرأى أن لا بد له من الاحتيال لأقصائه عن بحر المنش حتى يتمكن فى غيبته من حمل جنوده إلى لندن وللوصول إلى هذه الغاية رسم الخطة التالية :

يسير فيلنيف « Villeneuve » أميرال الأسطول الفرنسى بسفنه إلى جهة الغرب موهما أنه ذاهب لمهاجمة مستعمرات انجلترا فى أمريكا . فأذا ما خرج وراءه نلسون فليضلله فى عرض البحر ثم يقفل راجعا إلى فرنسا ليسد المضيق فى وجه السفن الانجليزية ريثما يعبره نابليون وجنوده .

ولم يكن نابليون فى الواقع يحتاج إلى اكثر من ثمانى ساعات للوصول إلى الأراضى الانجليزية وكان يملؤه اليقين بأنه متى وضع قدمه فى تلك البلاد فأنه سوف يهيب بالشعب الانجليزى لحمله على الثورة على حكومته الغاشمة التى أرهقته بالضرائب والحرب المتواصلة فى سبيل الدفاع عن مصالح لاخوف عليها ولدفع مخاوف وهمية لا مبرر لها . وكان يقدر فى نفسه أن الشعب الانجليزى سوف يلتف حوله لذلك .

وبهذه الكيفية يتسنى له أن يقيم فى انجلترا نفسها نظاما حكوميا على طراز حكومة فرنسا .

وقد نجح النصف الأول من هذه الخطة أتم نجاح . فقد خرج فلنيف بأسطوله وخرج نلسون وراءه بمراكبه . وجدّت السفن الفرنسية فى سيرها حتى غابت عن أنظار الانجليز ثم ما لبثت أن حولت شراعها نحو فرنسا تاركة نلسون وراءها ينهب البحر نهبا ليدركها . . . . . فى أمريكا !

ولكن نلسون لم ين أن تنبه إلى ما حدث فبعث بأسرع زورق فى أسطوله لينذر الحكومة البريطانية بعودة الأسطول الفرنسى حتى تأخذ له أهبتها .

ووصل فيلنيف فعلا فوجد المراكب المتخلفة من الأسطول البريطانى قد وقفت فى وجهه خارج المضيق تمنعه من الوصول إلى الموانى الفرنسية نفسها . واشتبك الفريقان ولم ير فيلنيف بدا من أن ينسحب إلى قادس (فى اسبانيا) ليحتمى فى مينائها خشية تكاثر المراكب الانجليزية عليه .

معركة أولم Ulm

عند ذلك تحقق نابليون استحالة المضى فى هذا الطريق . وحول وجهه فورا نحو الشرق وبادر بنقل « الجيش الأعظم » وهو الأسم الذى أطلق على جيش بولونى — من بحر المانش إلى نهر الرين . وتم هذا الانتقال فى مدى عشرين يوما لم تكن تحلم النمسا فى خلالها بأن نابليون قد استطاع أن يجمع أمره ويستعد للرحيل .

وأدرك نابليون جيش النمسا الشمالى عند مدينة أولم (على نهر الطونة) وهو يزحف متلصصا تحت قيادة الجنرال ماك النمسوى ريثما يصل اليه جيش الروسيا الموعود ليقوم بغزو فرنسا فى غفلة من نابليون على ما كانوا يزعمون . فدار نابليون بجيشه الأعظم وانقض على مؤخرة ماك وقام بحركة تطويق باهرة قضى بها على جيش النمسا وهو ثمانون ألفا فوقع منهم فى يده ثلاثون الف أسير وارتد ماك بنحو ٣٦ الفا أخرى إلى مدينة أولم وتحصنوا فيها وهناك حاصرهم نابليون ولم ير ماك بدا بعد النكبة الأولى من تسليم قوته الباقية إذ لم يرى أى أمل فى الأفلات من ذلك النطاق الذى ضربه حوله نابليون .

وفى صبيحة اليوم التالى (٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠٤) جلس نابليون وسط أركان حربه على ربوة تجاه المدينة وهو يشهد خروج ستة وثلاثين الف جندى يلقون سلاحهم بين يديه . وقد استمرت هذه العملية خمس ساعات متواصلة كانت كل مالقى الأمبراطور من راحة منذ غادر ثغر بولونى ويقول المؤرخون أنه لم يسبق فى تاريخ العالم أن ضربة عاجلة قاضية مثل هذه الضربة قد تمت على يد أحد غير نابليون .

ولقد ثبت هذا النصر الباهر أقدام الأمبراطورية كما ثبتت موقعة ما رنجو اقدام القنصلية من قبل (١)

وتوالت هزائم النمسا بعد أولم واستمر زحف نابليون نحو فينا حتى دخلها فى ١٩ نوفمبر بعد أن فر منها امبراطور النمسا فرنسيس الثانى لينضم الى جيش الروسيا الذى كان يقوده القيصر بنفسه .

---

(١) ولكن حدث فى نفس اليوم التالى لنكبة أولم أن اشتبك نلسون بأسطول فيلنيف عند « الطرف الأغر » (فى ٢١ اكتوبر سنة ١٨١٥) ودمره تدميرا . وبذلك أنقذ انجلترا نهائيا من كل خطر كان يستطيع نابليون أن يهددها به ولم يخفف من دفع هذه الكارثة على الفرنسيين إلا أن نلسون نفسه قد مات فى المعركة . ولم يبق أمام نابليون بعد هذه النكبة البحرية الا مقاومة انجلترا من طريق تجارتها ومنع بضائعها وسفنها من الوصول الى أية دولة من دول أوربا .

معركة أوسترلتز Austerlitz

وعلى الرغم من انتصار نابليون ودخوله عاصمة بلاد أعدائه . فقد كان موقفه غاية فى الخطورة لأن توغله فى قلب أوربا جعله بعيداً عن باريس بمئات المراحل (نحو ١٥٠٠ ميل) وأصبح من المتعذر عليه الحصول على أى امداد منها لبعد المسافة واحاطة الحلفاء به من كل جانب . فأن الارشيدوق شارل لم يكد يسمع بضياع فينا حتى عاد من إيطاليا ومعه نحو ٧٠,٠٠٠ مقاتل كما أن الأمبراطور فرنسيس نفسه استطاع أن يجمع حوله من جديد نحو ٨٠,٠٠٠ جندى . أما جيش الروسيا المنتظر فقد كان يزحف حثيثاً بقضه وقضيضه ليزيد الى قوة النمسا أكثر من مائه الف روسى كامل العدد وكانت بروسيا ما تزال على حيادها ولكن القيصر ما كادت تصل اليه أنباء أولم حتى أسرع الى برلين لعله يؤثر بشخصه فى تحويل ملك بروسيا عن هذا الحياد العقيم الذى كان يلزمه فيضيف بذلك مائتى الف جندى بروسى الى قوة الحلفاء . وكانت الملكة لويزا ملكة بروسيا أشد من زوجها حماسة لهذه الغاية وكانت تعلم من

زوجها تراخيه وضعفه وتقلبه . فاقترحت أن يقسم الملكان قسما عظيما على قبر « فردريك الأكبر » لا يدع مجالا بعده للترددو التقلب . وفى منتصف الليل نزل الثلاثة — القيصر وملك بروسيا وملكتها — الى مقبرة ذلك الملك العظيم وأقسم الملكان على « أن ينصرا قضية الحلفاء ضد تلك المبادىء الشعبية الخطيرة التى كان ينشرها نابليون ويهدد بها عروش أوربا قاطبة . »

وهكذا اجتمع حول نابليون فى وسط أوربا نحو خمسمائة الف جندى . وهو لا يملك للقائهم أكثر من سبعين الف . وظنت كل أوربا أن النسر الفرنسى طار بجناحيه ليرمى بعنقه فى هذا الفخ العظيم . وحسب الناس أن نابليون سوف لا يخرج من فينا ولكنه يبقى فيها ويتحصن داخل أسوارها لصد هجمات تلك الجيوش ريثما يأتيه إمداد من فرنسا أو يمن الله عليه بالخلاص بأى شكل من الأشكال .

ولكن نابليون كان أحرص من أن يستسلم فى مكانه إلى هذا الخطر المحدق وبقيت دعوته لجنوده كما كانت دائما « إلى الأمام ! إلى الأمام ! » وحاول هو من جانبه أن يفرق بين القيصر وامبراطور النمسا فعرض شروطا للصلح على كل واحد منهما ولكنهما لم يؤخذا بخدعته واستمرا فى جهادهما المشترك

لاسترداد فينا من قبضته إلى أن كان يوم أول ديسمبر سنة ١٨٠٥ حيث تبين نابليون جيوش الحلفاء فى معسكرها على مرتفعات پراتزن Pratzen وفطن من حركاتهم إلى خطة القتال التى يريدون اتباعها معه وتنبه الى عيب فيها جعله لا يتمالك أن يصيح صيحة الفرح والاغتباط :

«غداً قبيل الغروب سيكون كل هذا الجيش فى قبضة يدى!»

وظل يومه على ظهر جواده ينظم صفوفه ويتهيأ للقاء اليوم التالى بل لقد ظل إلى منتصف الليل وهو يطوف بكتائبه ويعد معدات معركة الصباح بدقة تفوق الوصف حتى أنه قبل اشتباكه مع الأعداء سأل سولت : «كم من الوقت يلزمك للوصول إلى مرتفعات پراتزن ؟»

فأجاب سولت : يلزمنى أقل من عشرين دقيقة !

فرد عليه نابليون قائلا : إذن يمكننا أن ننتظر ربع ساعة آخر !

وتنبه فى تلك الليلة أحد الجنود إلى أن ليلتهم هذه كانت توافق ليلة عيد جلوس نابليون على عرش الأمبراطورية فما كان منه إلا أن أشعل حزمة من القش المعد لنومه ورفعها

على سنان رمحه هاتفا « ليحي الأمبراطور » فسرت عدوى فعلته سريان البرق فى زملائه وسرعان ما سطع الجو بضوء آلاف من هذه الشعل وكان الهتاف الحار بحياة نابليون يشق أجواز الفضاء .

وأغفى الجنود اغفاءة قصيرة قبيل الفجر . وعاد نابليون على ظهر جواده فى الساعة الرابعة صباحا وكان الضباب الكثيف يحجب عنه منظر أجناده وأجناد خصومه على السواء ولكن أذنه الفطنة تلمست من وراء أستار الضباب حركة العدو فأذا جلبة حافلة أشعرته بأن الروسيين يزحفون نحوه زحفا حثيثا بغية مفاجأته قبل أن ينتبه اليهم . فأمر بأن يضرب البورى « نوبة اليقظة » كما يسميها العسكريون . ونفخ فى الصور فأذا بجنوده إليه ينسلون . ولم تكن قد انقشعت بعد غياهب الظلام فى تلك الليلة الليلاء . وأسرع كل إلى مكانه المعد له . ولم تكد تشرق أضواء الفجر الأولى حتى كان كل جندى فى مكانه ينتظر أمر ضابطه ووقف الضباط بدورهم إلى جانب نابليون ينتظرون إشارته لبدء الهجوم . فلم تمض إلا لحظات قصيرة حتى دوى فى الفضاء صوت المدفعية الروسية وعند ذلك صاح نابليون :

« الآن حق الهجوم ! فهلموا أيها الأبطال ! »

فبادر كل إلى فرقته . والتحم الجيشان فى « معركة الأباطرة الثلاث » كما يسميها المؤرخون لاجتماع نابليون فيها بقيصر الروس وامبراطور النمسا الذى كان يصحبه . واستدرج نابليون جناح الجيش الروسى الأيسر من فوق الهضبة فأنزله الى الوادى وكان سولت فى هذه الأثناء يحل محله فيها . وألقى نابليون على قلب الروس جحيما مستعرا بناره وشياطينه ففندت صفوفهم تحت هجماته كما يفنى الضباب تحت أشعة الشمس . ولم تستطع الفرار منهم إلا بضعة ألوف من الفرسان أطلقوا لخيلهم العنان هاربين يلتمسون العودة من حيث أتوا . على أن النكبة التى حلت بهم كانت أشنع من نكبة زملائهم . فقد مروا فى طريقهم فوق بحيرة من الثلج المتجمد وانتبه اليهم نابليون فوجه قذائفه إلى سطح البحيرة فانشقت قشرتها الجامدة عن قبر واسع من الماء المثلوج احتوى فى بطنه تلك البقية الباقية من جيش الأعداء . وانتهى بهذه النهاية الأليمة آخر دور من أدوار تلك المعركة الخالدة — معركة أوسترلتز — التى ظل يتغنى بها شعراء فرنسا ويمجدون بها ذكرى بطلهم عشرات السنين .

وقد كانت خسائر الحلفاء فى تلك المعركة خمسة عشر الف مقاتل بين قتيل وجريح وعشرين الف أسير وثمانين ومائة مدفع وخمس واربعين راية وكمية لا حصر لها من المؤن والذخائر . على أن أعجب ما فى هذه المعركة أن نصف قوة نابليون لم تتح لها فرصة الاشتراك فى القتال فكأنما تم له كل هذا النصر الشامل على نحو مائة الف جندى بجيش لا يتجاوز الأربعين الف .

وهكذا انسحب القيصر بفلوله إلى بلاده قانعاً من العنيمة بالأياب ولم تر النمسا بعد نكبتى أولم وأوسترلتز واحتلال الفرنسيين لفينا إلا أن تقبل شروط الصلح التى يعرضها عليها نابليون .

أما وليم بت فانه كان مريضاً فى فراشه لما جاءته أنباء أوسترلتز فلم يقو على احتمال وقعها وفاضت روحه وهو فى شرخ شبابه بعد ذلك بقليل (٢٦ يناير سنة ١٨٠٦) .

وبذلك انحلت عناصر هذا التحالف الثالث ولم تتهيأ به لنابليون إلا فرصة جديدة ينكل فيها بخصومه ويعيد إلى أذهانهم ذكرى دروسه القديمة القاسية التى ألقاها عليهم فى سهول إيطاليا الشمالية .

وفى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٠٥ وقعت معاهدة پرسبورج بين فرنسا والنمسا وكانت أهم شروطها :

ا — فى ايطاليا — ١) اعترف فرنسيس الثانى بالمملكة الايطالية

٢) نزل لهذه المملكة عن إستريا Istria ودلماسيا Dalmacia والبندقية Venice

ب — فى ألمانيا — ١) ضمت التيرول إلى ولاية بافاريا (حليفة نابليون)

٢) حصل كل من أمير بافاريا وأمير ورتمبرج على لقب ملك وبذلك قضِى على نفوذ النمسا فى ولايتهما

وخسرت النمسا بهذا الصلح نحو ثلاثة ملايين من رعاياها وانقطعت صلتها بايطاليا وانفتح الطريق أمام نابليون إلى تركيا والشرق .

ولم يخل هـذا التحالف من « الفصل المضحك » الذى تنتهى به عادة أدوار الرواية المحزنة فان بروسيا التى قضت كل وقتهـا فى التردد والأحجام أبى سوء حظها الا أن تنقاد أخيراً الى دعوة القيصر فتخرج من حيادها وتبعث بانذار الى نابليون (فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٠٥) تطلب فيه أن يقوم فوراً باخلاء هولنـدا وسويسرا وبيمون وتهدده بالانضمام إلى التحالف اذا هو لم يجب هذه الطلبات . ووصل انذارها هذا الى نابليون قبل معركة أوسترلتز بأيام قليلة . وبذلك أدركت آخر فرصة ممكنة لـكسب غضبه عليها . فان هـذه المعركة قد بددت شمل التحالف كما وضحنا وانهارت به أركانه فانسحبت الروسيا واصطلحت النمسا ونظرت بروســـــيا فاذا هى ماثلة وحدها وجها لوجه أمام قاهر الحلفاء فلم تر إلا أن تنصاع لأوامره وتقبل شروطه على علاتها .

ولـكن نابليون كان يعلم أن الروسيا مازالت أمامه وأن انجلترا سوف لا تفتأ تكيد له فاكتفى من بروسيا بأن تعاهده (١٥ فبراير سنة ١٨٠٦) على نفض يدها من صلاتها الروسية والاشتراك معه هو فى المحافظة على سلامة تركيا من اعتداء

القيصر وأن تتعهد بمقاومة التجارة البريطانية ومطاردة سفنها في مدائنها الشمالية .

ولكي يكفل نابليون نفاذ هذا الاتفاق الحيوي قدم هانوفر الى بروسيا بدعوى أنها ولاية ألمانية وحق بروسيا عليها أظهر من حق الانجليز .

الفصل الثالث

توزيع التيجان

اتسع نفوذ نابليون فى أوربا بعد « معاهدة پرسبورج » اتساعا لم يسبق له مثيل منذ عهد شارلمان العظيم فرأى أن يقيم بنيان سلطانه على أساس من المصاهرات يجعل امبراطورية بونابرتيه اسما ولحما ودما :

ففى المـــانيا : زوج بنت ملك بافاريا إلى ربيبه أوجين بوهارنيه (نائب ملك إيطاليا) .

وقدم مدموازيل ستيفانى ابنة أخت جوزفين إلى ابن غراندوق بادن فتزوجها .

وكان أخوه جيروم قد تزوج فى أمريكا بفتاة أمريكية حسناء فطلقها منه وزوجه إلى بنت ملك ورتمبرج .

(وبذلك ارتبطت بافاريا وبادن وورتمبرج بفرنسا) .

وفى إيطاليـــا : كان أوجين بن جوزفين نائب ملك على لمبارديا وأنشأ نابليون فى البندقية ١٢ دوقية وزعها على أنصاره وكبار رجال حاشيته. وأرسل ماسينا لطرد آل بوربون من نابلى (جزاء لهم على تحالفهم مع الانجليز) ففر منها ملكها وملكتها للمرة الثانية وعين نابليون أخاه يوسف ملكا عليها.

وفى هولنـــدا : قلب نظام الحكم الجمهورى إلى نظام ملكى وعين لويس أخاه ملكا عليها .

وفى ولايات الرين : أقطع لمورا (زوج أخته كارولين) قطائع واسعة على حدود بروسيا الغربية .

وقرر ١٥ أمير من أمراء المانيا الجنوبية والغربية (وفى مقدمتهم أصهاره ملكى بافاريا وورتمبرج وغراندوق بادن) الانفصال من الأمبراطورية الألمانيـة (التابعة للنمسا) وألفوا « ولايات الرين المتحدة » وجعلوا عاصمتهم فرانكفورت ثم عقد الأمراء مع نابليون محالفة مستديمة

دفاعية هجومية ومنحوه حق السلم والحرب
وقيادة جيش الاتحاد وتحديد عدده
والأشراف على السياسية الخارجية .

وبذلك عقد سلطان نابليون المطلق من نهر الألب شمالا إلى جبال البرنيز جنوبا فضلا عن نفوذه الشامل على إيطاليا واسبانيا .

وازاء هذه العملية القاسية التى مثل فيها نابليون بامبراطورية النمسا فى المانيا وإيطاليا أشنع تمثيل لم ير فرنسيس الثانى بدا من النزول عن لقب « امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة» التاريخى والاكتفاء بلقب « امبراطور النمسا » فقط .

الباب الثانى : التحالف الدولى الرابع

الفصل الأول : أسباب التحالف

الفصل الثانى : موقعتان أخريان (يينا وأورستاد)

الفصل الثالث : قرارات برلين

الفصل الرابع : القيصر

الفصل الخامس : مارى ــ كونتس فاليسكا

الفصل السادس : انقلاب القيصر

الفصل السابع : معاهدة تلست

الباب الثانى

التحالف الدولى الرابع

الفصل الأول

أسباب التحالف

ذكرنا فى خاتمة الفصل الثانى من الباب السالف أن بروسيا قدمت (فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٠٥) إلى نابليون إنذارا تهدده فيه بالانضمام إلى التحالف الدولى الثالث اذا هو لم يخل هولندا وسويسرا وبيمون وان موقعة أوسترلتز وقعت بعد ذلك بأيام (ديسمبر سنة ١٨٠٥) وأن التحالف الثالث انهار بعد هذه الموقعة الحاسمة . وأن نابليون على الرغم من انتصاره الشامل لم يشأ أن يرهق بروسيا بمطالبه . فاكتفى باتفاقية ١٥ فبراير التى أشرنا اليها أيضا فى ذيل ذلك الفصل وبها تعهدت بروسيابالاشتراك مع نابليون فى واجب الدفاع عن سلامة

تركيا من اعتداء القيصر . وبمقاطعة التجارة الانجليزية . وفى نظير ذلك سمح لها نابليون بالاستيلاء على مقاطعة هانوفر .

وكان وليم ىت قد مات فى يناير سنة ١٨٠٦ كما ذكرنا . أما الذى ولى الوزارة البريطانية بعده فكان مستر فوكس Mr. Fox منافس بت Pitt وصديق نابليون . ورأى نابليون أن توليه الوزارة فى تلك الظروف ربما كان من دلائل إذن الله بعقد صلح مع الانجليز فدخل معه فى مفاوضات تمهد لأبرام هذا الصلح .

ولم يبق بعد ذلك من ملوك التحالف الثالث غير القيصر . وقد نما إلى علمه (فى شهر مارس سنة ١٨٠٦) نبأ تلك الاتفاقية التى حنث فيها ملك بروسيا بقسمه الذى أقسمه معه على قبر جده الأعظم والتى اتفق فيها مع نابليون (فى ١٥ فبراير سنة ١٨٠٦) على تلك الشروط التى ذكرناها فى حينها فلم ير بدا من الاتفاق هو الآخر مع نابليون . وأنشأ يفاوضه (فى مايو سنة ١٨٠٦) على شروط الصلح الذى يعقد بينهما . وبذلك أوشك علم السلام أن يرفرف على أوربا بأكملها بعد كل هذه الحرب .

ولكن القيصر فى الحقيقة لم يكن يبغى من وراء هذه

المفاوضة اكثر من أن يخادع نابليون ريثما يتصل بزميله القديم ملك بروسيا . ويعيد إليه توازنه بالارتباط معه بعهد جديد ينقض به عهده مع نابليون ويتنحى به أيضا عن طريق مطامع الروسيا فى الشرق . وقد نجح القيصر (فى يوليه سنة ١٨٠٦) فى عقد « معاهدة بوتسدام السرية » Potsdam التى تعهد له فيها ملك بروسيا بعدم التدخل إذا قام هو بواجب الدفاع عن تركيا من اطماع نابليون وهكذا نصب القيصر نفسه حارسا على تركيا من كل معتد عليها وهو لا ينوى إلا أن يستخلصها لنفسه ويستأثر بأسلابها دون غيره .

وكانت بروسيا فى الواقع منقسمة على نفسها . ففريق يرى مسالمة نابليون ودفع شره بالاتفاق معه وكان الملك وبعض وزرائه على رأس هذا الفريق.

وفريق آخر على رأسه الملكة ووزراء آخرون كانوا يرون الاشتراك مع الدول المتحالفة فى قتاله وذلك لعدة أسباب :

أولها — أن نابليون انتهك حياد الأراضى البروسية عند ما مرت جيوشه فيها وهى تحاول الوصول إلى ماك ومفاجأته عند أولم .

وثانيها — أنه أهملها وتغافل عن وجودها وقضى على

مستقبلها فى ألمانيا حينما جمع الولايات الألمانيــــة الجنوبية والغربية وأنشأ منها « اتحاد الرين » .

وثالثها — ان الجنود الفرنسية كانت ما تزال مرابطة فى جنوب وغرب ألمانيا منذ حروب التحالف الثالث .

ورابعها (وأهمها) — أنه بعد أن فرض عليها مقاطعة التجارة البريطانية — وكان بذلك سببا فى دخولها فى حرب مع انجلترا والسويد — عاد فأدخل هانوفر فى شروط الصلح التى كان يعرضها على فوكس عند مفاوضته له مع أن هانوفر هذه هى الغنم الوحيد الذى قبلت بروسيا من أجله أن تجر على نفسها كل تلك المشاكل .

ولقد نجح هذا الفريق أخيرا فى التغلب على الفريق الآخر ورأست الملكة بنفسها فرقة من الجيش البروسى فأذكى ذلك حماسة مواطنيها وهبت بروسيا كلها فى وجه نابليون . وتشجع الملك فبعث فى السابع من شهر اكتوبر (سنة ١٨٠٦) بأنذار آخر إلى نابليون يهدده فيـه بأعلان الحرب عليه إن لم يبدأ الجلاء عن ألمانيا فى اليوم الثامن من ذلك الشهر اى بعد الأنذار بأربع وعشرين ساعة .

وأبت الأقدار الا ان يموت فوكس فى هذه الظروف

وأن تنقطع بموته مفاوضات الصلح مع الانجليز . وكان القيصر من جهة أخرى قد اطمأن على بروسيا بعد معاهدة بوتسدام (يوليه سنة ١٨٠٦) وأخذ يستعد لاستئناف القتال . ونجحت جهود انجلترا والروسيا فى كسب اسبانيا إلى صف الحلفاء بعد تحطيم أسطولها مع الأسطول الفرنسى فى معركة الطرف الأغر . وسخطها على نابليون لهذا السبب . وبذلك تألف التحالف الدولى الرابع من هذه الدول الأربعة (انجلترا . والروسيا . وبروسيا . واسبانيا) غير أن بروسيا لم تتمهل ريثما يصلها المدد الروسى اعتدادا منها بقوة جيشها . وبذلك وقعت فى نفس الغلطة التى وقعت فيها النمسا حينما سيرت جيشها تحت قيادة ماك فتقدم بمفرده وكان ذلك سببا فى نكبته عند أولم .

على أن الجيش البروسى كال جديرا بالاعجاب حقا من حيث عدته وعدده ولكنه كان من حيث ضباطه وقواده لا يصلح لمواجهة نابليون أصلا فأن رياسته كانت من تخريج المدرسة القديمة وكانت تسير فى حركاتها العسكرية على نفس الخطط التى كان يتبعها فردريك الأكبر فى القرن السابع عشر . ويكفى أن نذكر أن قائده الأعلى كان الدوق برنسويك الذى

كان فى عهد الثورة الأولى يهدد الفرنسيين بتخريب باريس أذا هم مسوا أفراد الأسرة المالكة بأذى فكان سببا ،أنذاره هذا فى جمع كلمة الثائرين وشحذ هممهم ونجاح حركتهم .

ولقد اتبع نابليون كعادته سياسة التفاهم تلافيا لويلات القتال فكتب رسالة خاصة وجهها إلى ملك بروسيا لعله يرجع عن انذاره ويكفى الأمتين شر الحروب . ولكن الأمر كان قد خرج من يد الملك واصبحت القضية قضية الشعب البروسى . والشعب نفسه هو الذى كان يطلب الحرب فى هذه المرة . واليك نص رسالة نابليون :

١٢ اكتوبر سنة ١٨٠٦

أخى

. . . . اكتب لكم من قلب سكسونيا . وصدقونى إن القوة التى معى لن تسمح لجيوشكم بترجيح كفة النصر إلى جانبكم طويلا — ولكن لم إراقة الدماء ؟ — ولأية غاية ؟ — أنى لأكتب لكم بنفس اللغة التى وجهتها إلى القيصر قبل معركة أوسترلتز بيومين . . .

يا صاحب الجلالة

لقد كنت صديقكم مدة ست سنوات . ولو أن مذكرتكم لى طلبت الىّ أجابة شروط معقولة لما ترددت فى إجابتها . ولكنها تفرض علىّ العار . فى وسعكم أن تعرفوا ماذا يكون جوابى — إذ لن يكون بيننا إلا الحرب وستنفصم عرى صداقتنا إلى الأبد ! فهل من سبب ندفع برجالنا من أجله إلى المذبحة ؟ إنى لا أرى قيمة للنصر الذى أشتريه بدماء الكثيرين من أبنائى . ولو أننى فى مستهل حياتى الحربية وكنت أخشى بعدُ أهوال المعارك لما كان لهذه اللغة التى أخاطبكم بها أى معنى . . .

ياصاحب الجلالة

إن لجلالتكم الهزيمة المحققة فى هذه الحرب . وانكم لتجنون بذلك على حياة هادئة كنتم تحيونها وعلى وجود قوى كنتم تكفلونه لشعبكم . وما لكم فى كل ذلك من شبهة فى عذر . واليوم تستطيعون أن تتفاوضوا معى بما يتفق مع سمو مركزكم . ولكنكم لن ينقضى عليكم شهر واحد حتى تجرى بيننا مفاوضات على أساس آخر . وانى لأعلم بأن ما اكتبه اليكم الآن يثير فيكم تلك الحساسية التى هى من طبع

الملوك . ولكن الظروف تضطرنى أن اكون معكم صريحا .
وأرجو أن لا تروا جلالتكم فى كلامى هذا الا رغبتى فى حقن الدماء .

وأنى أسأل الله يا صاحب الجلالة أن يحيطكم بحفظه ورعايته .

أخوكم الصادق
نابليون

الفصل الثاني

موقعتان أخريان — يينا واورستاد

Jena & Aurstadt

لم تثمر دعوة نابليون إلى الصلح والتفاهم . وكانت خطة الجيش البروسى أن يسير غربا ليطرد الجيوش الفرنسية المرابطة هناك . ولكن نابليون ما علم بموقف بروسيا الأخير حتى طار إلى لقائها . وبهت برنسويك إذ علم أن نابليون قد تسلم قيادة الجيش الفرنسى فعلا . وانه جاد للقائه . وبعد أن كان ينوى أن يبدأ بالهجوم استحسن أن يتقهقر إلى مجدبرج تاركا جناحه الأيسر تحت قيادة (هوهنلوه Hohinlohe) للمحافظة على (يينا Jena) . ولكن نابليون أرسل دافوت « Davoust » للحاق ببرنسويك وانقض هو على هوهنلوه فى يينا (١٤ اكتوبر سنة ١٨٠٦) . فوقف له الجيش البروسى وقفة عنيدة منذ الساعة السادسة صباحا حين بدأت المعركة حتى الساعة الرابعة بعد الظهر . واستمرت

المعركة فى حلال تلك الساعات الطويلة سجالا عنيفا بين الفريقين . وأخيرا راى نابليون من كلال العدو واعيائه ما جعله يطمئن إلى اتخاذ الاجراءات الختامية لأنهاء المعركة فبعث بفرقة من الفرسان قوامها ١٢ الف فارس تحت قيادة (مورا) فقضت بسنابكها على البقية الباقية من جيش هوهنلوه وملكت عليها مسالك الهرب . وظلت تعمل السيف فى فلول البروسيين حتى خيم الظلام واضيف يوم يينا إلى سجل نابليون الحربى كمفخرة من أزهى مفاخرة .

وكان دافوت قد ادرك فى نفس ذلك اليوم جيش برنسويك عند اورستاد على بعد ١٢ ميلا من يينا وانتهى به إلى مثل ما انتهى إليه نابليون بجيش هوهنلوه وبلغت خسائر البروسيين فى ذلك اليوم العصيب نحو ٢٠ الف اسير غير عشرين الف اخرى ما بين قتيل وجريح .

وكان ملك بروسيا نفسه من بين الأفراد القلائل الذين كتبت لهم النجاة فى ليلة تلك الهزيمة النكراء فظل على جواده هائما بين الحقول والغابات حتى ادركه الصبح وهو فى مخبأ بعيد ثم واصل سيره منه إلى حدود پولندا كيما يتصل هناك بجيش الروس الموعود .

ولقد وقعت انباء هاتين الموقعتين على بقية الحصون البروسية موقع الصواعق فأخذ قوادها يتنافسون فى التسليم لنابليون حتى لم تبق الا « لوبك » (Lubeck) وكان عليها قائد شهم اسمه (بلوخر) وهو الذى تمت على يده فيما بعد هزيمة نابليون فى معركة ووترلو الشهيرة . فظل يقاوم الفرنسيين حتى تغلبوا عليه ودخلوا حصنه عنوة ولم يبق امامه الا الرضوخ .

وعند ذلك عرض نابليون على ملك بروسيا شروطا للصلح رآها الملك مجحفة لا يستطيع إلى إجابتها سبيلا فرفضها ورحب الحلفاء بهذا الرفض لأنهم كانوا ينوون القيام بعمل مشترك قريب وكانوا يخشون خروج بروسيا عليهم من جديد فينفرد نابليون بالروسيا ويسهل عليه افتراسها وبذلك تضيع الفائدة من جهود الحلفاء .

وانفتح الطريق إلى برلين امام نابليون فبعث إليها بدافوت ليسبقه فى دخولها تكريما له على حسن بلائه فى اورستاد . وقضى هو ليلتين فى بوتسدام نزل خلالها فى قصر فردريك الأكبر واقام فى حجرته وعرض الحرس الامبراطورى ثم زار قبر فردريك واخذ سيفه ومنطقته وغير ذلك من آثاره

وجمع اعلام حرسه الخاص فى حرب السبع سنوات وارسلها كلها إلى باريس كغنائم حرب .

وفى ٢٧ اكتوبر وصل نابليون برلين بين قواده واركان حربه وكان فى طليعة الموكب ثمانون من الحرس الامبراطورى حاملين الأعلام التى غنمها الفرنسيون من الجيش البروسى وقد خرج للقائه وفد من الأعيان والحكام تحت رياسة الكونت (هاتزفلد) Conte Hatzfeld حاكم المدينة فرحبوا به وقدموا له مفاتيحها .

ووصل نابليون إلى القصر الامبراطورى فى الساعة الثالثة بعد الظهر فأخذ يهتم بتنظيم المدينة واستبقى الكونت هاتزفلد حاكما عليها كما كان وتولى الكونت أمر المفاوضة بين الحكومة البروسية وبين نابليون ولكنه بلغ به الطيش إلى حد أن يفشى إلى بعض القواد البروسيين ما علمه بحكم مركزه عن الجيش الفرنسى . وتطوع بالتجسس على نابليون فضبطت إحدى رسالاته وقرر نابليون إحالته إلى المحاكمة تمهيدا لأعدامه .

وكان للكونت زوجة طيبة سليمة القلب فما كاد يصل

إلى علمها ما حل بزوجها حتى ظنت أنها وشاية وشى بها فى حقه بعض القواد الفرنسيين فعقدت النية على تبرئته عند نابليون. وتقدمت إليه وهى تذرف الدمع وألقت بنفسها عند قدميه واخذت تدافع عن زوجها بكل حرارة. وكان نابليون لا يحب من النساء أشباه الملكة لويزا التى دفعت زوجها ووطنها فى أتون هذه الحرب وسببت كل هذه الخسائر فى الأموال والأرواح ولكنه كان يمتلىء عطفا وحبا نحو المرأة الصالحة الطيبة مثل الكونتس هاتزفلد. فما هو أن رأى تأثرها وانفعالها حتى رفعها عن الأرض ثم فكر قليلا — وقال:

— « لا شك يا سيدتى أنك تعرفين جيدا خط زوجك. فخذى هذه الرسالة واقرئيها ثم ابرينى عمن كتبها! ».

وناولها الرسالة. فعرفت خط زوجها. ولم يسعها إنكاره. وعلمت أنه لم يعد لها حجة لطلب العفو. فلملمت نفسها ونهضت. . ثم انفجرت مرة أخرى بالبكاء وهى تهم بالخروج مستسلمة إلى قضاء الله. وعند ذلك استوقفها نابليون ومد إليها يده بالرسالة قائلا:

— « خذى هذه الرسالة يا سيدتى وألقها فى النار ينعدم

الدليل الوحيد الذى لدينا على خيانة زوجك وبذلك ينجو من القصاص ! » .

فبهتت المرأة لسماع هذا الكلام وتناولت الرسالة وألقتها فى النار ووقفت تنظر إلى ما يتصاعد من لهبها ودخانها وهى لا تكاد تصدق ما تسمع وما ترى .

الفصل الثالث

قرارات برلين

دخل نابليون برلين فى ٢٧ اكتوبر سنة ١٨٠٦ كما اسلفنا. ودانت له بذلك ألمانيا الشمالية. كما دانت له من قبل ألمانيا الجنوبية فضم مقاطعتى هس — كاسل Hesse - Cassel وبرنزويك Brunswisk بعضها إلى بعض بعـــد أن عزل أميريهما لا شتراكهما مع بروسيا فى حربها الأخيرة وأنشأ منهما مملكة « وستفاليا » «Westfalia» وعين أخاه الأصغر جيروم ملكا عليها.

أما أمير ساكسونى فأنه بادر من تلقـاء نفسه فطلب الانضمام إلى « اتحاد الرين » ليكسب بذلك عطف نابليون عليه. وقد صدقت فراسته وانعم عليه نابليون بلقب « ملك ساكسونيا » فشجع كثيرا من ولايات المانيا الشمالية الصغرى التى كانت تخشى غضب نابليون عليها فتفادته بانضمامها هى الأخرى إلى « الاتحاد ».

على أن نابليون اصبح لا ينظر إلى هذه الانتصارات والفتوح كغاية فى ذاتها يصح الاغتباط بها والتعويل عليها بعد أن رأى ما رأى من تصميم انجلترا على هدمه فبات هو الآخر لا يقر له قرار حتى يتخلص منها أو يتغلب عليها واصبحت حروبه كلها بعد تحطيم أسطوله وأسطول حلفائه الاسبان فى موقعة الطرف الأغر وبعد وفاة صديقه فوكس لا تعدو أن تكون وسيلة لبسط نفوذه على جهات جديدة من أوربا ليحملها بقوة سيفه على أن تتعاون معه فى القضاء على انجلترا بمقاطعة تجارتها وحصرها فى جزائرها حتى تضمحل وتهلك .

ففى ٢١ نوفمبر أصدر من برلين أول حلقة من سلسلة المرسومات الشهيرة « بمرسومات برلين » أو « قرارات برلين » وهى التى أعلن فيها أن الجزائر البريطانية فى حالة حصر — وأنه من المحرم الاتصال بها أو الاتجار معها . فالمراكب الانجليزية التى تضبط فى المياه الفرنسية أو مياه حلفائها تكون غنيمة حربية للفرنسيين والرعايا البريطانيون الذين يضبطون على الأرض الفرنسية أو أرض حلفائها يلقى عليهم القبض ويعاملون كأسرى الحروب .

وكانت هذه المرسومات أساس تلك السياسة التى اشتهرت

فيما بعد باسم « النظام القارى » وهى تلك السياسة التى أراد بها نابليون أن يقضى على انجلترا بالقضاء على تجارتها فى القارة الأوربية . فكانت بدورها سببا فى القضاء على امبراطوريته . ثم على عظمته ومجده . ثم على آماله وعلى شخصه . وذلك لأن تنفيذ هذه السياسة لم يكن متعلقا بأشخاص الملوك الذين كان يحملهم نابليون على اتباعها . ولا بالحكومات التى كان يلزمها نابليون بوجوب السير عليها ولكنها كانت تمس افراد الشعوب المختلفة واحدا واحدا وتستدعى تضحيات شخصية يقوم بها كل إنسان فى حاجياته وادوات عيشه لأن المراكب الانجليزية كان يقع عليها عبء تموين أوربا كلها بما تحتاج إليه دولها المختلفة من مصنوعات العالم ومنتجاته فمنعها من أداء عملها معناه حرمان هذه الدول مما تحتاج إليه من المصنوعات وفى بعض الأحيان حرمانها مما هى فى حاجة إليه من الغذاء .

ولقد صادف نابليون بعد هذه القرارات فتوحا باهرة . واضاف إلى عظمة اسمه اسبابا جديدة ولكنه فى الواقع وهو يوقع هذه القرارات كان يوقع صك فشله وسقوطه .

الفصل الرابع

القيصر

تشكل التحالف الرابع فى أحرج الأوقات بالنسبة لنابليون وكانت الغاية كما أوضحنا تحويل نابليون عن الغزوة البريطانية ومفاجأته فى الوقت نفسه بنصف مليون جندى يزحفون على حدوده الشرقية فيملون عليه الشروط التى ترضاها انجلترا وحلفاؤها .

ولكن نابليون حطم النمسا تحطيما فى أولم وأوسترلتز . وقضى على جيش بروسيا قضاء مبرما فى يينا وأورستاد . ولم يبق من زعماء التحالف أمامه إلا القيصر — وقد عقدت أوربا عليه وعلى جيشه العظيم آمالها فى القضاء على نابليون !

وكان هذا القيصر الذى عقدت عليه الآمال فتى شاباً رقيقاً . خفيف الروح . أحمر الخدين . نسوى الملامح . عواطفه هى العنصر الغالب فى مزاجه . ولم يكن على أية حال ند نابليون فى تلك الوقفة التاريخية التى أوشكا أن يقفاها . وبحسبى أن أسوق لك وصف نابليون نفسه له ليتبين لك الفرق بين الغريمين

« إن القيصر اسكندر لأحد أولئك الناس الذين تجذبك اليهم صفاتهم والذين يفتنك سحرهم ويحملك على التعلق بأشخاصهم ولو أننى رجل أندفع وراء العواطف الشخصية لكانت له على قلبي السيطرة المطلقة . ولكنه إلى جانب ذلك ينقصه شيء لا أستطيع تحديده — شيء لا يستطيع الانسان أن يخصصه بظرف معين أو بحالة معينة لأن ذلك الذى ينقصه يختلف دائما باختلاف الظروف والأحوال . . . ،

وفى الجملة لو أن هذا القيصر امراة فما أظن إلا أنى كنت اتخذته خليلة لى ! »

* * *

وقد كان نابليون يعلم من رجاله الذين دخلوا قصر بوتسدام (حيث كانت تقيم الملكة لويزا ملكة بروسيا) أن القيصر كانت له منزلة ممتازة فى قلب الملكة وأنه ترك لها صورته كتذكار وأن هذه الصورة قد وجدت كما قال نابليون « معطرة بأطيب العطور وقد اختلطت هى وأدوات الزينة برسائل الدولة الرسمية ووثائقها » ولذلك لم يفت نابليون ما فى الموقف من الخطر إذا ما اتحد ملك بروسيا تسوقه عوامل الوطنية والغيرة على سمعة بلاده بقيصر الروسيا وهو مدفوع بشهامته

وعهوده للملكة بأنه سيقف إلى جانبها حتى يتم لها النصر والفوز
ووافته الأنباء من بروسيا الشرقية بأن الروسيا قد بعثت بجيش عظيم تحت قيادة بنجسن Bennigsen لرفع الحصار عن بعض موانى ألمانيا الشمالية التى كان يحاول نابليون الآن الاستيلاء عليها توسعاً فى تنفيذ « نظامه القارى » فغادر برلين من فوره وسار قاصدا إلى نهر الفستولا حيث علم باجتماع ملك بروسيا بجيش القيصر وقد أوحت اليه فطنته أن يمهد للحملة القادمة بمنشور أذاعه على البولنديين يمنيهم فيه بالعمل على إعادة استقلالهم اليهم ليضمن ولاءهم له وليزيد بأثارة هذه الخواطر فيهم حرج مركز أعدائه .

ولكن هذا المنشور كان سبباً فى اتصال نابليون بالكونتس فاليسكا « Comtesse Waleska » ذلك الاتصال الذى لا نستطيع ان نمر بدون الاشارة اليه لما كان له من التأثير المباشر فى ما استجد بعد ذلك من الحوادث .

الفصل الخامس

مارى فاليسكا

ساجية الطرف . ساحرة النظرات فتانة الملامح . لا تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها . من اسرة عريقة فى المجد ولكنها فقيرة ولذلك اغرتها امها بقبول الزواج من الكونت فاليسكا الشيخ البولندى العجوز طمعا فى غناه وتحسين حال الأسرة . وقبلته الفتاة راضية مع ان لصغر احفاده يكبرها بنحو عشر سنوات وكانت مارى قد تقدم اليها شاب روسى نبيل يطلب يدها فرفضته بأباء لا لشيء إلا انه روسى والروسيا هى عدوة بلادها بولندا وسر نكبة اسرتها لأنها اشتركت مع النمسا وبروسيا فى القضاء على استقلال وطنها[١] . فكانت إذا اشتبكت دولتان من هذه الدول الثلاثة فى حرب فليس على المغلوب إلا ان يسترضى الغالب بالتنازل له عن شيء من حصته فى ارض

---

(١) تقع بولندا بين هذه الدول الثلاثة . فكانت بحكم موقعها موضع التجاذب بينها تسعى كل واحدة منها للاستيلاء عليها . ولكنها اتفقت أخيراً على تقسيم بولندا الى ثلاثة أقسام تختص كل دولة منها بقسم .

پولندا . وهكذا بقيت تلك البلاد التعسة نهبا مقسما بين هذه الدول .

واخيراً ظهر نابليون فى اوربا حاملا لواء الديمقراطية فى وجه الاستبدادالارستقراطى العتيق ورأته مارى يقضى على النمسا ثم على بروسيا فتوجهت ميولها إليه ثم رأته يتقدم الآن للقضاء على روسيا فرأت فيه الصديق الطبيعى لبلادها لأنه عدو أعدائها وتمثلت فيه قوة الله التى سخرها لانقاذ وطنها فما هو ان عرفت امر المنشور الذى اعلن فيه عن عزمه على إعادة استقلال پولندا حتى كانت فى طليعة مستقبليه . وبلغ بها الانفعال لدى رؤية موكبه الفخم ان القت بنفسها إلى جانب عربته قائلة :

« مرحباً بك يا مولاى ! إن ارض پولندا لتتشرف ان تطأها قدماك وان البولنديين مهما فعلوا لتحيتك لا يستطيعون ان يعبروا التعبير الصادق عما تكنه افئدتهم من الحب لشخصك العظيم . وان هذا الوطن المنكود ليضرع اليك ان تأخذ بيده لتنقذه من الاستعباد . »

وقد أُخِذ نابليون بفتنة هذه الشابة وهى تتوسل اليه وتستجديه العطف على قضية بلادها فوعدها خيرا وناولها

باقة من الزهور كانت فى يده طالبا اليها ان تحتفظ بها كعربون على حسن نياته نحو پولندا . . .

دخل نابليون بعد ذلك مدينة وارسو واقيمت له حفلة استقبال باهرة جمعت وجوه القوم . واقيال پولندا . وازدانت الحفلة بعقائل كبار البولنديين — وكان الجمال البولندى ومازال مضرب الأمثال فى كل اوربا — فزاغت أبصار ضباط نابليون وقواده . وطفق كل منهم يتودد إلى إحدى المحتفلات يراقصها ويحادثها بينما جلس نابليون فى مكانه شارد الفكر قلق العينين حتى لقد استلفت امره انظار كل الحاضرين .

واخيرا استقرت عيناه على جهة معينة وأبرقت اساريره وادركته شبه نشوة فأكثر من ملاطفة جلسائه ومعابثتهم حتى لقد دهش الجميع من هذا الانقلاب وتتبعوا نظراته فاذا هى مصوبة نحو إحدى المدعوات فاشرأبت نحوها الأعناق وسرى اسمها سريان البرق فى كل صالونات القصر من فم إلى فم — « الكونتس فاليسكا ! »

وانتهت الحفلة . . .

وما كادت تدخل الكونتس مخدعها حتى سلمتها وصيفتها الرسالة التالية :

« لم ار غير وجهك . ولم اعجب إلا بك . ولست ارغب إلا فيك فهل من رد عاجل تطمئن له نفسى القلقة الثائرة . ن . »

ولـكن الجنرال ديروك عاد دون ان يظفر برد على هذه الرسالة وكان وقع ذلك على نفس نابليون اليما . فانه اعتاد ان يرى النساء والأميرات يتهافتن عليـه إذا ما القى بنظرة إلى إحداهن فما بال هذه الشابة تصد عنه وتهمل رسوله ؟ افينتقم منها هذا التصرف ويغضب عليها كما كان يغضب على كل من حاول ان يعصى له امرا ؟ حبذا لو استطاع — وحبذا لو فعل ! ولـكنه لم يستطع إلا ان يرسل اليها رسالة اخرى :

« هل اغضبتك يا سيدتى ! كنت اطمع فى ان القى منك غير ما لقيت فهل اخطأت ؟ إن اندفاعك نحوى قد فتر بينما اندفاعى نحوك ينمو ويزيد حتى لقـد سلبتنى الراحة فهلا تمنين بشىء من الفرح والسعادة على قلب لا يريد الا ان يجلك ويمجدك ؟ وهل يصعب عليك إلى هذا الحد أن تجيبى على رسائلى بكلمة ؟ أنك مدينة لى بردين ! ن. »

أما الرسالة الأولى فأن « مارى » قد كورتها فى يدها وألقتها إلى الأرض نافرة من جرأة أسلوبها . وأما هذه الرسالة فأنها ابت ان تفتحها اصلا وامرت الرسول بأن يعود بهـا إلى

سيده . ولكن الرسول لم يذكر إلا أنه لم يظفر برد .

وثقلت وطأة هـذا الفشل المتكرر على نفس نابليون . ورأى أن يطرق باب الأيهام والتعليل مادام باب الاستعطاف والتوسل ظل موصدا فى وجهه .

وذهب « ديروك » للمرة الثالثة برسالة جديدة وفى هذه المرة دخل على الكونتس بنفسه وظل يعالج إصرارها وعنادها بكل ما أتاه الله من فنون القول وأساليب الكلام ثم ألقى على ركبتيها مظروفا جديداً فقرأت فيه :

« سيدتى إن العظمة لتثقل على النفس أحيانا . وهـذا ما أحسه الآن ، وكيف أستطيع أن أجيب مطلب قلب يود لو يطير اليك فتقعده أثقال الاعتبارات العالية ؟ . . . إنك أنت التى تستطيعين أن تزيلى مابيننا من العوائق وهذا صديقى ديروك يعاونك ويمهد لك السبيل ! تعالى الى وكل رغباتك مُجَابةٌ . وسيكون وطنك اعز على نفسى متى اخذتك الرحمة بقلبى المعذب المسكين . . . »

وصدقت فراسة نابليون . . . . وكثرت المؤثرات حول رأس الكونتس الشابة حتى لم تعد تدرى ماذا تقول او ماذا تصنع . ولم يبق من كبار رجالات بولندا من لم يشجعها على

تلبية نداء الامبراطور خدمة لقضية بلادها . فاستسلمت المسكينة آخر الأمر . وانهمرت الدموع من مآقيها وقالت فى تنهد عميق :

« اصنعوا بى ما شئتم . وليكن ما يرى الله ان يكون ! »

وكان الموعد المضروب لذهابها اليه فى الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم . ووقف نابليون فى غرفة قبيل الموعد وقد عقد كفيه وراء ظهره واستغرق فى افكار عميقة وهو يذرع أرض الغرفة مسرعا جيئة وذهابا مضطرب العقل سابح النظرات حتى لقد قال عنه خادمه كونستان فى مذكراته :

« كان نابليون قبيل تلك الساعة كتلميذ ضرب أول موعد لحبيبته . فأخذ قلبه يخفق وصبره ينفد وهو يسأل بحدة بين كل دقيقة وأخرى : كم الساعة الآن ؟ ولقد صرف نابليون فى تلك الساعة سكرتاريه وطلب أن لا يدخل عليه قواد ولا غير قواد . وأمر بأن يحل جواده وينزع عنه سرجه . ولينتظر الآن كل رجال السراى — والجيش — وباريس ولتنتظر أوربا كلها أيضا . . . ! فأن هذا الرجل الذى أفنى من عمره سبعا وثلاثين سنة لم يعرف فيها طعم الحب الا مرة واحدة حين رأى جوزفين وهى تكبره بأكثر من ست

سنوات قد عاد الآن إلى حظيرة الحب وأسلم زمامه لصبية فاتنة رفضته مرتين ولم يصل اليها الا عن طريق المخادعة والتلويح بالوعود الخلابة .

وانقضت المقابلة الأولى بين النسر وفريسته بعد ثلاث ساعات طويلة قضتها الكونتس فى بكاء مستمر وقضاها نابليون فى ملاطفة متواصلة حتى لقد خرجت الكونتس من عنده فى الساعة الواحدة وهى تعجب لهذا الرجل الذى يقول الناس عنه انه « حديدى » والذى رأته هى بعينها يذوب رقة ويقطر حنانا . . .

وتكررت هذه الزيارة بعد ان اطمأنت فاليسكا إلى نابليون . واصبحت تأنس به وتسر بمجلسه . ووجد نابليون فيها بما أبدته من العفة والولاء ضالته التى ينشدها من بين نساء العالمين فحرص عليها وقضى كل أوقاته بين يديها ولعل شيئا من ذلك وصل إلى علم جوزفين فى باريس فاهتاجتها الغيرة وألحت على زوجها فى وجوب حضورها اليه فكان يعتذر لها ببعد الشقة وسوء حالة الجو . ولكن هذه المعاذير لم تكن تزيدها إلا رغبة فى السفر واضطربت نفسها وقلقت خواطرها وبلغت نابليون اخبار حزنها ويأسها وبكائها المستمر . . . فكتب اليها يقول

« إن ما بى يا عزيزتى لفوق الذى بك . ولكم كنت اتمى ان تشاطرينى ليالى هذا الفصل الطويلة ولكننى اتطلب منك شيئا من الشجاعة والحزم . . ولقد اخبرونى انك دائما تبكين . فأف لهذا البكاء . ما اقبحه واثقله ! . . . . إن الأمبراطورة ينبغى ان تكون ذات قلب شديد ! فابقى إذن بباريس وكونى فيها مرحة سعيدة . وربما وافيتك فيها عن قريب . اما قولك انك اتخذت لك زوجا لتكونى معه فقد اضحكنى كثيرا . فانى اظن — على جهلى — ان المرأة لرجلها وان الرجل للوطن . وللأسرة . وللمجد ! »

وهكذا انعكست الآية بين نابليون وجوزفين فبينما كان هو يلح عليها فى ايطاليا متوسلا اليها ان تحضر اليه وهى غافلة عنه بأصحابها واصدقائها الكثيرين اصبحت هى اليوم تلح عليه فى پولندا متوسلة اليه ان يسمح لها باللحاق به وهو يدافعها عن نفسه بنفس اعذارها المنتحلة . وينشغل عنها بكنزه الثمين — مارى !

ولم تكن اهمية مارى لنابليون فى أنها وهبته ولاءها بعد صدها وحبته برضائها بعد نفورها . ولكن فى أنها وضعت له

غلاما (١). وكان ذلك سبباً فى إقناعه بأن عقم جوزفين ناشئ عن نقص فيها هى لا عن نقص فيه. فقويت عنده فكرة الطلاق منها ليتيح لفرنسا وارثاً يجلس على عرشه فيها من بعده

* * *

وأخيراً علم نابليون بتقدم القائد الروسى « Bennigsen » نحو شواطئ المانيا الشمالية ودعاه إلى اقسائه داع « المجد والوطن » كما كان يقول لجوزفين. فلم تقعد به صلاته بمارى ولم يضع احساسه بالواجب فى وسط تلك الدنيا التى انغمست فيها حواسه. ولكنه هب يودع رفيقته فأعطاها خاتما نقشت عليه هذه العبارة :

« Si tu cesse de m'aimer, n'oublie pas que je t'aime »

« إذا أمسكت عن حبى فلا تنسى أننى على حبك مقيم ! »

وهكذا انفصل الصديقان ولم يقدر لهما أن يجتمعا بعد ذلك إلا فى جزيرة البا حيث نفى نابليون بعد اعتزاله الملك ورأت مارى أن تلك ساعتها التى تستطيع أن تدخل السرور على قلب صاحبها القديم فرحلت اليه هى ووليدها وكانت بذلك كريمة معه فى محنته أشد مما كانت كريمة معه فى نعمته !.

---

١ أصبح هذا المولود فيما بعد وزير خارجية فرنسا وذلك فى عهد الامبراطور نابليون الثالث .

الفصل السادس

انقلاب القيصر

سار بنجسن Bennigsen نحو ميناء دانتزج ولكن تقدم نابليون نحوه كان سبباً فى ارتداد الجيش الروسى إلى إيلاو حيث حضر القيصر بشخصه وهناك التحم الجيش الفرنسى وعلى رأسه نابليون بجيش القيصر (٨ فبراير سنة ١٨٠٧) وللمرة الأولى فى تاريخ الحروب النابوليونية تدوم المعركة ثلاثة أيام كاملة يخسر فيها الفرنسيون نحو ٢٥,٠٠٠ جندى ثم يرتدون وقد أخطأهم ذلك النصر الذى كان من نصيبهم دائماً فى كل المعارك السابقة .

ولم يشأ نابليون أن يعاود القتال مع الروسيين بعد الذى رآه من صلابتهم قبل أن يزود جيشه بكل ما يستطيع جمعه من الأدوات فلبث ثلاثة شهور يتلقى من حلفائه كل ما استطاعوا جمعه له ونجح فى الوقت نفسه مسعاه فى إثارة سلطان تركيا للقيام من جديد فى وجه القيصر « عدوهما المشترك » . وفى

تأكيد تمنيـــاته السلبية للنمسا حتى لا تفكر فى الانتصار لحليفها القديم . وفى حض البولنديين على انتهاز هذه الفرصة وحمل السلاح فى وجه شر أعدائهم والعامل الأساسى فى هدم استقلالهم وتمكن بهذه التعبئة العامة سلبيها وإيجابيها من تقوية مركزه وإحراج مركز خصمه .

وأخيراً (٥ يونيه سنة ١٨٠٧) اشتبك الفريقان ودارت بينهما عدة معارك صغيرة كان النصر فيهـا سجالا بينهما . وفى العاشر من ذلك الشهر دارت معركة دموية بلغت خسائرها نحو ١٨,٠٠٠ جندى فما كان أعجب إلقاء الفريقين لسلاحهما عند الصباح وقيامهما معاً . ومن غير اتفاق سابق باسعاف جرحاهم ودفن موتاهم وقد اختلط بعضهم ببعض فى نفس الميدان الذى هلك فيه بالأمس إخوانهم وزملائهم ! .

واستؤنف القتــال وارتد الروسيون شمالا نحو قرية فريدلند «Friedland» الواقعة على نهر الآل يلتمسون لنفسهم جنة يتقون بها هجمات نابليون ولـكنهم ظلوا يتقهقرون حتى بلغوا تلك القرية فى الرابع عشر من شهر يونيه وأشرف نابليون من فوق ربوة عالية يتبين مواقع أعدائه فما كاد يرى « Bennigsen » بجيشه وقد وقفوا عند تلك القرية والنهر

وراءهم حتى أمسك بذراع المارشال ناى « أشجع الشجعان » كما كان يسميه — مشيراً بأصبعه إلى القرية وإلى الجنود الروسيين الذين تموج بهم سهولها قائلا :

« ذلك هو الهدف . فاحمل عليه ولا تنظر إلى ما حولك وألق بجيشك على أكداس هذه الجنود مهما كلفك الهجوم ثم ادخل القرية واستول على جسورها ولا تهتم بما يجرى عن يمينك أو عن شمالك أو من خلفك فسأكون أنا وبقية الجيش فى أثرك ! » .

فانقض ناى كالقضاء المبرم ومعه أربعة عشر الف من رجاله على جيش « بنجسن » فما كاد يدخل القرية حتى أشعل النار فى مساكنها . ثم بادر إلى جسورها فحطمها ثم أعمل السلاح فى كتائب الروس فارتدت أمامه . ولم ير الفارون منها بدا من الالقاء بأنفسهم فى مياه النهر . فابتلع الماء أكثر مما أتلفت النار . وفنيت قوة الروس فى ذلك اليوم العصيب وتحطم آخر أمل لهم فى قتال نابليون .

وقد بلغت خسائر الروس بين الخامس والخامس عشر من شهر يونيه سنة ١٨٠٧ نحو ستين الف جندى ما بين قتيل وجريح وأسير غير ١٢٠ مدفع استولى عليها الفرنسيون و ٣٠٠



استنشاق السّعوط

كان نابليون يستنشق سعوطا من التبغ

ويكثر منه في ميدان القتال

مركب كانت راسية فى ميناء كونجزبرج وهى مثقلة بأنواع الذخيرة وأصناف السلاح .

ونشر نابليون على جنوده بعد تلك المعركة الحاسمة نشرة من نشراته التاريخية الخالدة مجد فيها أعمالهم وذكرهم بأنهم فى أوسترلتز أحيوا ذكر ارتقائه على عرش الامبراطورية وانهم فى فريدلند احيوا ذكرى معركة مارنجو التى حطموا بها التحالف الدولى الثانى . ثم قال لهم :

أيها الفرنسيون ! إنكم تعودون اليوم إلى فرنسا وعلى جبينكم اكليل من الغار لأنكم هيأتم الطريق لصلح شريف يحمل فى ثناياه كل ما يكفل بقاءه وقد آن الأوان لوطننا العزيز ان يعيش فى هدوء بعد ان وقيناه شر احقاد الانجليز . وستكون اعطيتى لكم عنواناً حياً لاعترافى بفضلكم . ورمزاً ناطقاً للمحبة التى احسها نحوكم ! » .

* *

أما القيصر الشاب فقد أخذته نوبة اعجاب بنابليون جعلته يطلب لقاءه عن شوق ليفضى إليه بتقديره لنبوغه وليتفق معه على أساس صالح يقيم فوقه بنيان عهد جديد يتفق مع حسن ميوله نحو الفرنسيين وزعيمهم العظيم . وتلقى نابليون هذه الدعوة

بالسرور والارتياح وحدد اليوم الخامس والعشرين من شهر يونية للقاء غريمه

ووقف على شاطئ نهر نيمن « Niemen » فى ذلك اليوم صفان طويلان من الجنود فى أحسن لباس وأفخر زينة ـ هذا حرس القيصر وهذا حرس نابليون . وفى تمام الساعة الواحدة أطلقت المدافع وأبحر زورقان واحد من كل جانب من جانبى النهر . والتقى العاهلان فى وسط النهر فوق رمث أعد لهذا اللقاء وأسرع نابليون فى النزول إلى هذا الرمث ثم استقبل القيصر عند ما وصل .... بالعناق !

وكان أول ما قاله القيصر لنابليون :

ـــ انى اكره الانجليز بمقدار كراهتك لهم وأنى على استعداد لتأييد رأيك فى كل ما تقترح بشأنهم ! .

فأجابه نابليون :

ـــ « لقد أصبح من السهل إذن يا صاحب الجلالة أن تسوى علاقاتنا وأن يتم اتفاقنا على الصلح »

ودام اللقاء ساعتين خرج القيصر بعدهما مأخوذا بما رآه من عظمة نابليون وتفرده فى السيطرة على النفوس والعقول .

الفصل السابع

معاهدة تلست [٧ يوليو سنة ١٨٠٧]

فى اليوم التالى ذهب القيصر للقاء نابليون مرة اخرى وفى صحبته ملك بروسيا التعس لعل حضوره يكون سببا فى عطف نابليون على بلاده . وحاول الرجل أن يعتذر بين يدى نابليون عن رفعه السلاح فى وجه فرنسا ولكن نابليون لم يشأ أن يؤذى إحساسه بالشماتة فيه بعد أن رفض نصحه وأصر على قتاله واكتفى فى الرد عليه بأن يندب سوء الحظ الذى قضى على بلاط برلين أن يستسلم لمكائد الانجليز ودسهم ويتسبب بذلك فى إشعال حرب جيهدة فى أوربا .

وقرر القيصر أن يجعل إقامته بعد ذلك اليوم فى مدينة تلست Tilsit التى يقيم فيها نابليون فكان العاهلان يخرجان كل يوم على جواديهما يتبعهما ملك بروسيا. فيقضيان الساعات الطويلة وهما يتحدثان فى شئون أوربا وفى السياسة التى ينويان السير عليها بعد ان استحكمت بينهما عرى هذه الصداقة .فكان لاهم للقيصر فى كل حديثه الا مصير الامبراطورية العثمانية . ونصيبه فى أسلابها

وكان نابليون هو الذى تسبب أخيراً فى أن تعلن تركيا الحرب على الروسيا فتعهد بالوساطة عند السلطان لصالح القيصر وتحقيق اطماعه فى الشرق ولكنه كان حريصا على ان يتقاضى ثمن هذه الوساطة من القيصر بطلب تدخله هو بين فرنسا وانجلترا وحسم النزاع القائم بينهما حتى اذا لم يفلح فى حمل انجلترا على الاتفاق مع نابليون انسلخ عنها وانضم الى نابليون عليها . وكان مما قاله نابليون لصاحبه يوما فى هذا الصدد :

« — ما هى الغايات التى ترمى اليها انجلترا ؟ إنها تريد أن تحكم البحار مع انها ملك شائع لجميع الأمم . وتريد ان تستبد بالمراكب المحايدة . وتحتكر التجارة لنفسها . وتثبت أقدامها فى كل مكان تصل اليه اقدامها من ارض القارة : فى البرتغال : فى الدنمرك . وفى السويد — وتريد ان تستولى على أهم محطات العالم البحرية : على رأس الرجاء الصالح . وعلى جبل طارق . وعلى مالطا . وهى الآن تستعد للاستيلاء على مصر وكانت حكومتها تريد ارسال بعثة الى الدردنيل والله وحده يعلم ماذا كان يؤول اليه مصير الشرق إذا هى استولت على هذا المضيق .

إنهم يتهموننى باننى اسعى الى الحرب وانى مغرم بها . وليس ابعد عن الحقيقة من هذا الاتهام وها انا على اتم اهبة لاثبات قولى فلتكن انت وسيطا بينى وبين وزارة لندن وان لك من الصلة

بانجلترا بحكم كونك حليفها مايؤهلك للوقوف هذا الموقف بينى وبين الانجليز وانى مستعد للتخلى لهم عن مالطا فى نظير اعترافهم بفتوحى بعد صلح اميان . ولكن لا بد لهم من التخلى بدورهم عن مستعمرات حلفائى (اسبانيا وهولندا)التى استولوا عليها وراء البحار . وعندذلك انزل لهم عن هانوفر . فما رأيك فى هذه الشروط ؟ الست تراها عادلة منصفة ؟وهل فى استطاعتى ان اقبل غيرها؟ وهل يحق لى ان اتخلى عن حلفائى ؟ واذا كنت انا اريد التخلى عن فتوحى فى قارة اوربا لأكفل لحلفائى عودة املاكهم اليهم ايكون هناك ادنى مجال للشك فى اعتدالى واستقامة نواياى ؟ !

فاذا رفضت انجلترا هذه الشروط فلا بد من حملها على قبولها إذ ليس من الصواب أن تظل ترمى على رأس العالم شواظ هذه الحروب . وان لدينا من الوسائل مايمكننا من إرغامها على قبول الصلح . فاذا أبت الا رفض هذه الشروط فأعلن للعالم انضمامك إلى فرنسا . وصرح بأنك ستضم قواك إلى قواها حتى يتحقق السلام فى اوربا . ولتعلم انجلترا بذلك أنها فوق حربها مع فرنسا ستكون فى حرب مع قارة اوربا بأسرها : مع الروسيا وبروسيا والدنمرك والسويد والبرتغال وهى الدول التى تتحتم عليها الطاعة

إذا نحن أفضينا بأرادتنا اليها . ولن يكون أمام النمسا غير هذه السبيل اذا هي رأت أنها لابد لها من الانضمام إما الى انجلترا وإما إلى صفوفنا وعند ذلك لاترى انجلترا مفرا من إلقاء السلاح .

وسأكون أنا بدوري وسيطا بينك وبين السلطان . فاذا رفض قبول الشروط المعقولة التي أعرضها عليه فأني أنضم معك على الأتراك وعند ذلك نقوم بتقسيم الأمبراطورية العثمانية التقسيم اللائق . »

وهكذا تم الاتفاق بين العاهلين على أن يكون أحدهما صاحب الكلمة في الغرب ويكون الآخر صاحب الكلمة في الشرق !

أما روسيا فلم يبق لها بعد عملية التشذيب التي أجراها لها نابليون الا نصف أرضها فقد اقتطعت منها في الغرب مملكة وستفاليا وفي الشرق غراندوقية وارسو التي اعطيت لملك سا كسونى .

وذلك بخلاف ما فرض عليها من الغرامات الفادحة التي ارهقت خزانتها وبخلاف تحديد عدد جيشها بأربعين الفا لاتجوز الزيادة عليها بحال من الأحوال .

وأحست الملكة لويزا ان وجود زوجها إلى جانب القيصر ونابليون لم يحول هذا الجبار عن عزمه بالنسبة لوطنها وكانت لها ثقة غير محدودة في فتنة جمالها وسحر كلامها . فذهبت تجرب حظها



نابليون مع ملكة بروسيا فى تلست

هي الأخرى لعل مواهبها الخلابة تعوض على بلادها تلك النكبات التي أوشكت أن تتردى فيها بسببها . فقصدت إلى تلست ....

ولكن يظهر ان قدومها جاء متأخرا نوعا فان اساس الاتفاق كان قد ابرم بين القيصر ونابليون ورسمت خطته النهائية . ولم تعد الوساطة مجدية على احد نفعا على الرغم من تفنن الملكة في التأثير على نابليون وفي كسب رضاه

ولقد كتب نابليون في تلك الفترة إلى جوزفين يقول لها

« إن ملكة بروسيا لامراة فتانة حقا وهي ذات ولع بملاطفتي والتودد إلى ولكن إياك ان تغاري منها . فأنت تعرفيني كالقماش « المشمع » الذي تتزلق عليه امثال هذه الأشياء دون ان تبلله او تخترق نسيجه على انى اعرف ما اتكبده من الخسائر الفادحة لو انى رضيت ان ابادلها شيئا من مجونها ! »

وهكذا اخفقت « الأمازونة » حتى في ميدان العواطف : وكانت الصدمة قاسية على اعصابها حتى انها لم تنج من تأثيرها . وماتت في ميعة صباها دون ان تبلغ الخامسة والثلاثين .

الباب الثالث : النظم القارى وآثاره

الفصل الأول ـــ اثر النظام فى سياسة نابليون

الفصل الثانى ـــ اثره فى ولايات البابا

الفصل الثالث ـــ اثره فى البرتقال

الفصل الرابع ـــ حكومة اسبانيا

الفصل الخامس ـــ رواية تاريخية

الفصل السادس ـــ الحملة الاسبانية

الباب الثالث

النظام القارى وآثاره

الفصل الأول

أثر النظام فى سياسة نابليون

يعتبر المؤرخون صلح تلست نقطة انقلاب فى تاريخ نابليون لأنه ظل منذ نشأته مضطرد الصعود والتقدم إلى أن بلغ تلك المنزلة التى بلغها حوالى سنة ١٨٠٧ وهو يوزع التيجان على أهله وأنصاره ويتحكم فى عروش أوربا وملوكها ولكنه ما لبث أن تلقى الصدمة الأولى عقب هذا الصلح. وكان ذلك بسبب تلك السياسة الجبارة التى أراد اتباعها لاذلال انجلترا والقضاء على سطوتها بحصر موانيها واغلاق الموانى الأوربية فى وجهها.

ولقد كانت انجلترا فى الواقع خطراً حقيقياً على نابليون

فانها لم تذقه طعم الراحة منذ انبرت لصراعه وهدمه ومن الممكن الرجوع فى توقيت هذا الصراع إلى حصار مدينة تولون التى تعارف الغريمان حول أسوارها — ولقد حاول نابليون استرضاءها والعمل على التصافى معها عدة مرات فى كل مناسبة من المناسبات اللائقة ولكن ذهبت جهوده فى ذلك إدراج الرياح . ولم يكن يلقى منها إلا الاستهزاء به والسخرية من نواياه والاصرار على مناوأته وزعزعة بنيانه . فلم يعد أمامه إلا أن يساجلها هذا الكفاح وحاول أن يجمع لها كل ما يستطيع جمعه من القوى البحرية ولكن موقعة « الطرف الأغر » حطمت سفنه وآماله . فلم يبق له وقد وقف وقفة الدفاع الشرعى عن نفسه أمام عناد انجلترا وإصرارها على القضاء عليه إلا أن يتناول هذا السلاح المسموم ليضرب به ضربته الأخيرة .

ولكنه وهو يحاول ذلك اصطدم بأكبر قوتين فى المدنية الأوربيه وهما — الكنيسة الكاثوليكية — والروح القومى — وكان هذا الاصطدام فاتحة سقوطه وانهيار امبراطوريته .

الفصل الثاني

أثره في ولايات البابا

كان تنفيذ النظام القـارى يستتبع حتما نشر سلطان نابليون على شواطئ القارة الأوربية بأكملها لأن بقاء دولة واحدة على ولائها للانجليز يكفى لتسرب المتاجر الانجليزية عن طريق شواطئها إلى قلب القـارة ويفسد تدبير نابليون . فحرص نابليون على أن لا يترك منفذاً واحداً فى كل أوربا أمام السفن البريطانية تستطيع الوصول منه إلىداخلية البلاد الأخرى ومن هنا يتبين لك اتساع نطاق هذا العمل والجهود الجبارة التى يستدعيها إحكام تنفيذه .

وقد تمكن نابليون فى بادئ الأمر من الاتفاق مع الروسيا والنمسا وبروسيا والدنمرك وإيطاليا وإسبانيا على اتباع نظامه واستبشر هو بهذه البـداية . ولم يخرج على هذا الاجماع فى كل أوربا إلا السويد فى الشمال وولايات البـابا ومملكة البرتقال فى الجنوب .

فأما السويد فانه جازاها على هذا العصيان باطلاق يد القيصر فيها ليفعل بها ما يشاء فلم يتردد القيصر فى انتهاز هذه الفرصة السعيدة وبادر باحتلال فنلندا التى كان يطمح إلى احتلالها منذ زمان لبسط نفوذه على بحر البلطيق .

وأما البابا فانه لم يشأ أن يشترك فى ذلك النزاع العنيف القائم بين انجلترا ونابليون ورفض أن يعرض مصالح شعبه ورفاهيته لتلك الأزمات القاسية التى تنجم حتما عن اتباع هذا النظام الذى أراد أن يفرضه عليه نابليون . ولم تكن للبابا فى نظر نابليون تلك القداسة التى يكنها لمقامه الدينى العالى سائر الناس لأنه لم يكن يعتبره إلا ككبير أساقفة روما ولم يكن يسيغ احتكار قسس إيطاليا لعضوية جمعية الكرادلة . وكان ينوى أن يجعل لكل دولة كاثوليكية كرادلة من بين أبنائها بنسبة عدد سكانها . ولكنه رأى أن يبدأ بمهاجمة الحبر الأعظم باحتلال ولاياته فدخلتها الجيوش الفرنسية فى أوائل سنة ١٨٠٨ . ولما وقعت الحرب فى العام التالى (سنة ١٨٠٩) بين النمسا ونابليون ودخل نابليون فينا للمرة الثانية أصدر قراراً منها بالغاء سلطة البابا الزمنية وضم ولاياته إلى فرنسا نهائياً . ثم أوحى إلى عماله بالقاء القبض على البابا نفسه فاعتقلوه وحملوه

إلى سجن فى بلدة سافونا بقرب جنوا . وعند ذلك أعلن نابليون أن من اختصاصه دعوة المجالس الدينية ودفع مرتب البابا وتأييد الأعمال الدينية فى الكنيسة الكاثوليكية بنفوذه السياسى . وعلى ذلك نقلت سجلات البلاط البابوى الى باريس.

ولم ير البابا من سلاح يجيب به على اعتداء نابلون عليه إلا أن يصدر مرسوماً بحرمانه من الرحمة . فأصبح القسس فى كل البلاد الأوربية يخصصون بعض أوقات تسبيحهم واستغفارهم لاستمطار اللعنات على رأس نابليون الأول « عدو الكنيسة » « وعدو الله ».

الفصل الثالث

أثره فى البرتقال

أما البرتقال فهى تلك السهول الزراعية الواقعة على مصبات أنهار أسبانيا وكان ينتشر فوق حقولها الخضراء ثلاثة ملايين فلاح فى الدرك الأسفل من المدنية والفهم لا يكادون يعرفون من أمر دنياهم أكثر مما يجب عليهم دفعه لحكومتهم الغاشمة من الضرائب . وكانت حكومتهم فى يد أسرة براجانزا القديمة صاحبة الأملاك الواسعة فى البرازيل (أمريكا الجنوبية) . وكانت السيطرة فى أسواق البرتقال للتجار الأنجليز بقدر ما كانت السيطرة فى حكومتها للنفوذ الانجليزى[1]

فأرسل نابليون إلى هذه الحكومة مذكرة يطلب اليها فيها أن تغلق موانيها فى وجه السفن الانجليزية وأن تصادر فى الحال كافة المتاجر البريطانية التى فى أسواقها . فلم يكن من

---

(١) وكان على حكومة البرتقال فى ذلك الوقت ملكة مختلة القوى العقلية اسمها ماريا وكان القائم بالامر عنها ابنها يوحنا .

البرتقال إلا أن حولت هذه المذكرة إلى وزارة انجلترا لتتولى الرد عليها بما تشاء .

وعاد الرد من لندن بأن البرتقال توافق على إعلان الحرب على انجلترا كما توافق على إقفال الموانى البرتقالية فى وجه المتاجر الانجليزية ولكنها ترفض مصادرة البضائع الانجليزية . وكان معنى ذلك فتح الباب لمفاوضات جديدة تستغرق وقتاً آخر تستفيد منه الوزارة الانجليزية فى تصريف شئونها حسب ما يستجد من الظروف .

وكأنما أدرك نابليون ما يدور بخلد الانجليز . فعول على غزو البرتقال من فوره وبغير انتظار ولكنه رأى أن لا سبيل له إلى ذلك دون اشتراك اسبانيا معه لأن جيوشه لا بد لها من اختراق الأراضى الاسبانية للوصول إلى غايتها ولأن اسبانيا لا ترضى بتقديم هذه المعونة لنابليون من غير أجر تتقاضاه .

وكانت اسبانيا قد أغضبت نابليون عليها لأن وزيرها الأول جودوا Godoy رأى أن ينتهز فرصة اشتباك نابليون بدول التحالف الدولى الرابع ليعمل على التخلص من نفوذه الذى كلف بلاده خسارة أموالها وأبنائها وأسطولها فاجتمع

فى مؤتمر سرى بسفير القيصر فى مدريد ومندوب مملكة البرتقال وقرروا فيما بينهم أن يقوم جودوا بتعبئة الجيش الأسبانى ثم يتربص لنابليون حتى إذا ما تلقى أول هزيمة على يد التحالف انطلق هو وجيوشه — تساعده جيوش انجلترا البرية ـ نحو حدود فرنسا الجنوبية لغزوها من هناك .

وقد أصدر جودوا تعليماته الخاصة بهذه التعبئة فعلا . ولكنه فوجىء بأخبار موقعة يينا وانتصار نابليون فيها ذلك النصر الخالد المبين . فبادر إلى الغاء أوامره وسرح الجيش وأخذ يستعد لاستقبال نابليون الاستقبال اللائق به عند عودته .

ولكن أخبار المؤتمر السرى كانت قد وصلت عنها تقارير مفصلة إلى نابليون وهو ما يزال فى بروسيا فعول على الاحتياط للمستقبل باتخاذ إجراءات حاسمة مع بلاط اسبانيا وذلك متى قدر له الفراغ من دول التحالف وكتبت له العودة ظافرا إلى باريس .

فلما عول فى تلك الظروف التى بسطناها على أن يقوم بغزو البرتقال كان فى الوقت نفسه يفكر فى الانتقام من حكومة اسبانيا الغادرة التى قامت تحاول أن تطعنه فى ظهره أثناء انشغاله عنها بدول التحالف الرابع .

وكانت خطته التى أراد اتباعها أن يغرى إســـبانيا على الاشتراك معه فى غزو البرتقال واقتسامها وذلك ليكفل لنفسه أولا — إدخال جيوشه فى الأراضى الاسبانية وثانياً — ليمهد بهذه الشركة سبيل النزاع مع اسبانيا — وقديماً قيل : « الاشتراك أصل العراك » !

وفى معاهدة فونتنبلو السرية (٢٧ اكتوبر سنة ١٨٠٧) قبل جودوا مع السرور والغبطة أن يشترك مع فاتح أوربا العظيم فى تلك الحملة البرتقالية وقد ذهب نابليون فى التلاعب بعقل هذا الرجل الى أقصى حد من السخرية حين تعهد بأعطائه ولاية كبيرة من ولايات البرتقال الجنوبية لتكون ملكا خاصا لشخصه فى نظير قبوله الاشتراك فى تلك الحملة

وتقدم الجنرال جونو Junot الفرنسى فعبر جبال البرانس بخمسة وعشرين ألف جندى ولكنه جد فى الطريق حتى أنهك قوة رجاله ولما بلغوا حدود البرتقال لم يكن يقوى واحد منهم على رفع ذراعه . ولكن لحسن حظهم لم يعترض طريقهم من يدعوهم الى القتال . فأن يوحنا ـ قائم مقام الملكة ـ ما كاد يعلم بقدوم هذا الجيش حتى عقد مجلس الدولة وقرر مغادرة البلاد هو وأمه المجنونة وبقية أهله اكتفاءً

بأملاك الأسرة الواسعة فى البرازيل . ووقف لهم اسطول بريطانى عظيم ريثما جمعوا أموالهم وأهليهم فركبوا متن سفنه فى يوم عاصف ثم نشر الأسطول بهم قلوعه للرياح .

ودخل جونو عاصمة البلاد كأنه ضيف كريم دون أن يخسر طلقة واحدة من ذخيرته ولا يكاد يروى التاريخ مثلا آخر لهذا التطور العجيب الذى انتقلت فيه أمة بأكملها من يد الى يد وتعاقبت فيها سلطة بعد سـلطة بمثل تلك النعومة التى تتعاقب بها أشباح الأحلام !

الفصل الرابع

حكومة اسبانيا

خليق بنا قبل أن نمضى فى الحديث عن اسبانيا وما فعله بها نابليون أن نبين كيف آلت السلطة فيها إلى يد وزيرها الأول « Godoy » فأصبح يدبر شئونها باسمه ويقيدها بمعاهدات يمهرها بتوقيعه الخاص مع وجود ملك لها . وملكة . وولى عهد .

وتفصيل ذلك أن الملك شارل الرابع كان رجلا خليعاً فاجراً فى صباه فأصبح معتوها مخبولا فى شيخوخته . ولم يكن له عمل يقتل وقته به إلا الصيد . فكان يخرج له كل يوم فى الصباح شتاء وصيفا . ولا يعود قبل الظهر فأذا عاد تناول طعام الغداء ثم خرج للصيد من جديد وبقى فى طراده الى وقت الغروب . وعند ذلك يتقدم اليه جودوا بخلاصة ماتم فى سحابة النهار من شئون الدولة . ثم يأتى وقت الراحة فيذهب الملك لينام على أن يعود فى الغد الى ما كان فيه بالأمس وهكذا دواليك .

أما الملكة لويزا ماريا فكانت أميرة نابوليتانية يقول عنها بعض المؤرخين أنها لم تكن تمتاز فى شىء عن سكان

منازل الدعارة فى أى بلد من بلاد اسبانيا . وكان جودوا فى أول عهده جندياً من جنود الحرس الملكى ولكنه كان على جانب كبير من جمال الجسم والخلقة . وكان رجلا ذا نزعة شعرية خيالية يستهويه ضوء القمر . وسكون الليل . فكان يقضى وقته متنقلا تحت ظلال ابراج قصر (الاسكوريال) الملكى وهو يتغنى بصوته الجميل ويوقع على قيثارته أعذب الألحان. فتنبهت اليه الملكة واستدعته إلى حضرتها.فأعجبها. فاستبقته لنفسها . واتخذته أنيساً فى غيبة الملك المتواصلة يسليها بحديثه وغنائه ثم ما لبثت أن تطورت الصلة بينهما فوضعت الملكة بين يديه زوجها . وحكومتها . وشخصها . وبلغ من خيبة أمل الملك أنه فرح باكتشاف زوجته — « الملكة »— لهذا البطل الذى سيقوم عنه بحمل اعباء الملك ووضع بدوره هو الآخر كل ثقته فيه حتى أنه أطلق عليه اسم « أمير السلم» عند ما وقع معاهدة « بال » مع فرنسا . ونجح بذلك فى عقد صلح خرجت به اسبانيا من تلك الحرب التى كانت قد تورطت فيها مع رجال الثورة الفرنسية .

وكان لشارل من زوجته ثلاثة أولاد أكبرهم اسمه فردناند وقد جمعت الطبيعة فيه عته أبيه العجوز وتهتك أمه

الفاجرة. ولكنه كان على الرغم من ذلك طموحا يلتمس عرش اسبانيا لنفسه مادام لا بد لأبيه أن ينصرف عن شئون الملك وبذلك نشأت منافسة حادة بينه وبين جودوا ربما كان لعلاقة أمه بوزيرها دخل فيها. أما الشعب الأسبانى الذى لم يكن يرى فى الملك والملكة ووزيرهما الا عصابة من الفجار المبتذلين فقد عمى عن مساوىء الولد وولاه زعامة المعارضة التى أعلنها على حكومته. وبذلك انقسمت البلاد على نفسها فكانت الملكة تريد أن تفرض على الشعب واجب الطاعة لها ولوزيرها بينما كان الشعب يريد أن تنتقل الادارة الى يد فردناند وهو على ثقة من أن أى تغيير يطرا على الموقف لا بد أن يكون تغييرا الى ما هو أحسن.

ولم يشأ جودوا أن يستسلم لما تجرى به المقادير. وأراد أن يسبق الحوادث حتى لا يمكن خصومه من نفسه فتقدم يوماً الى الملكة يتهم فردناند علنا بأنه يحاول دس السم لها وله. ولأبيه الشيخ. ليتخلص بذلك من الحكومة القائمة وليمهد الطريق بين نفسه وبين العرش، وأحدثت التهمة أثرها المطلوب فأصدر الملك والملكة أمرهما بألقاء القبض على فردناند فاعتقل وأودع فى بعض السجون.

وكان فردناند قد نجح قبل ذلك فى الاتصال سرا بنابليون مستغيثاً به من عبث أبويه ووزيرهما بمصالح الأمة الاسبانية والتمس منه فى الوقت نفسه أن يشرفه بتزويجه باحدى أميرات أسرته لترتبط اسبانيا وفرنسا برابطة النسب فوق ما بينهما من روابط الصداقة .

واهتم نابليون بهذه الدعوة حتى أنه سعى فعلا فى البحث عن عروس يحكم بها اسبانيا عن طريق زوجها فردناند . وعلى قدر سخط الشعب الاسبانى على حكومته كان حبه الآن لأميره الشاب ولنصيره العظيم . فما كادت تصل الى علمه أنباء اعتقال فردناند حتى أعلن أنها مكيدة دنيئة أراد بها جودوا إيصال الأذى الى غريمه وقام أهل مدريد بثورة حامية هاجموا فيها قصر الوزير وحطموا كل ما وصلت اليه أيديهم من أثاثه وألقوا به من الأبواب والنوافذ ولم ينج جودوا نفسه من أيديهم فى أول الأمر إلا باعجوبة اذ فر الى غرفة حقيرة على السطح ولف نفسه فى حصير قديم كان فيها . وبذلك تفادى غضب الثوار عليه . ولقـــد بقى فى هذا الحصير ليلة كاملة ومرت به ساعات اليوم التـــالى الطويلة وهو يكاد يسقط من الجوع والعطش والاعياء . ولـكنه فضل كل هذه المحن

على أن يترك حصنه ويعرض نفسه للهلاك . غير أنه فى صباح اليوم التالى كان قد برح به العطش الى حد جازف معه بحياته وتسلل من تحت الحصير يلتمس جرعة من الماء .

وأبى القدر الا أن تذهب سدى كل هذه الجهود المضنية التى بذلها فى سبيل التستر . فأنه ما كاد يطل برأسه حتى تنبه اليه أحد الحاضرين فنم عليه . ووقعت الواقعة . وانهال عليه الناس سبا ولعنا وضربا وركلا حتى وصـــل إلى الطريق يدور على جنبيه ولا يسير على قدميه . وقد تمزقت ثيابه وانكشفت من تحتها جراحه الدامية . ولولا أن أدركته ثلة من الجند فاختفطته من أيدى جلاديه لـكان ذلك اليوم آخر أيامه .

أما الملك والملـكة فانهما ما أحسا بجنود نابليون تنسل الى بلادهم وبروح التمرد تسرى فى شعبهم حتى ذكرا خاتمة قريبهما لويس السادس عشر الذى مات على حد المقصلة وتناديا بوجوب الفرار فلم يقفا للتفكير فيما يأخذان وما يتركان وطفقا ينهبان الأرض نحو الشاطىء ليركبا أية سفينة تحملهما الى أمريكا . ولـكن أمرهما لم يلبث أن انـكشف كما انـكشف من قبلهما أمر لويس ومارى انتوانت وأعيدا الى مدريد .

الفصل الخامس

رواية تاريخية

دخل (مورا) بجيشه الى اسبانيا تلبية لنداء فردناند . ولذلك رحب به الشعب ولم يعترض طريقه حتى وصل الى قلب مدريد .

وكان أول ما عمله الملك بعد ضبطه واعادته أن أصدر قرارا بعزل جودوا من الوزارة واعتزاله هو من الملك نزولا على ارادة الشعب الذى يريد أن يرفع فردناند الى العرش .

وكان مورا صهرا لنابليون كما أشرنا الى ذلك من قبل . وقد حسب أن نابليون انما اختاره للقيام بهذه الحملة توطئة لتسليمه تاج اسبانيا اسوة ببقية الاصهار والانصار . فلما نزل شارل عن الملك لابنه بلغ من احتياط مورا لأمره أنه لم يعترف بهذا النزول ولذلك بقى فردناند دون أن يحصل على تأييد حلفائه وبادر الملك فرجع فى اعتزاله مدعيا أنه انما أقدم على ذلك بعامل الرغبة فى ارضاء نابليون وتحت

تأثير الأكراه الواقع عليه من حزب المعارضة الذى يقوده ولده .

وهنا بدأت تلك الرواية التى كانت مبعث الحيرة والاندهاش فى كل أوربا والتى ستظل مبعث الحيرة والاندهاش لكل من يقرأ التاريخ .

وذلك أن نابليون قد رسم خطته على أن يحصل هو على عرش اسبانيا لأحد اخوته ولكنه كان يخفى نواياه حتى لا يعلم بها أحد وحتى يستعين بكتمانها على قضائها وتنفيذها . فلما سمع بتنازل الملك شارل الرابع عن عرشه لابنه أسرع إلى Bayonne — بايون — فى جنوب فرنسا وأوحى الى فردناند بأنه لا سبيل له إلى تثبيت أقدامه على عرشه إلا أن يقصد اليه ويقدم له بشخصه ولاءه وطاعته وأوعز فى الوقت نفسه الى الملك والملكة وجودوا بأنهم إن كانوا يريدون أن لا ينتصر عليهم غريمهم فردناند الطائش المغرور فليذهبوا للقائه فى بايون ليتم الاتفاق بينهم وبينه على ما يكون .

وسار الفريقان كل من طريق . وليس يعلم أحدهم من أمر الآخر شيئا — وفى الخامس من شهر مايو سنة ١٨٠٨ التقى نابليون بأفراد العصبة الثانية وعرض عليهم الأقامة

عنده فى فرنسا فى قصور فخمة يهيؤها لهم ويزودها بكافة وسائل الترف والنعيم وتعهد لهم بأن يقطعهم أرضا واسعة للصيد فيها كما تعهد بدفع مرتبات طائلة تكفل لهم القيام بكل طلباتهم — وذلك فى نظير أن ينزل الملك عن عرشه من جديد ولكن لا لفردناند بل لنابليون فلم يكد واحد من الثلاثة يصدق أذنيه لما انطوى عليه هذا العرض من الكرم والتسامح . والحقيقة أن واحدا منهم لم يكن يهمه من شئون الملك الا أمثـــال هذه المزايا التى تطوع بتوفيرها لهم نابليون فقبلوا كلامه جذلين . وكتب الملك صك التنازل الجديد .

وعندذلك أدخل فردناند . فطلب اليه أبوه أن يتخلى عن كل حق له فى عرش اسبانيا مبينا له أن نزوله عن العرش له وقع باطلا لأنه صدر تحت تأثير الأكراه الذى تنتفى معه الأرادة وتبطل العقود . فسخر منه فردناند وهو يحسب أن نابليون سوف يشترك معه فى الاستهزاء بهراء هذا الشيخ ولكنه لم يلبث أن تبين انضمام نابليون الى صف أبيـــه . فقرر على الرغم من ذلك . الاستمساك بحقه الى النهاية مدعيا بأنه هو وارث عرش اسبانيا وأن الشعب قد اعترف به ملكا

عليها وأن ليس فى مقدور أحد أن يجعله يتحول عن حقه أو يتهاون فيه . وهنا خشى الفريق الأول أن يكون عناد الولد سبباً فى ضياع تلك الأمانى الذهبية التى أحدثها فى نفوسهم عرض نابليون . فهجم الملك على ابنه بعصا كانت فى يده بينما انفجرت فيه الملكة بأقبح السباب . وفوجىء نابليون بهذه العاصفة المنزلية التى لم يكن يتوقع هبوبها بين يديه . ووقف هنيهة لا يدرى ماذا يصنع بأفراد هذه الأسرة العجيبة ثم ما لبث أن اقترب من فردناند منبها اياه الى أنه قد جاءته أنباء ثورة تهدد جنوده فى مدريد وأنه لا يمكن أن يكون لهذه الثورة من سبب غير جهود حزب المعارضة التى يتولى فردناند رياسته . ورأى فردناند أن ليس لهذا الكلام الا معنى واحد: وهو اتهامه بمثل ما اتهم به دوق دنجين من قبل . ففترت حدته .وخارت قواه . وفضل أن ينجو برأسه على أن يعترض طريق نابليون فتنازل عن حقه فى الملك لابنه وبذلك خلا الجو من الوالد وولده وخلص العرش لنابليون وفى هذا الصدد تقول دائرة المعارف البريطانيه :

ان استيلاء ابن أحد أعيان كورسيكا على عرش اسبانيا وتخلصه من ملوكها البربون بهذه الطريقة السهلة الزرية

لاحدى عجائب التاريخ الرائعة . »

وقد عرض نابليون عرش اسبانيا بعد ذلك على أخيه « لويس » ملك هولندا ولكن لويس كان أبعد نظراً من أن يستبدل بعرشه الهولندى الثابت ذلك العرش القلق المزعزع فاعتذر عن قبوله . وعند ذلك عرضه نابليون على « يوسف » ملك نابولى وهو عظيم الثقة فى أن طيبة يوسف ودماثة أخلاقه سوف تكفل له عيشا رغدا بين الاسبانيين . ولما قبل يوسف أن يتخلى عن عرش « نابولى » جاء دور مورا فى الملك فوهبه له نابليون .

الفصل السادس

الحملة الاسبانية

أوضحنا فى بعض الفصول السابقة كيف أن نابليون فى سبيل تنفيذ نظامه القارى ارتطم بالكنيسة الكاثوليكية وخسر بذلك عطف العالم المسيحى عليه . وسنحاول فى هذا الفصل أن نوضح كيف أنه وهو يحاول الاستيلاء على اسبانيا قد ارتطم بالروح القومية وخسر بذلك كما سبقت لنا الاشارة نفوذه . وامبراطوريته . وشخصه .

وذلك أن الاسبانيين ما كادوا يفتحون أعينهم على عرش اسبانيا ويجدون فيه يوسف بونابرت حتى ثارت ثائرتهم عليه وعلى أخيه . وأحسوا بأن نابليون قد خدعهم وسخر منهم وامتهن كرامتهم — وانتشر القسس فى أنحاء البلاد يهيجون ساكنها ويثيرون خاملها حتى أصبحت اسبانيا كلها أتونا مستعرا لا يمكن أن يعيش فيه يوسف ولا تستطيع أن تبقى فيه جنوده .

ولم تكن الحركة التى قامت بها اسبانيا فى هذه الثورة حركة

منظمة لها زعماؤها وقوادها وأتباعها وأجنادها ولكنها كانت حركة قومية لها فى كل قرية مركز . وفى كل جماعة زعيم . وما دامت النهاية واحدة وهى مطاردة الفرنسيين حتى يجلوا عن البلاد فقد عرف كل فرد واجبه . ولا حاجة بعد ذلك لرسم الخطط أو تنظيم الصفوف .

وربما عيب لأول وهلة على هذه الحركة أنها كانت خلوا من النظام وأنها سارت فى حرب الفرنسيين على طريقة الكر والفر . ولكن الواقع أن هذا كان سر نجاحها . فلو أن جيوشا اجتمعت فى نظام حربى مألوف وحاولت بذلك طرد الفرنسيين لسهل على نابليون تشتيتهم والاحداق بهم . ولكنهم وهم مبثوثون فى كل مكان كانوا فوق متناول جيوشه وفى الوقت نفسه كانت جيوشه فى متناول ايديهم .

وكان الاسطول البريطانى فى تلك الاثناء واقفاً بشواطىء اسپانيا يرصد حوادثها فما هو أن رأى ريح الثورة تهب على أرجائها حتى انحاز الى جانب الثوار فأمدهم بالسلاح والذخيرة وأيدت الحكومة البريطانية تصرف أسطولها بان اخلت سبيل الأسرى الاسبانيين الذين كانوا فى قبضتها فكستهم وسلحتهم ثم أطلقتهم على يوسف ورجاله فزادوه ارتباكا فوق ارتباكه .

وبعث يوسف الى أخيه يستغيث به ويستنجده ولكن نابليون كان من جهته فى حيرة أشد من حيرة شقيقه . وذلك لأن امبراطور النمسا ما كاد يعلم بما حدث فى أسبانيا حتى ألقى فى روعه أن نابليون شرع ينفذ سياسته التى كانت تذيعها عنه انجلترا وهى أنه ينوى أن يسقط كل ملوك أوربا عن عروشهم ويولى عليها أقاربه حتى لا يعيره أحد بنشأته وحتى يكون بين ملوكها أعرقهم أصلا وأقدمهم تاريخا . فكان ذلك سبباً فى قيام الحكومة النمساوية بتعبئة عامة جندت فيها ما يقرب من سبعمائة ألف نفس حشدتها على حدودها . وعلم نابليون بذلك فراعه الأمر وحاول عبثاً أن يقنع النمسا بالعدول عن هذه الخطة فلجأ الى المفاوضة ثم الى الطلب ثم الى التهديد ولكن النمسا بقيت على رأيها فى وجوب الاحتفاظ بهذا الجيش العظيم « للدفاع عن نفسها اذا اقتضت الظاروف » .

وفى هذه الظروف الحرجة كان يتلقى نابليون استغاثة أخيه فيكتفى بأن يعده بقرب إرسال المدد ويعود فيعالج موضوع انقاص السلاح مع النمسا لعله يستطيع بذلك أن يتفق معها فيتمكن من سحب جيش من جيوشة المرابطة عند « اتحاد الرين » ويبعث به الى اسبانيا .

وأخيراً اضطر عشرون ألف جندى فرنسى كان يقودهم ديبون « Dupont » فى جنوب اسبانيا الى التسليم للثوار عند بايلن « Baylen » وبلغت أنباء هـذه النكبة . نابليون فـكاد يصعق فى مكانه لانه كان يدرك مغزى هذا التسليم وماسيحدثه فى روح أعدائه المعنوية من التشجيع وكان الى جواره وهو يقرأ الخبر وزير خارجيته فلما رأى ماطرأ عليه من الانقباض والتخاذل خشى عليه وسأله :

— هل تحسون جلالتكم بشىء من التوعك ؟ فاجابه نابليون:

— لا !

— هل أعلنت النمسا الحرب ؟

— حبذا لو كان ذلك كل شىء !

— اذن ما الذى حدث ؟

فأفضى اليه نابليون بتسليم ديبون ثم قال :

— لا جناح على الجيش ان ينكسر ويدحر . فالحرب سجال يوم لك ويوم عليك . أما أن يستسـلم الجيش فيلق سلاحه طائعاً بين يدى عدوه فتلك هى الوصمة التى لا يمحوها الدهر إن الشرف لا يجبر كسره . وستكون آثار هذه النكبة أبعد مما تصل اليه الظنون ؟

وقد صحت فراسة نابليون فان يوسف لم يستطع البقاء بعد هذه الضربة فى مدريد فأخلاها وانسحب نحو الشمال ونزلت حملة بريطانية بقيادة السير أرثر ولسلى (دوق ولنجتون فيما بعد) إلى لشبونة . واشتبكت مع جونو فى معركة عند مدينة «ڤميرو» « Vimiero » فانهزم جونو وخلا الجو أمام الانجليز .

عند ذلك لم ير نابليون بدآ من الظهور فى الميدان بشخصه لعله يصلح مافسد على يد Dupont و Junot ويعيد يوسف الى مدريد ولكنه كان يعرف أن النمسا انما تنتظر مثل هذا الظرف لتفتح الطريق أمام تلك القوات الهائلة التى كانت تعدها وتدربها كل يوم على الحدود . فلم يشأ أن يبرح فرنسا قبل أن يتخذ لهذا الأمر عدته . ويحتاط لانقلاب خصومه عليه .

وانتهى به التفكير الى أن يعد فى قلب أوربا — عند مدينة أرفرت — لقاء آخر مع صديقه القيصر يعيد به الى الأذهان ذكرى لقاء تلست ويلقى به الرعب فى قلب كل من تحدثه نفسه بالقيام عليه فى أثناء غيبته .

* * —

واقترب اليوم السابع والعشرون من شهر اكتوبر سنة

١٨٠٨ — وهو اليوم المحدد للقاء ارفرت — وأعد له نابليون من مظاهر العظمة مايجعله كفيلا باحداث الأثر المطلوب منه. فدعا اليه كافة ملوك أوربا وأمرائها ونبلائها الخاضعين لنفوذه. وأمر بأن ينزل الجميع فى ضيافته حتى يتم له الظهور عليهم جميعاً بمظهر الزعيم المسيطر . وتم اللقاء بينه وبين حليفه فى جو ملىء بحسن التفاهم والصفاء . وجدد كل واحد لصاحبه عهوده الاولى ومواثيقه القديمة . فكرر نابليون اعترافه بحق امتلاك القيصر لفنلندا من السويد . والبغدان والافلاق من تركيا . وزاد على ذلك أنه يفكر فى الزواج باحدى أميرات أسرة رومانوف الروسية . فرحب القيصر بهذه الفكرة . وأكد له بدوره أنه على استعداد دائم للدفاع عن مصالح فرنسا وزاد على ذلك أنه يتعهد بمساعدته اذا ماأعلنت النمسا الحرب عليه .

وطابت نفس نابليون لهذه الوعود . واطمأن قلبه وطلب أن تنشر وتذاع فى كافة أوربا ليقف عليها الجميع . ثم طار الى اسبانيا قبل أن تفوته الفرصة . فعبر جبال البرانس . وكسر الاسبانيين عند نهر الابرو . ودخل مدريد . وتمكن فى بحر أسبوع واحد من اعادة أخيه يوسف فوق عرشه . ثم علم بنزول

جيش انجليزى جديد الى اسبانيا تحت قيادة سير جون مور .
فأسرع إلى لقائه. ولكن « Moore » كان أحرص من أن يشتبك
معه فى قتال وظل يتقهقر أمامه نحو الشاطىء الشمالى لاسبانيا
ليجتذبه خلفه ويخفف الضغط بذلك على الثوار فى جنوب
اسبانيا فينظموا صفوفهم ويستأنفوا الجهاد .

على أن نابليون لم يلبث أن بلغه أنه قد وقع ما كان يتوقعه .
وأعلنت النمسا الحرب عليه . فلم ير بدأ من ترك مور لقائده
سولت حتى يتمكن هو من العودة إلى فرنسا ليستعد لنزول
الميدان الشرقى ضد النمسا من جديد .

وكان نابليون فى تلك السنة قد بلغ التاسعة والثلاثين من
عمره وامتلأ جسمه النحيل نوعا ما وحسب الناس أن عناصر
الشيخوخة والضعف قد بدأت تدب فيه ولكن عبوره جبال
جواداراما « Guadarama » سعياً على قدميه وهو يتعقب السير
جون مور . وتمكنه من قطع ٢١٤ ميلا فى جو ديسمبر
العاصف المثلوج فى مدى اثنى عشر يوماً وعودته من بلد الوليد
إلى باريس فى أقل من ستة أيام — كل ذلك كان دليلا حياً
على أنه مازال يحتفظ بذلك النشاط العجيب الذى يرجع اليه
الفضل فى نجاح معظم خططه الحربية وتفرده فى تاريخ العالم

بتلك المفاجآت التى ماتزال موضع الدهشة عند الجميع .

***

وسار سولت « Soult » يتعقب الانجليز حتى أدركهم عند « Corunna » وعنـد ذلك لم ير مور بدأ من الالتحام بالفرنسيين فدارت معركة كان مور أول ضحاياها . وبذلك انسحب رجال الحملة البريطانية إلى سفنهم تاركين جثة قائدهم فى ميدان القتال .

غير أن شجاعة مور وما أبداه من البراعة الحربيـة فى تقهقره أمام الفرنسيين كان سبباً فى تقدير الضباط الفرنسيين لبطولته . فتولوا عن جيشـه وأمته الاحتفال بدفنه واقامة نصب تذكارى أيضاً فوق قبره !

الباب الرابع : التحالف الدولى الخامس

الفصل الأول : حرب النمسا .

الفصل الثانى : طلاق جوزفين .

الباب الرابع

التحالف الدولى الخامس

الفصل الأول

حرب النمسا

خرجت النمسا بعد توقيع معاهدة « كامبو فورميو » (سنة ١٧٩٦) وهى تفكر فى نقضها لمـــا أصابها فيها من المهانة . فتسببت بذلك فى حروب التحالف الدولى الثانى الذى انتهى معها بصلح « لونفيل » (سنة ١٨٠١) — وفيـه تأيدت كافة الشروط التى سبق لنابليون أنه أملاهـا فى كامبو فوريو — ولكنها عادت بعد لونفيل تفكر فى الانتقام لنفسها . وكانت بذلك عاملا مهما فى تكوين « التحالف الدولى الثالث » الذى انتهى بصلح « پرسبورج » وقدخسرت فيه أضعاف ماخسرته فى كامبو فورميو .

وبينما كان نابليون يعتقد أنه ألقى على رجالها المسئولين درساً

مقنعاً فى وجوب الامتثال كانت هى لا تفكر الا فى استعادة شرفها الضائع وكرامتها المسفوكة وظلت ثلاث سنوات طوال وهى لا يقر لها قرار حتى وقعت ثورة اسبانيا وارتبك لها نابليون أشد ارتباك . فأيقنت فى نفسها أن انهماكه فى ذلك الميدان ومناوأة الانجليز له هناك لن يترك له مجالا لمقاومة جيوشها فى قلب أوربا كما أيقنت أن هزيمة واحدة تحل بجيوشه الأوربية سوف تكون سبباً فى تخلى حلفائه الألمان عنه ودخول بروسيا فى الحرب عليه . وأن اعتراض أم القيصر على سياسة ابنها وامتعاض أشراف الروسيا من اندفاع القيصر فى علاقاته الودية مع نابليون سوف تمحو كل أثر لمقابلتى تلست وإرفرت . فحسبت أن هذه ساعتها التى طال تربصها لها . وكان قد زاد تخاوفها من نابليون ما أشرنا إليه فى الفصل السابق من خلع ملك اسبانيا . فثبتت هذه الحادثة عزمها على القيام مرة أخرى لعلها تغسل العار الكثيف الذى تراكمت عليها طبقاته منذ ظهر نابليون فى أوربا .

وفى شهر مارس سنة ١٩٠٨ أبرم اتفاق جديد بين الحكومة الانجليزية وأمبراطور النمسا تعهدت فيه انجلترا بامداد النمسا بالمال للقيام بحملة جديدة ضد نابليون . وأرسل

مندوب الى الباب العالى على جناح السرعة لينبه السلطان الى ما اتفق عليه نابليون والقيصر من تقسيم الامبراطورية العثمانية فلم يتردد الخليفة لحظة فى الانضمام الى جانب النمسا ثم ما لبثت أن انضمت الحكومتان الثائرتان فى اسبانيا والبرتغال الى هذا الاتفاق أيضاً . وبذلك تألف (التحالف الدولى الخامس) من انجلترا . والنمسا وتركيا . واسبانيا . والبرتغال .

وكان نابليون يطارد السير جون مور فى شمال أسبانيا عند ما علم بتحرك النمسا وتأهبها لحمل السلاح فى وجهه من جديد فترك قيادة الحملة الاسبانية للجنرال سولت . وهب كالعاصفة على ظهر جواده ينهب الأرض حتى بلغ بايون عند حدود فرنسا الجنوبية ومن هناك استقل عربة حملته الى باريس[١] .

وفى الساعة الثامنة مساء من يوم ١٢ ابريل سنة ١٩٠٨ علم نابليون باعلان النمسا الحرب عليه . فلم تطلع عليه شمس اليوم السابع عشر إلا وهو يشرف على ميدان القتال عند

---

(١) يقول بعض من رافق نابليون فى هذه الرحلة المدهشة أنه كان يقطع بجواده ١٧ ميلا فى ساعة

مدينة (دونافرت) على نهر الطونة .

وكان الأرشيدوق شارل صاحب اليد الطولى فى إثارة النمسا لدخول هذه الحرب لأنه كان أول موتور بين مواطنيه من أعمال نابليون . ولأن ما حل ببلاده من الذل انما حل بها على يديه . فهو الذى كان يقود جيوشها فى الحروب الماضية وعلى رأسه كانت تنزل ضربات نابليون . فأعد هذه المرة ثلاثة جيوش جرارة وأوغل بها فى قلب ألمانيا حتى أشرف على حدود فرنسا نفسها . وكانت الجيوش الفرنسية بقيادة برتييه « Berthier » . ولكنه لم يكن نِدًّا للأرشيدوق فتقهقر أمامه فى كل مكان . وهكذا حققت هذه البداية آمال شارل وشجعته على متابعة ضغطه على الفرنسيين .

ولكن نابليون لم يلبث أن وصل فى الوقت المناسب . وما كاد يرى ما فعله برتييه بجنوده حتى أخذ ينفذ رسله إلى كافة الجهات التى كانت الجيوش الفرنسية مشتتة فيها لالغاء أوامر برتييه والتجمع فى نقطة واحدة ليتسنى مهاجمة كل جيش من جيوش العدو بمفرده بدل الانتشار فى خط طويل يكون من شأنه إضعاف جبهة الدفاع وتمكين العدو من اختراقه فى أية جهة يشاء .

وقد نجح نابليون — بمناورات تعد الوحيدة من نوعها في تاريخ الحروب — من جميع أشتات جيشه المبعثر ثم انقض على جنود النمسا وربح خمس معارك في خمسة أيام متتالية (من ١٨—٢٢ ابريل سنة ١٨٠٩) وكان ختامها ذلك العراك الهائل الذى نشب بالقرب من قرية إكمهل « Ekmuhl » ودارت الدائرة فيه على النمسويين .

ولم تر الجيوش النمسوية بعد إكمهل إلا أن تخلى الميدان لنابليون فارتد شارل بما بقى معه من جيوشه نحو الشمال . وماكاد يراه نابليون يسير فى هذا الاتجاه حتى فطن إلى ما سيتعرض له من الخطر . فتألقت عيناه وظهرت على نظراته وإشاراته ونبرات صوته نشوة من الفرح ثم قال :

— « الآن وقعوا فى يدى ! لقد ضاع جيشهم ! وسنكون فى فينا مرة أخرى، فى ظرف شهر واحد ! » .

على أن الحوادث أثبتت أن نابليون كان معتدلا غاية الاعتدال فى تقديره لأنه لم تمض عليه ثلاثة أسابيع إلا وهو نزيل قصر شونبرن « Schônbrunn » فى العاصمة النمسوية !

ولقد حدث ونابليون يحاصر فينا . ويصب على رأس سكانها جام غضبه وحنقه أن انفتحت أبوابها المواجهة



الامبراطورة ماري لويز

لمعسكره وبرز منها جماعة يحملون علم الهدنة الأبيض . فجئ بهم إليه فاستوضحهم عن خبرهم فقالوا له إن السراى الامبراطورية تواجه مدفعيته مباشرة وقد فر منها الامبراطور وأهله إلا ابنته فقد تركوها على سرير مرضها إذ لم يكن من الممكن نقلها معهم . وانها تتوسل بكرم الفاتح العظيم فى أن يعفى مثواها من التدمير . فأصدر نابليون أمره فى الحال بتحويل أفواه المدافع عن تلك الوجهة وهو لا يدرى أن هذه الأميرة المريضة التى بعثت تتوسل بكرمه وشهامته انما هى ماريا لويزا التى كتبت له الأقدار أن يطلق جوزفين زوجة صباه ليتزوج بها ويستولدها وارثه الوحيد وولى عهده « ملك روما » !.

وكانت النمسا فى هذه المرة تنوى أن تجعل هذه الحرب حرب الحياة او الموت بالنسبة لآمالها مقتدية فى ذلك بالمثل الذى ضربته لها اسبانيا . فلم يؤثر فيها احتلال نابليون لفينا . واكتفت باخلائها له بعد أن حطمت كل الجسور القائمة على النهر بجوارها حتى لا يستغلها نابليون فى متابعتهم واللحاق بهم . ولكنه على الرغم من ذلك عول على عبور النهر وادراك اعدائه قبل ان يتهيأ لهم الزمن الكافى للم شعثهم وتنظيم

صفوفهم . فحاول ذلك فى مكان يقع تحت فينا قليلا لأن النهر تعترضه فى هذه البقعة جزيرة طويلة من الممكن ان يستفيد بها الجيش عند عبوره .

فأقام مهندسو الجيش جسوراً متنقلة من الزوارق المصفوفة وتمكن نابليون بواسطتها من نقل نصف جيشه تقريباً إلى شاطئ نهر الطونة الأيسر ولكنه قبل ان يتم ما بدا فيه قام فى وجهه اهالى قريتى اسبرن واسلنج Aspern et Essling فلم يقو على مقاومتهم طويلا وارتد على اعقابه إلى الجزيرة حيث بقى فيها ريثما تتم معدات العبور .

وفى هذا الظرف الدقيق قامت الدعاية الانجليزية بواجبها خير قيام فأذاعت اخبار هذا الارتداد فى كل اوربا على انها هزيمة منكرة وان نابليون اصبح بعدها سجيناً هو وجيشه فوق تلك الجزيرة التى يحيط بها المـاء وانه لم يبق لالقاء القبض عليه فيها واسر جنوده معه إلا ان تتآزر بقية دول اوربا المهضومة الحقوق وتقف إلى جانب الحلفاء .

وفى الحق كانت الساعة رهيبة لنابليون . وكان هو يحس بكل ما فى الموقف من حرج ويعلم بأن كل شيء اصبح موقوفا على نجاحه او فشله فى عبور النهر والخروج من ذلك المأزق

القبيح . فتنبهت فيه كل ما احتوته طبيعته الفذة من الخصائص الخارقة . وأصبحت الجزيرة بفضل جهوده الجبارة فى ظرف أيام قلائل مرتبطة بشاطىء النهر الايمن والايسر على السواء ارتباطا يجعل الجنود يعبرون من جانب الى جانب كأنهم يسيرون فوق اليابسة من غير أن يكون للماء الذى يجرى تحت أقدامهم دخل فى حركاتهم .

وفى ليلة واحدة هى ليلة الرابع من شهر يوليه عبر نابليون النهر بجيشه العظيم . وطلع على جيوش الارشيدوق شارل مع فجر ذلك اليوم المشهود . ونشبت بين الفريقين معركة « واجرام » Wagram الشهيرة التى كانت بدورها ركنا من أهم الاركان التى بنى عليها نابليون عظمته الحربية . فقد دارت رحاها يومين متواصلين لم ير الارشيدوق فى ختامهما بدا من أن ينسحب بعد أن خلف فى الميدان ٢٤ ألف جندى مابين قتيل وجريح غير اثنى عشر ألف أخرى وقعت كلها فى أسر الفرنسيين .

وهكذا انتهت هذه الحرب أيضاً ولم تزدد النمسا بها إلا أحقادا على نابليون . وكانت قد دخلتها لتسترد شرفها وكرامتها فخرجت منها وقد ضيعت ما بقى لها من شرف وكرامة ولم ير

الارشيدوق شارل بعد هذه الخيبة المتكررة إلا أن يعتزل الحياة العامة فنزل عن رياسة الجيس العليا وآوى الى بيته يقضى فيه بقية أيام حياته الآلية. وكذلك سقطت الوزارة القائمة وجاءت وزارة غيرها لم تكن قد قطعت على نفسها تلك العهود الغليظة التى قطعتها للأمة الوزارة السابقة وذلك كى يتسنى لها الاقتراب من نابليون والتفاوض معه على شروط الصلح الجديد. فاستدعى مترنيخ Metternich وزير النمسا المفوض فى باريس ليشكل الوزارة الجديدة. ولكنه رأى أن لا يبدأ المفاوضة إلا بعد أن ينظر ماذا سيكون من موقف حلفائه الانجليز فى اسبانيا. فان انتصارهم فى ذلك الميدان يكون من شأنه تقوية مركز المفاوض النمسوى، وكان نابليون على عكسه يخشى كل تأخير فى عقد الصلح لأنه كان يوجس من تأثير البلاط الروسى على القيصر كما كان يوجس من تأثير دعاية الحلفاء على ملك بروسيا — ولكن لحسن حظه مضى الزمن الكافى والقيصر باق على ولائه له. وملك بروسيا متمسك بحياده أزاء هذا التحالف. وأخيرا وردت أنباء اسبانيا وهى تعلن انتصار الجيوش الفرنسية فى معركة (تلافيرا) "Talavera" وارتداد سير أرثر ولسلى.

بجنوده الى البرتغال — وهنالك ضاع آخر أمل للنمسا فى عقد صلح مشرف فاستسلمت لنابليون . ووقعت فى الرابع عشر من شهر اكتوبر سنة ١٨٠٩ معاهدة فينا وكانت بطبيعة الحال شر ما وقعت من المعاهدات مع نابليون . فأنها خسرت بها نحو خمسين ألف ميل مربع من أرضها ونحو أربعة ملايين من سكانها وانقطعت بعدها انقطاعا تاما عن البحر الابيض المتوسط وعن ألمانيا وبذلك قضى على وجودها السياسى ومركزها التجارى قضاء مبرما . فقد تقرر فى شروط هذه المعاهدة أن تنزل النمسا : —

اولا — عن تريستا وكرواتيا وماجاورهما من شواطىء بحر الأدرياتيك لتتألف من كل ذلك « الولايات الأليرية » وتكون خاضعة رأساً لنابليون

ثانياً — عن نصيبها الذى كانت قد حصلت عليه من بولندا — لينضم الى « دوقية وارسو »

ثالثاً — عن سالزبرج وما جاورها ليستولى عليها ملك بافاريا حليف نابليون

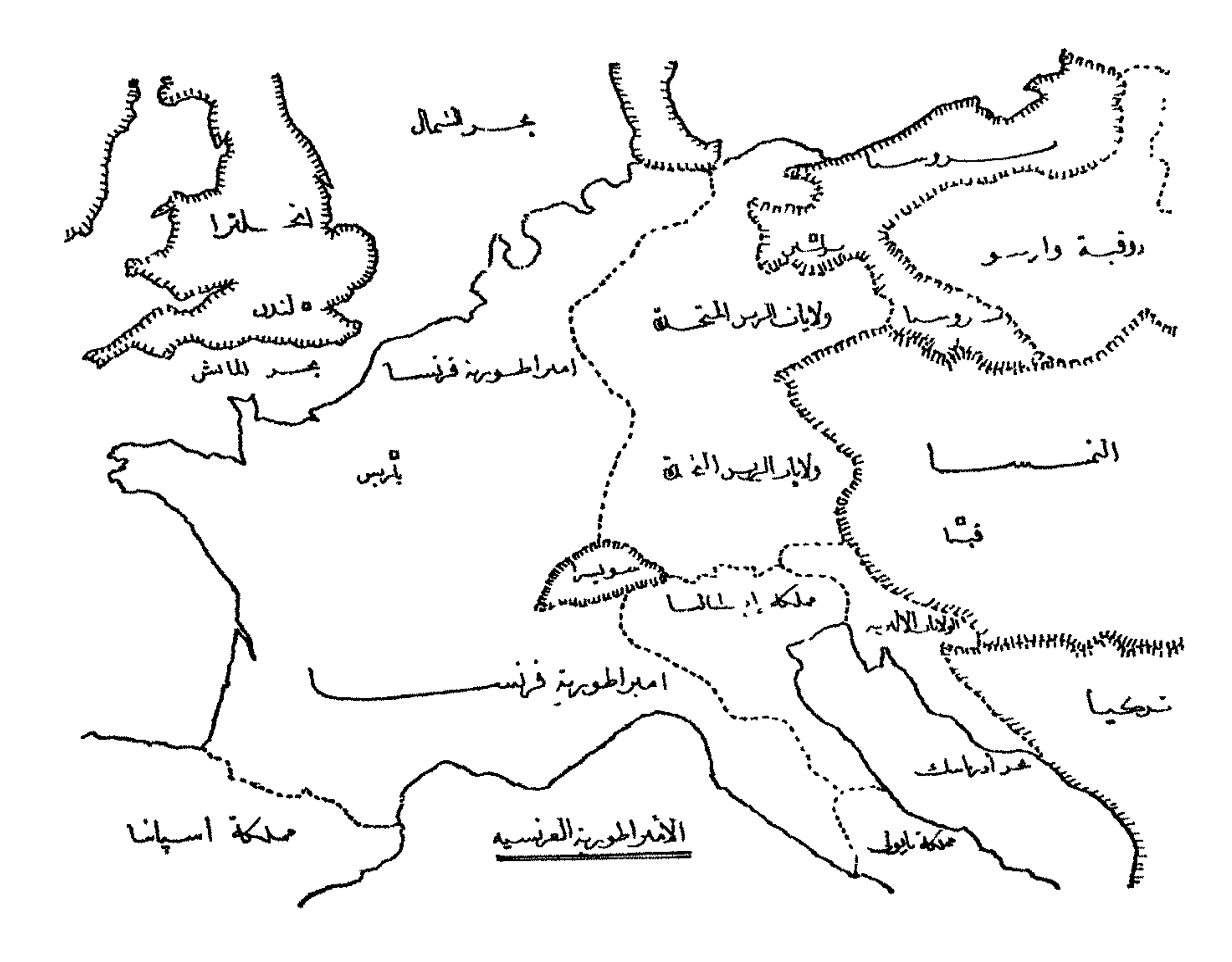
وكانت النمسا قد أفلحت فى إحداث ثورة فى مقاطعة التيرول (التى ضمتها معاهدة پرسبورج إلى ملك بافاريا) فقام

أهلها قومة رجل واحد تحت لواء زعيمهم البطل « أندرو هوفر » Andrew Hofer » وأبلوا أحسن بلاء فى هذه الحرب ولكن النمسا لم تملك بعد ماحل بها من الهزائم أن تدفع عنهم غضب نابليون فأسلمتهم لانتقامه غنيمة باردة . فأعادهم الى حظيرة ملك بافاريا بعد أن نكل بزعمائهم وأعدم بطلهم هوفر رميا بالرصاص .

* * *

ولعل معاهدة فينـا تحدد النهاية التى وصلت اليهـا امبراطورية نابليون من حيث اتساعها وانتشارها فقد كانت تمتد دولته بعدها «من مصب نهر الألب شمالا الى مصب التيرول جنوبا وتضم بين جناحيها العريضين نحو ١٣٠ مقاطعة فى ايطاليا وفرنسا وسويسرا ولوكسمبرج وبلجيكا وولايات الرين وبلاد ألمانيا الواقعة على بحر الشمال .

« وكان نابليون نفسه ملك إيطاليا ووسيط المحالفة السويسرية وحامى محالفة الرين التى كان ملوكها جميعا يدينون له بتيجانهم . وكان أخوه يوسف ملكا على اسبانيا وأخوه لويس ملكا على هولندا وأخوه جيروم ملكا على وستفاليا وصهره مورا ملكا على نابولى . وكان الملوك والقياصرة



بحر الشمال
انكلترا
لندن
بحر المانش
امبراطورية فرنسا
باريس
ولايات الرين المتحدة
ولايات الرين الغربية
روسيا
دوقية وارسو
بروسيا
النمسا
فينا
سويسرا
مملكة ايطاليا
الولايات الالليرية
امبراطورية فرنسا
تركيا
البحر الادرياتيك
مملكة نابولي
مملكة اسبانيا
الامبراطورية الفرنسية

حلفاؤه طوعا أو كرها لاينـازعه منهم فى الملك والسلطان منازع واستمرت الحال على ذلك مدة عامين (مابين ١٨٠٩ — ١٨١١) كان فى أثنائهما يهيمن على كافة شئون أوربا » .

وقد كان هذا الملك الواسع سببا فى إغرائه باحداث وارث من صلبه يرث عنه كل هذه العظمة . وأخذ منذ ذلك اليوم يفكر تفكيرا جديا فى طلاق جوزفين . وقد رأيناه فعلا يفاوض الاسكندر فى إرفرت على الزواج من أسرته . ولكن أم القيصر ضنت بدماء بيت رومانوف العريقة أن تمتزج بأسرة المسيو بونابرت المحامى الكورسيكى فحول نابليون وجهه شطر أسرة هابسبرج النمسوية وتولى مترنيخ نفسه مهمة المفاوضة فى أمر هذا الزواج وكان نجاحه فيه أول نصر سياسى أحرزه فى حياته العامة لأن نابليون لم يلق خيرا من بعد هذا القران . إذ اشتبك بسببه فى حرب مع الروسيا كانت فاتحة سقوطه . واخذ نجمه بعدها فى الافول .

الفصل الثانى

طلاق جوزفين

كنا قد أثبتنا فى بعض الفصول السابقة نص الرسالة التالية التى بعث بها نابليون إلى جوزفين .

« إن رجلا لا تحبينه ليس من حقه أن تكون سعادته أو شقاوته موضع اهتمامك . أما عن نفسى فقد جعلت غايتى من هذه الحياة أن أعيش لأحبك . فلا تهتمى بشئون رجل لا يستمد حياته إلا من حياتك . ولو أنى تقاضيت منك أن تحبينى بقدر حبى لك إنى إذن لفى ضلال مبين ! وهل أنا ان فعلت ذلك إلا كمن يتطلب أن تزن « الدنتلا » مثل وزن الذهب ؟ وان الذنب لذنبى إذا كانت الطبيعة لم تهبنى من الجاذبية ما أجذب به فؤادك ! ولكن الذى استحقه من جوزفين إنما هو اعتبارها وتقديرها لأنى أحببتها هذا الحب العنيف الفريد ! وأنى فى الساعة التى أعرف فيها أنها لم تعد تحبنى سأطوى على هذا السهم الدامى جناحى وأرضى من هذه

الدنيـا بأن أوفق الى تأدية خدمة نافعة لهـا فى أية ناحية من نواحى الحياة . . . .

هاءنا أعيــد فتح كتابى لأقبلك ! آه — ياجوزفين ! ياجوزفين ! »

وذكرنا بعـد ذلك أن أخبارا غير سارة وصلته وهو فى فى مصر عن سلوك زوجته جعلته يثور ويعلن فى حدة وغضب أنه سوف يطلقها بمجرد عودته من مصر الى باريس « طلاقاً فاضحا واضحا لأنه لا يريد أن يكون اضحوكة العاطلين من أهل باريس ! »

وذكرنا أيضا أنه كتب الى أخيـه يوسف على أثر هذه الثورة فقال له :

« لقد ضاق صدرى بالطبيعة البشرية . وأصبحت أحس بالحاجة الى الانفراد والعزلة وسئمت مظاهر العظمة . وجف نبع عواطفى . وأصبحت وأنا فى التاسعة والعشرين من عمرى أعاف المجد وأراه فاترا لاطعم له . لقـد سلبتنى يد الدهر كل أمل . فلم يبق لى إلا شخصى أحيـا به حياة الأثرة والانانية التامة المطلقة ! »

وبَيَّنَّا بعد ذلك كيف أن لثماً واحدا تم بينه وبين زوجته

كان كافيا للعودة به الى حظيرة نفوذها فتجدد حبه لها وتأكد عطفه عليها . وعاش معها على ذلك زمانا طويلا الى أن عين قنصلا أولا لمدة حياته . وعند ذلك اتجهت أفكاره اتجاها جديدا وهو الحصول على وارث يرث عنه ملك فرنسا خشية ما يقع بين زعمائها من النزاع اذا ما جاء أجله ولفظ نفسه الأخير وخشية أن تعود البلاد الى ما كانت فيه من الفظائع الداخلية والأخطار الخارجية . وقدقويت عنده هذه الافكار وازدادت فى نفسه استقرارا عقب رفعه الى عرش الامبراطورية فقد أصبح « ولى العهد » حاجة من حاجات الدولة لا بد من تحصيلها . فتكاثر الناصحون حول نابليون وجلهم من أهله واخوته يشيرون عليه بالطلاق من جوزفين والتزوج بأحدى أميرات البيوت المالكة فى أوربا . وكان هو فى أول أمره يصد عن مشورتهم ولا يستمع لها لأنه كان يعلم أن لجوزفين ولدين من بوهارنيه زوجها الماضى وأنها لم تعقب منه نسلا مما قد يدل على أن العقم منه لا منها . ولكنه بعد صلته بالكونتس واليسكا وغيرها تحقق من أنه يستطيع انجاب « اولياء للعهد » إذا هو تزوج بغير جوزفين زواجا شرعيا رسميا . فبدأت تتخلخل عزيمته فى التمسك بزوجته وبدأت تميل أذنه لمقالة من

حوله من أنصار الطلاق .

ولم تكن جوزفين غافلة عن شيء من هذه التطورات. بل أنها كانت ترقبها بمزيد العناية والاهتمام وتعمل جهدها على الاحتفاظ بنابليونها القديم لاسيما بعد أن بلغت ما بلغته من المنزلة السامية بين الفرنسيين بفضل انتمائها اليه واقتران اسمها باسمه ولم تدخر وسعا فى التأثير على كل ماكانت تعلم أنه يدعو إلى فكرة الطلاق عند زوجها — وكان يوسف أخو نابليون أشد أهله انتصارا لهذه الفكرة . فكتبت إليه جوزفين يوما من الأيام :

« ان طلاق نابليون سيفسح الطريق لزواج آخر قد يثمر ولدا . فلا يبقى لك معه أمل فى الصعود الى العرش ! ».

على أن شيئاً من هذا الاغواء وأمثاله لم يؤثر فى دعوة يوسف أو غيره . وأخيراً بدأ نابليون يرى حيوية الفكرة بالنسبة لصالح فرنسا العام . وأخذت تتجلى له مزايا الاقتران بأحدى أميرات البيوت المالكة العتيقة وكيف أن هذا يكون سببا فى انتاج « ولى عهد » تجرى فيه الدماء الملكية العريقة . وبذلك يتوطد مركز الأسرة البونابرتيه فى الحكم وتنقطع حجة خصومه فى الطعن على نشأته والتذرع بهـا لاسقاطه

وهدمه — وربما نشأت عن هذه المصاهرة مع الروسيا مثلا أو مع النمسا محالفة سياسيه يكون من شأنها أن تضع حدا لهذه الحروب التى أغرقت أوربا فى الدماء ما يزيد على عشرة اعوام — وهكذا تواترت هذه المغريات على خاطر نابليون حتى ألفى نفسه فى آخر الأمر يميل الى دعوة يوسف وأمثاله ممن كانوا يشيرون عليه بالطلاق . وانتهى الى الاقتناع بوجوبه فصحت عزيمته عليـــه ولم يبق الا الأفضاء بهذه العزيمة الى جوزفين لتستعد لها وتوطن نفسها عليها .

ورأى نابليون فى بادىء الأمر أن يكل إلى أحد أصهارها القيام بعمل التمهيد اللازم معها فقصد إلى الكونت لافاليت وقال له :

« أنى لا أؤمل أن أرزق من جوزفين ولدا . على أنى لم أبلغ بعد من العمر ما يحول دول حصولى على ولد . وان راحة فرنسا لتقتضى أن اتخذ لى زوجة أخرى . وأن لك من المنزلة عندها ما يجعلك محل اجلالها واحترامها فهل لك أن تعد فكرها لقبول الحالة الجديدة التى أوجبتها المقادير ؟ »

ولكن الكونت لم تخف عليه دقة الموقف فاعتذر والتمس من الامبراطور أن يسند هذه المهمة الى غيره وعبثا حاول

نابليون أن يظفر بمن يقبل حمل هذه الرسالة الى جوزفين
فلم ير بدآ من أن يتولى بنفسه ابلاغها هذا الخبر الأليم .

* * *

وتحدد اليوم الأخير من شهر نوفمبر سنة ١٨٠٩ للأفضاء
بهذا النبأ العظيم الى جوزفين . ونما علم ذلك اليها فتضعضعت
نفسها مقدما وتصدع كيانها . . . . . . وأخيرا حل ذلك اليوم
بعد ان تم استعداد نابليون له . وكمل تأهب جوزفين . وعلى
الرغم من ذلك كانت تظلل قصر فونتنبلو منذ الصباح كآبة
قاتمة . كأنما أُلـهِمَ كل شيء فيه بالغريزة أن صاعقة ستنقض
على أهله فى المساء . فقضت جوزفين ساعات الصباح وحيدة
فى مخدعها تنتحب وتبكى . وقضـاها نابليون فريدا فى مكتبه
يفكر ويتأمل . واجتمعا فى آخر اليوم على مائدة العشاء . فلم
تجر بينهما كلمة ولم تسرِ بينهما نظرة . وكانت الصحاف ترفع
كما توضع دون أن تمسسها يد واحد منهما . وأخيراً فرغ هذا
الاستعراض الثقيـل وانسحب الخدم وتقدم نابليون تعلوه
صفرة الموت الى باب الغرفة فأقفله ثم خطا خطوات عصبية
متلعثمة نحو جوزفين . وأمسك يدها بأطراف يده المتجمدة
ووضعها على صدره وجسمه يختلج من رأسه الى قدمه ثم قال:

جوزفين ! ياعزيزتى جوزفين ! إنك تعلمين مبلغ حبى لك وانى مدين لك بلحظات السعادة القصيرة التى تذوقتها فى حياتى ...... ان مصيرى ياجوزفين أقوى من إرادتى .... وان أعز رغباتى لتطأطىء رأسها أمام صالح فرنسا ...... »

وكأنما كانت هذه الكلمات آخر ما تستطيع جوزفين احتماله من آلام ذلك اليوم الموعود . وكأنما كانت تغالب نفسها طول يومها لتبقى على صوابها حتى يتم تمثيل هذا الفصل الاخير من تلك الرواية الشاقة فلم يكد ينثر نابليون بين يديها هذه الكلمات المبعثرة حتى خارت قواها وضاع صوابها فانطرحت على الأرض فاقدة الرشد ....

وزاد ارتباك نابليون فأسرع الى الباب واستغاث بمن كان حاضرا خارجه . فدخل الكونت دى بومون «Comte de Beaumont» وأبصر الامبراطورة مطروحة على الأرض فاحتملها بين يديه يعاونه نابليون وصعد بها الى الطابق الخاص بها وهى تهذى بين يديهما قائلة :

« أبداً ! أبداً ! إنك لن تفعل هذا ! إنك لن ترضى أن تقلتنى ! » .

وظل نابليون يتردد على غرفتها طول الليل مستفسرا عن

صحتها . وكانت ابنتها هورتنس إلى جوارها تعنى بهـا ـــ أما أوجين فقد استدعى من إيطاليا على عجل وألقت هورتنس رأسها بين ذراعيه وهى تروى له خاتمة أمهما المحزنة . فأسرع أوجين إلى مكتب الامبراطور يستفسر منه عن حقيقة نيته فى الطلاق من أمه . فلم يقو نابليون على الأجابة واكتفى بأن أمسك بيد ذلك الشاب المخلص وضغط على كفـه . ولكن أوجين تراجع قائلا :

ـــ إننى يا مولاى فى هذه الحالة لا يسعنى الا الانسحاب من خدمتكم !

فقال نابليون : ـــ كيف ؟! أيرضى أوجين ولدى المتبنى بالتخلى عنى ؟

فأجابه : نعم يامولاى ! إن ابن السيدة التى لم تعد امبراطورة لا يستطيع أن يبقى نائب ملك ! وسوف أتبع أمى وأعيش معها فى عزلتها وأن من حقها اليوم أن تجد العزاء الكامل فى ولديها !

فامتلأت عينا نابليون بالدموع وقال :

ـــ « إنك تعلم يا أوجين القوة القاهرة التى تملى على مثل هذا التصرف فهل بعد ذلك تصر على التخلى عنى . ولئن فعلتَ

فمن ذا الذى اتخذه ولدا من بعدك ليصون مصالحى ويحقق رغباتى ؟ ومن ذا الذى يشرف على « الطفل » عند غيابى . ولو أننى مت فمن ذا الذى يقوم مقام الوالد له ومن ذا الذى يتولى رعايته وتنشئته . . . » .

على أن جوزفين نفسهـا أبت فى تلك المحنة التى كانت تعانيها إلا أن تنصح ولدها بالبقاء على عهد نابليون قائلة له :

ـــ إن الامبراطور يا ولدى هو ولى نعمتك . وهو لك أكثر من أبيك وأنك لمدين له بكل شىء فمن الواجب عليك أن تطيعه فى كل شىء ! » .

* * *

وأخيرا حل اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر وهو اليوم الذى حدد لأعلان هذا الطلاق . وقدر « للبهو الأكبر » فى سراى التويلرى أن يشهد هذا المنظر الرائع . منظر نابليون وجوزفين وقد أمسك كل منهما فى يده بورقة سطرت عليها كلمات كان عليـه أن يتلوها على رجال الدولة الذين دعوا ليكونوا شهودا على إعلان كل من الزوجين رضاءه عن فراق الآخر .

وبدأ تمثيل تلك الرواية المحزنة فقام نابليون وأدى دوره بما هو أهله من الثبات والهدوء ثم جاء دور جوزفين فوقفت

والورقة فى يدها . وحاولت أن تقرأ ما فيها . ولكنها ما كادت تلقى نظرها على سطورها حتى انفجرت بالبكاء فناولتها لجارها كى ينوب عنها فى تلاوتها وألقت بنفسها فى مقعدها وقد غطت وجهها بمنديلها لتتلقى به سكب دموعها . . .

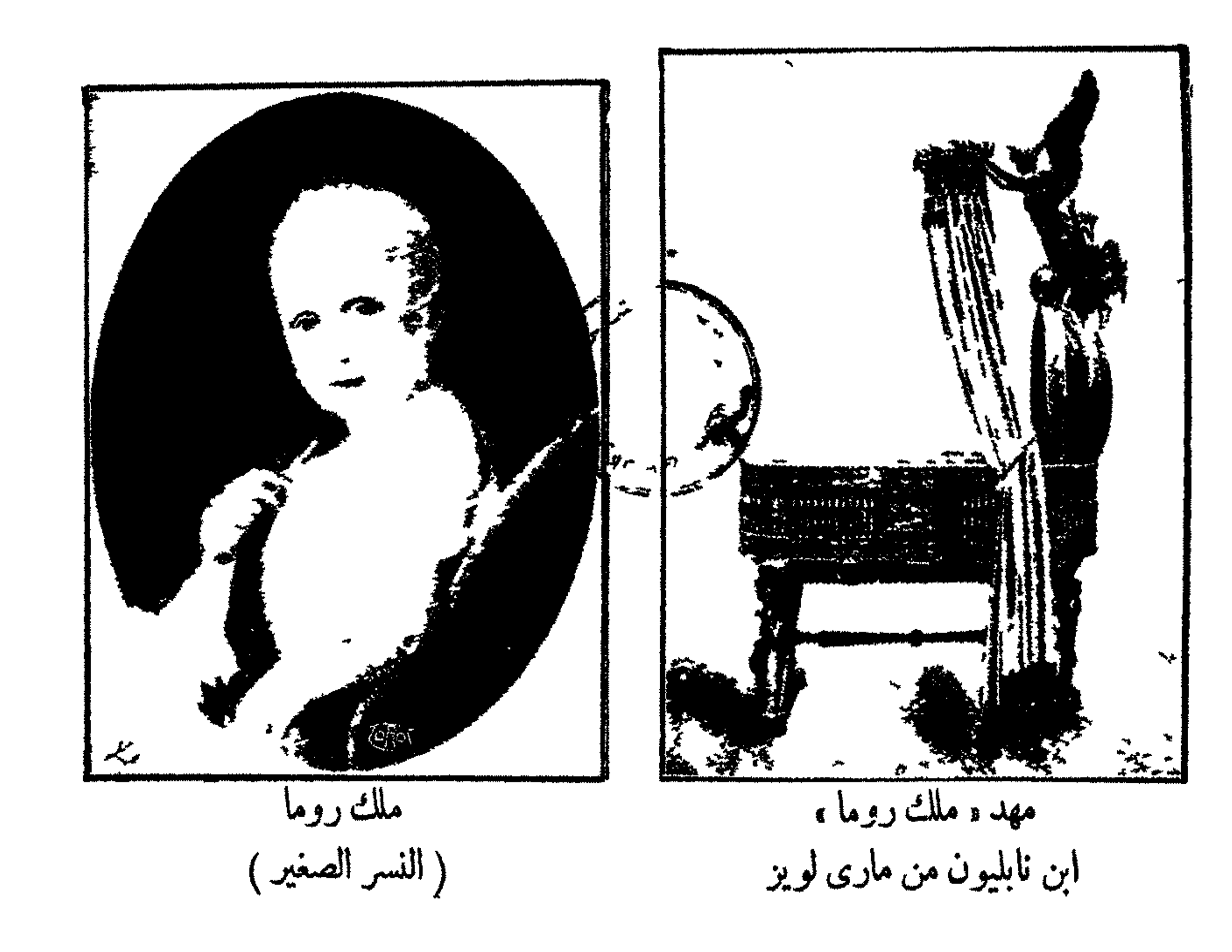
وأقبل نابليون على جوزفين بعد الفراغ من تلاوة كلمتها فقبلها ثم أخذ بيدها وسار بها إلى مخدعها . وهناك تركها فى شبه غيبوبة بين أيدى ولديها .

وقضى نابليون تلك الليلة فى قصر التويلرى . ولما حانت ساعة النوم أوى إلى فراشه — ذلك الفراش الذى أقصى عنه زوجته العزيزة المحبوبة . وكان الجهد والأعياء قد أخذا من جسمه كل مأخذ فاستلقى على سريره خائر القوى شارد الفكر — ولم تدم رقدته على هذه الحال طويلا فأنه أبصر باب غرفته الخاص ينفتح رويدا رويدا وقد بدت منه جوزفين . فاستوى جالسا . وأقبلت جوزفين نحوه فى خطوات سريعة متعثرة . ولكنها ما قطعت نصف المسافة حتى وقفت فجأة فى مكانها كأنما يحول بينها وبين زوجها السابق حائل . وكأنما أدركت أن لا حق لها الآن فى الاقتراب من فراشه على أنها ما عتمت أن اكتسحت خواطرها عاطفة واحدة قوية

فاندفعت تحت تأثيرها من جديد وطرحت نفسها على السرير . وطوقت رقبة نابليون بذراعيها وهى تهتف به : « زوجى ! يا زوجى ! » .

ولم يقو نابليون على مغالبة الموقف فامتزجت دموعه بدموعها وهو يضمها آخر ضمة إلى صدره وظل الزوجان على ذلك برهة طويلة ثم انسحبت جوزفين إلى مخدعها . ودخل الخادم على سيده فألفاه مغمورا بأغطيته حتى لا تكاد تبدو منه جارحة فأطفأ الأنوار وانصرف دون أن ينبس بكلمة . وقد علم فى صباح اليوم التالى من وجه نابليون الباهت وعينيه الفاترتين أية ليلة أليمة قضاها سيده تحت الغطاء !

على أن الصلة لم تنقطع بعد ذلك بين نابليون وجوزفين — بل بقيت حية قوية حتى بعد زواجه الثانى من « مارى لويز » ابنة امبراطور النمسا . بيد أن هذا الزواج — على الرغم من توقع جوزفين له — كان سببا فى القضاء على ما بقى فيها من ذَمَاء . ولم يدخر نابليون وسعا فى العمل على راحة جوزفين بعد الانفصال منها . فأنه كان دائم التفكير فيها ولم يترك سبيلا لتخفيف آلامها إلا سلكه . وعلى الرغم من غيرة زوجته



مهد « ملك روما »
ابن نابليون من مارى لويز

ملك روما
(النسر الصغير)

الجديدة من جوزفين غيرة جنونية فأنه لم يكن يبخل على زوجته الأولى بزيارات مختلسة يزيل بها وحشة نفسها ويدخل بها بصيصا من النور على قلبها المظلم . بل لقد تجاوز فى ذلك كل حد حينما طلبت إليه جوزفين أن ترى مولوده الذى وضعته له مارى لويز . فاحتال على ذلك رغم احتياط زوجته ومبالغتها فى التحرز من أن يقع هذا اللقاء.

أما حب جوزفين لنابليون فقد تجلى بصورة رائعة بعد هذا الانفصال وما تزال رسائلها إليه بعد الطلاق آية من الآيات التى تقع فى قرارة القلب لفرط ما أودع فيها من روح الوفاء والأخلاص . ولعل الذى أذكى كل هذا الحب فى نفسها ورفعه إلى تلك المنزلة القدسية البالغة ذلك الزواج الجديد الذى اقدم عليه نابليون . فأنه أثار عواطفها وهز أوتار قلبها .

وعلى قدرغيرة مارى لويز من جوزفين كان ميل جوزفين إليها والى ابنها « ملك روما » فأن الأولى لم تكن تفهم صلة زوجها بجوزفين بعد الطلاق إلا على أنها عنوان بقاء حبه لها واستمرار تعلقه بها . بينما كانت ترى الثانية فى بقاء هذه الصلة دليلا على أن هذا الزواج الثانى لم يكن إلا زواج ضرورة أوجبته الظروف السياسية ولم تكن مارى نفسها فى نظر

جوزفين إلا أداة لخدمة صالح فرنسا السياسى قبل أن تكون سكنا لنابليون وموضعا لعطفه أو حبه وبلغ من رعاية نابليون لجوزفين أنه عندما اقترب يوم زفافه إلى عروسه الجديدة . أشفق عليها أن تبقى فى قصر المالميزون فتشهد من مظاهر الابتهاج والسرور ما قد يؤلم نفسها ويجرح عواطفها فأشار عليها بالانتقال إلى قصر آخر بعيد عن باريس . فقدرت له جوزفين هذه العناية ونزلت على مشورته .

على أن جوزفين كانت فى الواقع تخفى اكثر مما تبدى تساميا منها أن يشمت بها الشامتون . وكانت تتكلف ذلك حتى لا تُنَغِّصَ بأحزانها هناء نابليون . وظلت هذه المعركة النفسية الدفينة تحتدم فى قلبها تحطم أركانه وتقوض بنيانه اكثر من أربعة أعوام وهى لا تجد ما تمسك به نفسها أن تفيض إلاّ ما يحبوها به نابليون من العطف ومظاهر الوفاء . فلما قلب الدهر لبطلها ظهر المجن . وأدبرت عنه الدنيا بعد إقبالها . وشاهدته يعتزل الملك ويودعها الوداع الأخير قبل رحيله إلى جزيرة إلبا لم يبق لها من الأمل ما تحيا به . وانطفأ سراج حياتها بعد سفر نابليون بنحو أربعة أسابيع .

وقد كان موتها نذيراً بأفول نجم نابليون كما كان زواجها

به فاتحة لأيام سعادته ومجده . فان نابليون وان كان قد أفلح في الفرار من إلبا بعد ذلك غير أنه لم يلبث بعد عودته منها الا ريثما يقضى عليه الحلفاء القضاء الأخير فى ووترلو ، فاعتزل الملك للمرة الثانيـة وعول على الرحيل عن فرنسا وهو يعلم أن لاعودة له إليها بعد هذه المرة . وكأنما محيت من ذهنه كل ذكريات ملكه ولم يبق فيه إلا شبح جوزفين . فوقف وسط قصره يتلفت حوله ويقول :

— « كل شيء هنا يهيج فى نفسى آلام الذكرى . إن هذه الدار كانت أول ما ملكت . وقد اقتنيتها بكدي وجهدى . لقد كانت دار السعادة والهناء ! أين التى كانت نور هذا المكان وجوهرته . . . يا أسفا . . . لقد غلبنى الدهر عليها . وقتلتها المصائب التى نزلت بى ! »

وبقى خيال جوزفين ماثلا أمام نابليون طول مدة نفية الطويلة فى جزيرة سنت هيلانة (١٨١٥ — ١٨٢١) حتى أنه لما اشتد عليه مرضه الأخير كثرت هواجسه عنها وتكرر ذكره لها . وقام ذات يوم قبيل وفاته بقليل ينادى رفيقه مونثلون « Comte Montholon » وهو فى سكرات الموت قائلا له وهو يكاد يطير من الغبطة والسرور :

« لقد رأيت جوزفين يامونثلون ، فعانقتني ثم اختفت فجأة حين أردت أن أعانقها — كانت جالسة على ذلك المقعد وكأني رأيتها أمس مساء لم تتغير ، بل كانت كما هي شديدة الميل الى . قالت لي أنا على وشك أن نجتمع ويرى بعضنا بعضاً ثم لن نفترق بعد ذلك — ولقد أكدت لي ذلك — أفلم ترها أنت يامونثلون ؟ ! »

الباب الخامس : عوامل سقوط نابليون

الفصل الأول — النظام القارى .

« الثانى — نهضة بروسيا .

« الثالث — « القرحة الاسبانية » .

« الرابع — انقلاب القيصر وأسبابه .

الباب الخامس

عوامل سقوط نابليون

الفصل الأول

النظام القارى

مهما تشعب تاريخ نابليون وتنوعت حوادثه فهو مايزال قصة جهاد واحد طويل أساسه منازعة انجلترا والنمسا له فى شرعية سلطته على فرنسا .

فنابليون يقول انه لم يعتد على أحد ولم يغتصب السلطة من أحد ولكنها الظروف والحوادث دفعته دفعاً الى ذلك المركز الذى يشغله وأنه قبله نزولا على إرادة الأمة الفرنسية التى دفعته اليه .

وانجلترا والنمسا تقولان أنهما لا تستطيعان قبول الحالة التى أوجدتها فرنسا الثائرة ولا تعترفان بالنظم التى أحدثتها فى داخل حدودها وعملت على نشرها فى أوربا إضرارا

بمصالح الحكومات القائمة فيها . وأن مبدأ التوازن الدولى يتعارض مع فتوح الثورة الفرنسية وخطة التوسع التى يسير عليها نابليون .

ولم يشأ أحد الفريقين أن يسلم بوجهة نظر الآخر . فلا نابليون يقبل النزول عن شبر أرض واحد حصل عليه بحد سيفه وبحق الفتح ولا خصومه يقبلون حكم هذا السيف فيهم كلما شهره عليهم فكانوا لا يلبثون بعد الهزيمة إلا ريثما يتأهبون لقتال جديد — وهكذا تسلسلت بينهم تلك الحروب المهلكة التى راح ضحيتها مئات الألوف .

ومن البديهى الذى لا نزاع فيه أن نابليون كان كارها لمعظم تلك الحروب غير راغب فيها . وكانت كل أحلامه أن يعيش فى فرنسا عيشة سلام وهدوء منصرفا الى تنفيذ إصلاحاته التى بدت ثمراتها الأولى فى عهد القنصلية ولاغرو أن تكون هذه ميوله فان مركزه كان كمركز لاعب الورق الذى ربح وعمرت جيوبه فهو ضنين بأن ينغمس فى اللعب من جديد لكى يبقى له ما حصل عليه . ولكن هذا الحلم الجميل لم يكن ليتحقق له على كل حال والنمسا عن يمينه وانجلترا عن شماله ودويلات أوربا الأخرى محيطة بأمبراطوريته .

وكلها واقعة تحت تأثير الدعاية البريطانية الدائبة فى وصمه بصفات الظلم والاستبداد . والوحشية . والبعد عن الانسانية. إلى آخر تلك السلسلة التى لم يكن لها عندهم من آخر .

وخيل لنابليون يوما من الأيام أنه وفق أخيرا إلى حل لهذه المشكلة المعقدة ، وذلك حينما فكر فى الزواج النمسوى ليكسب به النمسا ، وفى النظام القارى ليقضى به على انجلترا

وقد كانت كل الدلائل بعد زواجه بمارى لويز تبشر بنجاح فكرته فان النمسا أصبحت حقيقة من بين حلفائه وأنصاره فى حين ان انجلترا بدأت تحس وطأة النظام القارى على مصالحها بشكل جدى أليم . على أن نابليون فى الواقع وهو يحاول تغطية مركزه فى الغرب بهذه الوسائل قد كشف نفسه للروسيا فى الشرق ، فقد كان زواجه من أسرة هابسبرج النمسوية طعنة أصابت كرامة بيت رومانوف الروسى الذي كان ما يزال سفراء نابليون يتفاوضون معه فى خطبة أخت القيصر له ، كما أن نظامه القارى الذى فرضه على أوربا ليقضى به على تجارة انجلترا كان قاضيا على كثير من دول أوربا وفى مقدمتها الروسيا قبل أن يكون قاضيا على الانجليز أنفسهم وذلك بسبب ما أحدثه فى تلك الدول من الضيق الاقتصادى

وارتفاع أسعار الحاجيات .

ولقد بدأت تفتر بسبب هذه العوامل تلك المودة التي نشأت بين القيصر ونابليون فى «تلست» واشتدت أواصرها فى « إرفرت » وانتهى الأمر بين الحليفتين بحرب طاحنة كانت بداية النهاية فى تاريخ نابليون .

على أن عاملا سياسياً جديداً كان قد ظهر فى أوربا قبل ذلك وسرى فى أطراف الأمبراطورية الفرنسية . فألغم بنيانها على غفلة من نابليون . وما لبث أن نسفها نسفاً وأتى عليها من القواعد . ولم يكن ذلك العامل فى الواقع إلا أثراً من آثار النظام القارى أيضاً . ونعنى به ذلك « الروح القومى» الذى بدأ فى اسبانيا منذ فكر نابليون فى ضمها إلى أمبراطوريته ليكفل بها ميدانا جديدا يساعده على إحكام تنفيذ نظامه القارى . فأذا به يفتح فيها على نفسه ميدانا جديدا تتلقى جيوشه فوق ساحته أول نكبة خدشت سمعته . وأطمعت فيه سائر دول أوربا . وأغرتها بالسير على مثال اسبانيا لتبلغ منه ومن جنوده مثل ما بلغه الاسبانيون .

فأن شئت أن ترجع بعوامل سقوط نابليون إلى أصلها . فأنك لن تجد لها دائما إلا أصلا واحدا وهو ذلك النظام

القارى المشئوم : فهو الذى دفعه إلى التدخل فى شئون اسبانيا فكان سببا فى إثارة الروح القومى فيها . وهو الذى كان سببا فى الفتور الذى وقع بينه وبين القيصر وانتهى بالحملة الروسية . وهو الذى جمع حوله فى آخر الأمر دول أوربا كلها فى حرب عامة كان لا بد لها أن تنتهى بما انتهت به من إسقاطه ونفيه .

الفصل الثانى

نهضة بروسيا

كانت بروسيا فى مقدمة دول أوربا التى انتفعت بالثورة الاسبانية واتخذتها رائدا لهـــا فى الاستعداد لقتال نابليون والتخلص من نفوذه الذى فرضه عليها منذ معاهدة تلست . وقد تهيأ لها ذلك بفضل جماعة من كبار المصلحين أمثال ستاين Stein وشارنهورست Scharnhorst وغيرهما ممن كانوا أساس عظمتها وسر نجاحها فى نهضتها .

فأما ستاين فكان رئيسا للوزارة البروسية وقد تأثر بروح الملكة لويزا فى حماستها ووطنيتها ولم يفته ما كان يشكوه المجتمع البروسى من المساوىء الأقطاعية حيث يتمتع الأشراف بشتى الامتيازات . وينوء الفلاحون تحت مختلف الأعباء والتكاليف . فرأى أن كل عمل لا يقوم أساسه على إصلاح هذا المجتمع الضعيف انما هو عمل مقضى عليه بالفشل حتما . فلم يتردد فى طرح فكرة المقاومة العسكرية جانبا ريثما

يتيسر له النهوض بهـــذا المجتمع أولا واعداد الأمة نفسها للوقوف فى وجه نابليون .

وكان الشعب البروسى حقيقة وراء شعوب أوربا كلها فى نظمه الاجتماعية فأن الفلاحين فيه وهم جمهور الأمة كانوا ما يزالون تبعا للأشراف فى معيشتهم وكان هؤلاء يتوارثونهم فى خدمة مصالحهم وفلاحة أرضهم أبناء عن آباء وكان الفلاح السعيد الذى قدر له أن يمتلك شيئا من الأرض محروما من حق التصرف فى ملكه فبدأ ستاين سلسلة إصلاحاته بأن استصدر فى ٩ اكتوبر سنة ١٨٠٧ مرسوما ملكيا بألغاء تلك العلاقة العتيقة الوراثية التى كانت بين الفلاحين والأشراف وتحرير الملكية العقارية من جميع القيود القانونية التى كانت تحرم ملتزمها من حرية التصرف فيها .

وكان النظام الأدارى فى بروسيا نظاما عتيقا يجعل السلطة فى يد المديرين الذين يتصرفون فى أقاليمهم كيف يشاءون . فاستصدر ستاين فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٠٨ قانونا لتنظيم الأدارة وتركيز سلطانها فى يد هيئة مركزية تحل محل وزراء المقاطعات . ثم شرع يفكر فى إنشاء مجالس للمديريات لتعويد البلاد على الحكم الذاتى واشتراك السواد الاعظم من الشعب

فى الحياة العامة لعلمه بأن الشعب وحده سناد كل حركة قوية يراد بها الوصول إلى تحريره واسعاده .

أما الجيش فقد عهد ستاين أمر إصلاحه وتقويته إلى زميله شارنهورست وحدث أن أنتصر الاسبان فى ذلك الوقت على جيوش نابليون . فود ستاين لو انتهز هذه الفرصة ليخلع عن بلاده نير (الطاغية) . ولكن عيون نابليون وارصاده ما لبثوا أن وقفوا على نواياه وضبطوا أحد الخطابات السرية وأطلعوا الامبراطور عليه . فوقع ذلك من نفسه أسوأ وقع وأصر على عزل ستاين من الوزارة البروسية فورا . فاعتزل الرجل مركزه وسافر إلى النمسا ثم رحل عنها إلى الروسيا حيث دخل فى خدمة القيصر . بيد أن نابليون لم يكتف بذلك بل فرض على البروسيين ضريبة فادحة مقدارها ١٤٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنكا وطلب أن لا يزيد جيشهم العامل على ٤٢ ألفا . ولكن الشرارة التى أوقدها ستاين كانت قد دبت فى روح الشعب وسرت فى عروقه فظلت تتزايد وتنمو فى الخفاء بينما كان هو نفسه فى بلاط القيصر يحاول إيقاد نار جديدة تلتهم ملك نابليون . وكانت جهوده فى هذا المضمار من بين الأسباب التى باعدت بين القيصر ونابليون

وأدت الى وقوع الحرب الروسية الفرنسية التى كانت نذير انهيار الأمبراطورية .

وكان الجيش البروسى يتألف نصفه من الجنود المرتزقة الذين تعوزهم تلك الروح المعنوية التى كانت سببا فى انتصار جيوش بجيوش الثورة الفرنسية على الرغم من سوء نظامها وضعف سلاحها . وقد تنبه شارنهورست إلى هذه الحقيقة فعمل على تسليح أبنـــاء الأمة نفسها عوضا عن استئجار الأجانب للدفاع عنها . وقد كفل هذا الرجل لاسمه الخلود فى عالم البطولة بتلك الخطة التى انتهجها . واحتال بها على تكوين جيش ضخم على الرغم من معارضة مليكه وتحذير نابليون . وبيان ذلك أنه فى الوقت الذى تعهد فيه بأن لا يزيد الجيش البروسى على ٤٢,٠٠٠ كان يدمج فى كل فرقة عاملة نفراً معينا من الأقليم التابعة له تلك الفرقة ليقضوا شهرا فى خدمة الفرقة يتعلمون سرا فى خلاله اهم التمرينات العسكرية . فأذا انتهت مدتهم حل محلهم غيرهم فى الشهر التالى وهكذا . فكانت الفرقة الواحدة التى لا يزيد عددها الرسمى على ٥٥٠ جندى تحت السلاح تستطيع بهذا النظـام أن تضم إلى صفوفها فى بحر ثلاثة أعوام مالا يقل عن ٢٥٠٠ جندى جديد ممن تلقوا

مبادىء التعليم العسكرى خلسة بين رجالها .

وكان هذا العدد الأضافى المستتر هو الذى مكن بروسيا في بداية سنة ١٨١٣ من مفاجأة نابليون بجيش لا يقل عن ٣٥٠,٠٠٠ مقاتل . وكان هذا الجيش بدوره عاملا من أهم العوامل التى أدت إلى سقوط نابليون .

الفصل الثالث

القرحة الاسبانية

كانت الثورة الاسبانية الحلقة الاولى من سلسلة طويلة من الحركات القومية التى قضت أخر الامر على الامبراطورية النابليونية القضاء الاخير . وقد رأينا فى الفصل السابق كيف أن بروسيا كانت أول دول أوربا التى انتفعت بالمثل الاسبانى . ولكن اسبانيا نفسها لم تكن قد أتمت دورها بعد بألقاء هذا المثل على الدول الأوربية فأنها ظلت فى صراع متواصل مع جيوش نابليون ولم تنسحب من ميدان الجهاد لحظة واحدة حتى فى سنتى ١٨١٠ و ١٨١١ اللتين كانت تتمتع فيهما كافة دول أوربا بسلم نسبي لا عهد لهم بمثلة منذ ظهر بينهم نابليون وانبرت انجلترا لهدمه .

وفى الواقع لم يكن أمام نابليون بعد موقعة واجرام (سنة ١٨٠٩) ما يشغل باله الا حرب اسبانيا . وكان الميدان الأوربى قد خلا من جميع المتاعب الا من هذه « القرحة

الاسبانية » التى ما فتئت تنخر فى ظهره وتستنفد موارده .
وقد تضافرت عدة عناصر قوية لاذكاء حماسة الاسبانيين وتقوية سواعدهم فان القسس الذين لم ينسوا ما فعله نابليون بالبابا كان لهم أقوى نفوذ فى نفسية الشعب الاسبانى الكاثوليكى . فلم يدخروا وسعاً فى نشر الدعوة بين أفراده ضد نابليون بينما كان الانجليز مستميتين فى مناصرة الاسبانيين وامدادهم بالمال والسلاح والرجال لعلمهم بأن الميدان الاسبانى هو الميدان الأوربى الوحيد الذى بقى لهم لقتال نابليون بعد انسحاب النمسا من الحرب .

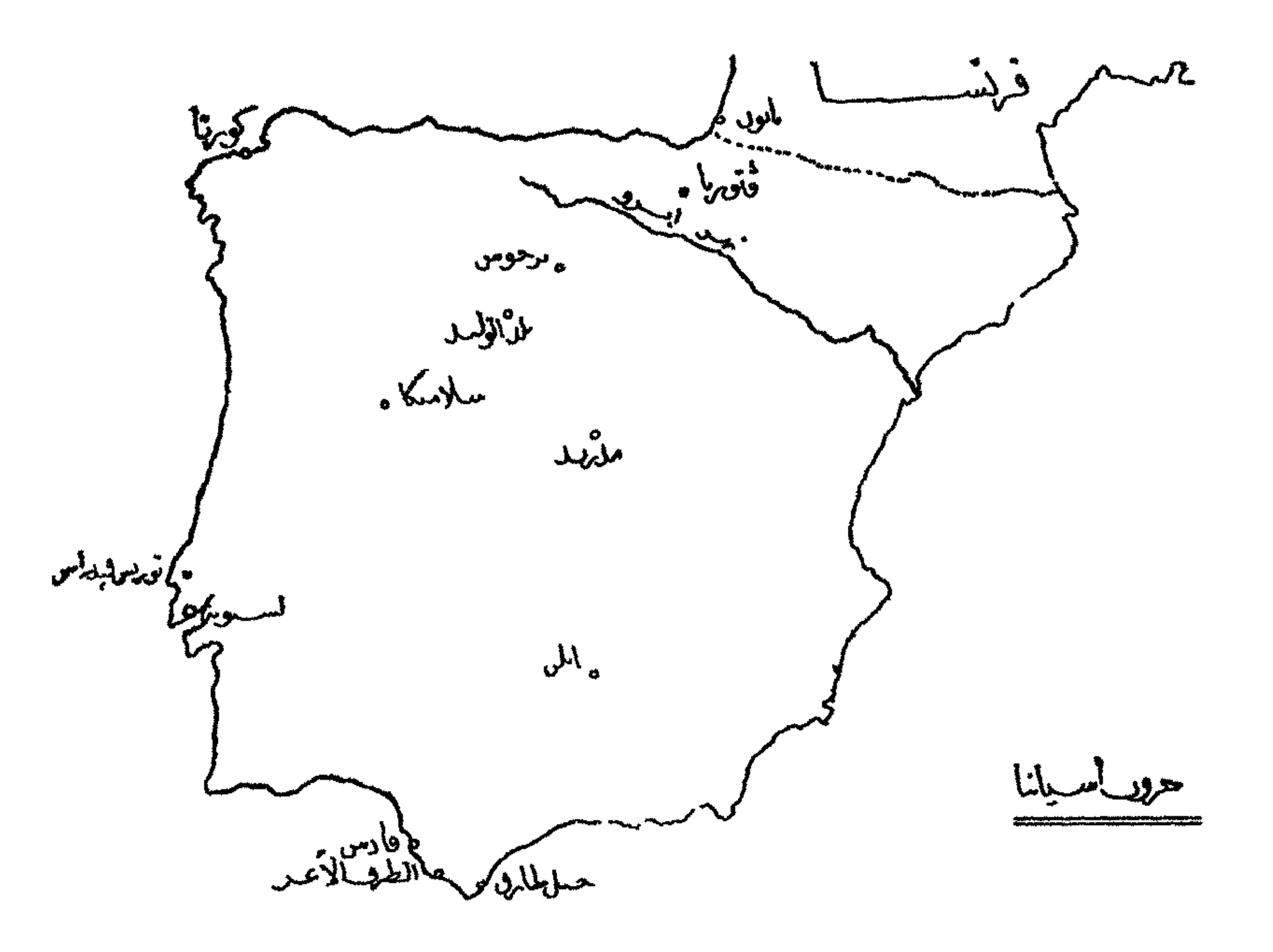
وكان السر ارثر ولسلى قائد الجيوش الانجليزية مرابطاً فى البرتغال وقد اتخذها كقاعدة حربية له يغير منها على جيوش نابليون فى اسبانيا من حين إلى اخر حتى لا تثبت لها فى تلك البلاد قدم ولا ترتفع لها بين أهلها كلمة . بينما كان الوطنيون من أهل اسبانيا قد نجحوا فى إقامة حكومة مؤقتة فى الجنوب عند « قادس » يتحدون بقيامها حكومة يوسف بونابرت .

فى سنة ١٩٠٨ سار جيشان فرنسيان أحدهما تحت قيادة (سولت) وكانت مهمته طرد الانجليز من البرتغال والآخر

تحت قيادة (فيكتور) وكانت غايته القضاء على الحكومة المؤقتة ور حالها فى الجنوب . لكن ولسلى تمكن من رد سولت ثم توجه نحو فيكتور فالتقى به فى تالافيرا وألحق بقوته خسائر فادحة وكان يستطيع أن يتابع انتصاراته لو أن الاسبانيين خفوا لمعونته وضموا جهودهم لجهوده . ولكنهم عجزوا عن تقديم أية مساعدة له . فاضطر إلى الارتداد مرة أخرى الى وكره فى البرتغال .

وفى سنة ١٨١٠ أخذ نابليون يعير هذا الميدان الاسبانى شيئاً من اهتمامه فبعث إليه بالقائد (ماسينا) ليدخل البرتغال و« يلقى بالحامية الانجليزية فى البحر » . ووجه سولت نحو ثوار الجنوب لعله ينجح فى أداء المهمة التى عجز عنها فيكتور فى العام الماضى .

وكانت الأخبار الأولى التى وردت عن هذه الحملة (فى سنة ١٨١١) مشجعة لنابليون فان ماسينا دخل على ولسلى فى البرتغال والتحم به فى معركة كان النصر فيها حليف صفوفه . لكنه لم يتمكن من تموين جيشه فى البرتغال . لذلك ارتد الى اسبانيا فتبعه ولسلى إليها وهزمه بالقرب من «كيوداد رودريجو» كذلك تقدم نحو قادس وهزم سولت فى بدايوز Badajoz



فرنسا
بايون
فاتوريا
نهر ابرو
كورونا
برجوس
بلد الوليد
سلامنكا
مدريد
توريس فيدراس
قادس
الطرف الأغر
جبل طارق
حروب إسبانيا

وعندذلك رأى نابليون أن يوحد القيادة الفرنسيه فجعل (مارمونت Marmont) قائداً عاماً للجيوش المحاربة فى اسبانيا والبرتغال . وبذلك قوى مركز الفرنسيين فارتد ولسلى أمامهم ملتجئاً إلى خط دفاعه الذى أقامه فى البرتغال .

وفى سنة ١٨١٢ خرج ولسلى من مكمنه مبكراً وهو ينوى تشتيت القوات الفرنسية فبدأ بوضع يده على أهم معاقل البرتغال الشمالية ثم أسرع نحو الجنوب فاستولى على حصونها الجنوبية ثم انقض على مارمونت فى مدينة (سلامنكا) فأوقع الهزيمة فى صفوفه . وزحف بعد ذلك على مدريد ففر منها يوسف مرة أخرى وواصل ولسلى تقدمه شمالا حتى بلغ مدينة « Burgos » برجوس . ولكن الفرنسيين صمدوا له هناك ثم ما لبثوا أن ردوه على أعقابه وانتهت حملة ذلك العام بما كانت تنتهى به حملة كل عام . وهو ارتداد ولسلى إلى خطوط دفاعه فى البرتغال واستعداد الفريقين للقاء العام التالى .

وأنت ترى من هذا السجال كيف كانت هذه الحروب الاسبانية مثاراً للشغب وضيعة للأموال والرجال فى الوقت الذى كان نابليون فيه أحوج ما يكون الى الهدوء والتفرغ لتلك المشاكل الجديدة التى كان يخلقها له فى أوربا البلاط القيصرى على نحو ما سنفصله فى الصفحات التالية .

الفصل الرابع

نكول القيصر واسبابه

تكلمنا فى فصل سابق عن القيصر . وألمنا إلمامة قصيرة بنفسيته وعقليته وقلنا إنه اكتسب قلب نابليون بصفانه . وأنه كان موضع ثقته التامة منذ التقى به ولكن الأيام دارت دورتها بين العاهلين العظيمين ففرقت من ميولهما ما اتفق وشعبت من مصالحهما ما ائتلف . وأصبح القيصر يرى فى بعض تصرفات نابليون ما لا يرتاح هو إليه ولا يمكن أن يوافق عليه .

تحريض ستاين

فمن ذلك مثلا تشدد نابليون فى معاملة بروسيا بناء على ما اكتشفه من تآمر حكومتها عليه أثناء غيابه فى اسبانيا فان ذلك لم يكن يرضاه القيصر . أو قل بعبارة أخرى أن القيصر رجا نابليون أن يخفف من حدته على بروسيا حليفته القديمة

فلم يستطع نابليون اجابة طلبه لاعتبارات سياسية هامة لم يكن يستطيع معها أن يضحى بمصالح فرنسا العامة فى سبيل ارضاء ميول القيصر الخاصة

ضم غاليسيا الى وارسو

ومن ذلك أيضاً تقرير نابليون ضم غاليسيا الى وارسو . فان القيصر رأى فى هذا العمل تشجيعاً للآمال القومية فى بولندا واحياء لتلك المملكة القديمة التى دأبت سياسة دولته بالاشتراك مع النمسا وبروسيا فى القضاء عليها منذ نحو نصف قرن — ولقد طلب القيصر رسمياً هذه المرة الى نابليون أن يتعهد بعدم احياء هذه المملكة . وكان طبيعياً أن يرفض نابليون مثل هذا الطلب الذى لا يتفق مع مكانته فى أوربا بوصف كونه بطل الديمقراطية وزعيم شعوبها وعدو الارستقراطية وغريم حكوماتها

خذلان القيصر فى سياسته الشرقية

ولقد عاد القيصر بعد ذلك يطالب الى نابليون أن يعترف له بحق الاستيلاء على مصبات نهر الطونة . وكان طبيعيا أيضاً

أن لا يتورط نابليون فى مثل هـذا الاعتراف الذى يجلب عليه على الأقل غضب تركيا . وكان القيصر كذلك يطمح فى الاستيلاء على الاستانة نفسها ولكنه رأى من نابليون ما جعله يعتقد أنه سوف يعترضه إذا هو هم ببسط يده نحوها فأضافها الى سجل أحقاده .

مسألة الزواج

وكان من وراء القيصر أمه وحزبها الرجعى الارستقراطى الذى كان يعيب على سليل أسرة رومانوف أن يمد يده لمصاهرة زعيم فرنسا — بلد الثورة التى حررت الفلاحين وهدمت الامتيازات وخرجت بالعبيد عن طاعة مواليهم — وقد استغل هذا الحزب توجه نابليون الى بلاط النمسا لخطبة احدى اميراته بعد أن قصد سفراؤه بلاط القيصر فى ذلك . واعتبروا تصرفه هذا ماسا بكرامة الروسيا . فأوغروا صدر القيصر على صديقه القديم .

النظام القارى

وزاد الموقف حرجا ما جره النظام القارى على الروسيا من النتائج الوخيمة . فأنه فضلا عما سببه فى داخلها من المتاعب

وغلاء المعيشة كان سببا فى أن يستولى نابليون على بعض ولايات ألمانيا الشمالية ليضع يده على شواطئها ومن بينها مقاطعة أولدنبرج . وكان حاكم هذه المقاطعة صهر القيصر فاعتبر اسكندر هذا العمل اساءة موجهة الى شخصه بالذات .

الدعاية البريطانية

ولم تكن انجلترا غافلة عن كل هذه العوامل التى أضعفت ما بين الحليفين من صلات الولاء والصداقة شيئا فشيئا . بل أنها كانت تعمل فى الخفاء على أذكاء نار الخلاف والتهويل فى تصوير أعمال نابليون الى أن تيقنت من سريان دعايتها الخطرة فى عقل القيصر وعند ذلك برز له رجالها وعمالها يعرضون عليه كل ما فى خزائن بلاط سانت جيمس من المال وكل ما تملكه بريطانيا من الأساطيل والجيوش ليقوم القيصر بواجبه الدولى فى الاشتراك مع بقية أوربا للقضاء على نابليون وهكذا وضعت بريطانيا الدستورية يدها فى يد روسيا القيصرية لتتمكن من هدم « امبراطور الجمهورية الفرنسية »

ولقد كانت انجلترا موفقة غاية التوفيق فى سعيها فانها وهى تكسب حليفا جديدا تضمه الى عصبتها كانت فى الوقت

نفسه ترمى إلى تخفيف الضغط العنيف الذى بدأت تحسه جيوش اسبانيا وذلك بفتح ميدان آخر فى الشمال تتوزع بينه وبين ذلك الميدان الجنوبى جهود نابليون .

أما نابليون فقد أصبح يرى نفسه على أبواب حرب واسعة الفم توشك أن تلتهم ملكه ولم يكن يرغب فى المسير نحوها خطوة واحدة وهو يعلم أنه ان فعل فانما يولى ظهره لأسبانيا والبرتغال ودول أوربا الوسطى التى قد لا تتردد تحت تأثير الدعاية البريطانية أن تقوم فتقطع عليه خط رجعته الى بلاده . ولذلك آثر أن يتقدم إلى انجلترا نفسها فيعرض عليها الصلح من جديد لعلمه أنها سبب كل هذه المتاعب . فاقترح أن تعود أسرة براجانزا الى البرتغال . يسحب جنوده من اسبانيا . ويتخلى عنها هى وايطاليا .

وعلى الرغم من أن هذه المقترحات تنم عن نية نابليون فى العدول عن تنفيذ النظام القارى الا أن انجلترا لم تكن بسبيل التفاهم مع انسان أجمعت رأيها على تخصيص أهلها ومواردها لهدمه وإخلاء الطريق جملة واحدة من منافسته ولذلك رفضت مقترحاته فلم يبق أمام نابليون غير ذلك المركب الخشن — مركب الرماح والاسنة . بعد ان فشل سعيه فى الوصول الى التفاهم بكافة الطرق السلمية .

الباب السادس : التآلف الدولى السادس

الفصل الأول : الحرب الروسية
» الثانى : بروسيا تنتقض على نابليون
» الثالث : لوتزن وباوتزن
» الرابع : الهدنة المشئومة
» الخامس : حرب الأمم
» السادس : انهيار البناء
» السابع : الحلفاء فى باريس
» الثامن : النزول عن العرش
» التاسع : وداع فونتنيلو

الباب السادس

التحالف الدولى السادس

الفصل الأول

الحرب الروسية

رفضت انجلترا الصلح الذى عرضه عليها نابليون . فلم تبق إلا الحرب ـــ الحرب الطاحنة الحاسمة التى تنبأ لها القيصر بأنها ستذهب بتاج أحد الغريمين ولم يبق أمام نابليون إلا أن يدعو اليه حلفاؤه لينصروه فى تلك الظروف العصيبة التى هبت فيها ريح الأرستقراطية الأقطاعية تهدد الاصلاح والمصلحين وتنذر بهدم الأنظمة الشعبية الحديثة التى نشرها نابليون فى وسط أوربا . فاذا كان التخصيص قد غلب على هذه الحرب فعرفت فى التاريخ باسم : « الحرب الروسية الفرنسية » فأن حقيقتها كانت غير ذلك . وكانت فى الواقع جديرة باسم آخر أوسع وأعم من ذلك . إذ لم يكن الصراع فيها قائما بين

الجيوش الروسية والجيوش الفرنسية . ولكنه كان ناشبا بين الارستقراطية والديمقراطية . بين الملوك والشعوب . بين الاستبداد والحرية . بين القيصرية الروسية تناصرها الارستقراطية البريطانية وبين الشعب الفرنسى تؤيده شعوب أوربا الوسطى — ايطاليا وألمانيا وولايات الرين وپولندا .

استعداد نابليون

وكان المتفق عليه أن يتم اللقاء بين نابليون وحلفائه فى مدينة درسدن عاصمة سكسونيا . فغادر فرنسافى التاسع عشر من شهر مايو سنة ١٨١٢ تصحبه الأمبراطورة مارى لويز . وبدأ يسير موكبه الحافل الفخم بين قرع أجراس الكنائس وعزف الموسيقات . وفى وسط التصفيق والهتاف وتحت الأعلام وأقواس النصر الى أن بلغ درسدن حيث كان فى استقباله امبراطور النمسا وامبراطورتها وملك بروسيا وملوك ساكسونى ونابولى وبافاريا وورتمبرج وغيرهم . . .

وأقام نابليون فى درسدن نحو أسبوعين أتم فيها أهبته للحرب وحشد فى خلالها من الجند والسلاح والذخيرة والخيول والمئونة ما لم يسبق لأوربا أن شهدت مثله . ولكنه

على الرغم من كل ذلك لم ير أن يبدأ عمله بالزحف على أعدائه
وا كتساحهم بتلك القوى الهائلة التى اجتمعت له . وفضل أن
يبدأ كعادته بعرض الصلح على أعدائه . فبعث فى هذه المرة
إلى القيصر رسولا هو الكونت ناربون Narbonne ليفاوضه
فيما قد يؤدى إلى حقن الدماء التى توشك أن تسيل . وتحقيق
السلام الذى يوشك أن يتصدع . ولكن الرسول حاول عبثا
أن يظفر بمقابلة القيصر أو أحد من وزرائه . فأنهم أصروا
جميعا على عدم لقائه . فلما علم بذلك نابليون لم يملك أن صاح :

« لقد تنمر الهر . واستنسر البغاث ! وهكذا يسحب
القدر هؤلاء القوم على وجوههم لتحق كلمته عليهم » .

ثم أصدر أوامره للجيش أن تزحف وحداته على نهر
نيمن Niemen حيث حشد القيصر جيوشه . ثم أذاع النشرة
التالية على جنوده :

أيها الجنود :

نحن نبدأ اليوم الحرب البولندية الثانية . أما الحرب
الأولى فقد انتهت عند فريدلند وفى تلست . هناك اقسمت
الروسيا أن تحالف فرنسا محالفة دائمة وأن تحارب انجلترا .
وها هى اليوم تحنث فى قسمها علنا . وكأنى بالقدر يسوقها إلى



ماريشالات نابليون

حتفها . فأن خاتمتها قد آذنت بالحلول . فهل حسبت أن الوهن قد تسرب إلينا أم حسبت أننا لم نعد بعد أبطال أوسترلنز ؟ أنها تضعنا الآن بين منزلتين . فأما قبول العار وإما خوض ميدان القتال ! ولن يشك أحد لحظة واحدة فيما سنختار . فألى الأمام إذن أيها الشجعان ولنعبر حدود هذه الدولة المتغطرسة ونقضى عليها فى عقر دارها . »

وفى التاسع والعشرين من شهر مايو خرج نابليون من درسدن ثم ودع زوجته وأسرع الى مينا دانتزج . بينما كانت وحدات « الجيش الأعظم » تتحرك فى كل مكان لتلتقى فى أرض الروسيا حسبما رسم لها نابليون . وكان تعداد ذلك الجيش ٤٢٠,٠٠٠ نفس . وهو عدد لا عهد لأوربا بمثله من قبل . وكان مقسما إلى ١٣ قسم على كل واحد منها ضابط من ضباط نابليون العظام الذين اشتهروا بحسن بلائهم فى حروبه السابقة . فكان بينهم دافوت . وناى . وأوجين . وسان سير . وأوجيرو . ومورا . وكان يرافق هذا الجيش حرس نابليون الخاص وهو قوة فخمة منتقاة قوامها ٧٥,٠٠٠ من أقوى أبناء فرنسا وأحسنهم نظاما . وكانت هذه الحملة مزودة بنحو ١٨٧,٠٠٠ حصان و ١٣٦٢ مدفع وكلها أرقام هائلة يسجلها

التاريخ للمرة الأولى فى صفحات الحروب الأوربية .

ولك أن تتصور بعد ذلك ما ينبغى من الجهود الجبارة لتموين مثل هذا الجيش العظيم فى بلاد معادية . وفى عصر لم يعرف وسائل النقل الحديثة من طيارات وسيارات . بل لم يكن يعرف حتى السكة الحديدية . ولم يكن من الميسور أن تسلك كل هذه الجموع طريقا واحدا . وإلا حل البلاء بالمقدمة قبل أن تنتبه المؤخرة لما حدث . فكان من الضرورى أن تسير جموعها زرافات فى جبهة واحدة ولكن على مسافات متفاوتة تفصل بعضها عن بعض . فلما بلغوا نهر نيمن ألقى نابليون عليه ثلاثة جسور فى جهات مختلفة . وظلت جموع « الجيش الأعظم » تتدفق فوقها من جانب إلى جانب نحو ٤٨ ساعة متواصلة . ومن ثم سار الجيش إلى « فلنا — Vilna — فبلغها فى ٢٨ يونيه سنة ١٨١٢ .وهناك قضى نابليون نحو ثلاثة أسابيع يجمع شتات جيشه . ويهىء له ما هو فى حاجة إليه من المؤن لا سيما فى ذلك الفصل الذى يقل فيه العلف . بحسبك أن تعلم أنه لم ينتصف شهر يوليو حتى كان نابليون قد خسر ١٠,٠٠٠ حصان ماتت كلها جوعا . بينما اكتظت مستشفياته بنحو ٢٥ ألف جندى سقطوا كلهم إعياء ولما يشتبك

بالعدو فى معركة واحدة — بحسبك أن تعلم هذا لتدرك فداحة العبء الذى كان يحمله فى تسيير هذه الحملة على الروسيين .

أما القيصر فأنه رأى أن لا مجال لمواجهة نابلبون وهو على رأس هذه القوة الهائلة . فأمر أن تنسحب جنوده أمامه على أن تدمر فى طريقها كل ما يستطيع أن ينتفع به الفرنسيون . فكانت تهدم المنازل وتخرب القرى وتحرق الغلال وتحمل الأهالى على هجر مساكنهم ومزارعهم حتى يسير الجيش الفرنسى فى بلقع قفر لتفعل فيه الطبيعة مالم يستطع فعله القيصر ورجاله .

على أن شيئا من ذلك لم يكن ليقف فى طريق نابليون فأنه واصل زحفه بدقة يحار فيها المفكرون وبلغ من نظام جيوشه أنها بعد أن عبرت نهر نيمن وتفرقت جموعها سلك كل فريق منها طريقا يختلف عن طريق الآخر طولا ووعورة . وبدأت كل جماعة زحفها فى موعد يختلف عن موعد الأخرى تبكيرا وتأخيرا . ومع ذلك اجتمعت كل هذه الوحدات على نهر « الدوينا » حيث قدر لها نابليون أن تلتقى بعد أن تقطع من رحلتها ٣٠٠ ميل . فأشرفت كلها على النهر

فى يوم واحد . بل وفى ساعة واحدة من النهار !

تقهقر الروس :

وكان القيصر قد حشد قواه على نهر الدوينا . واستحكم خلفه فحسب نابليون أنه سوف يظفر أخيرا بعدوه الفرّار على ضفاف هذا النهر . ولهذا جمع جيشه هناك واستعد للفتك به . وظل سحابة نهاره يصدر أوامره وتعليماته وبقى هزيعا من الليل ينظم شئون الغد ويدرسها مع ضباطه . ثم دخل عند منتصف الليل إلى خيمته ليستجم نشاطه ويستعد للقاء الصباح . . . .

وعند الفجر هب مبكرا على عادته ثم ركب جواده وخرج إلى الميدان . ولكنه دهش إذ رأى أن الروسيين قد أخلوه فى ظلام الليل . وأنهم كانوا يجدون فى الأفلات منه بينما كان يجد هو فى التهيؤ للقائهم . . . وعلى ذلك تابع زحفه عليهم وتابعوا هم الانسحاب أمامه وهم لا يترددون فى إتلاف كل ما صادفهم فى طريقهم حتى أشرفوا على مدينة سمولنسك .

حريق سمولنسك

وللمرة الثانية ظن نابليون أن سمولنسك ستشهد الموقعة الأولى بين جيوشه وجيوش الروسيين . ووقف على ربوة عالية تواجه المدينة . وعلى عينيـــه منظاره يراقب به تجمع الجنود داخل المدينة وحول أسوارها فتملكته نشوة الفرح لقرب اشتباكه بغرمائه . وصاح فى جذل واغتباط : « أخيراً ملكتهم ! » .

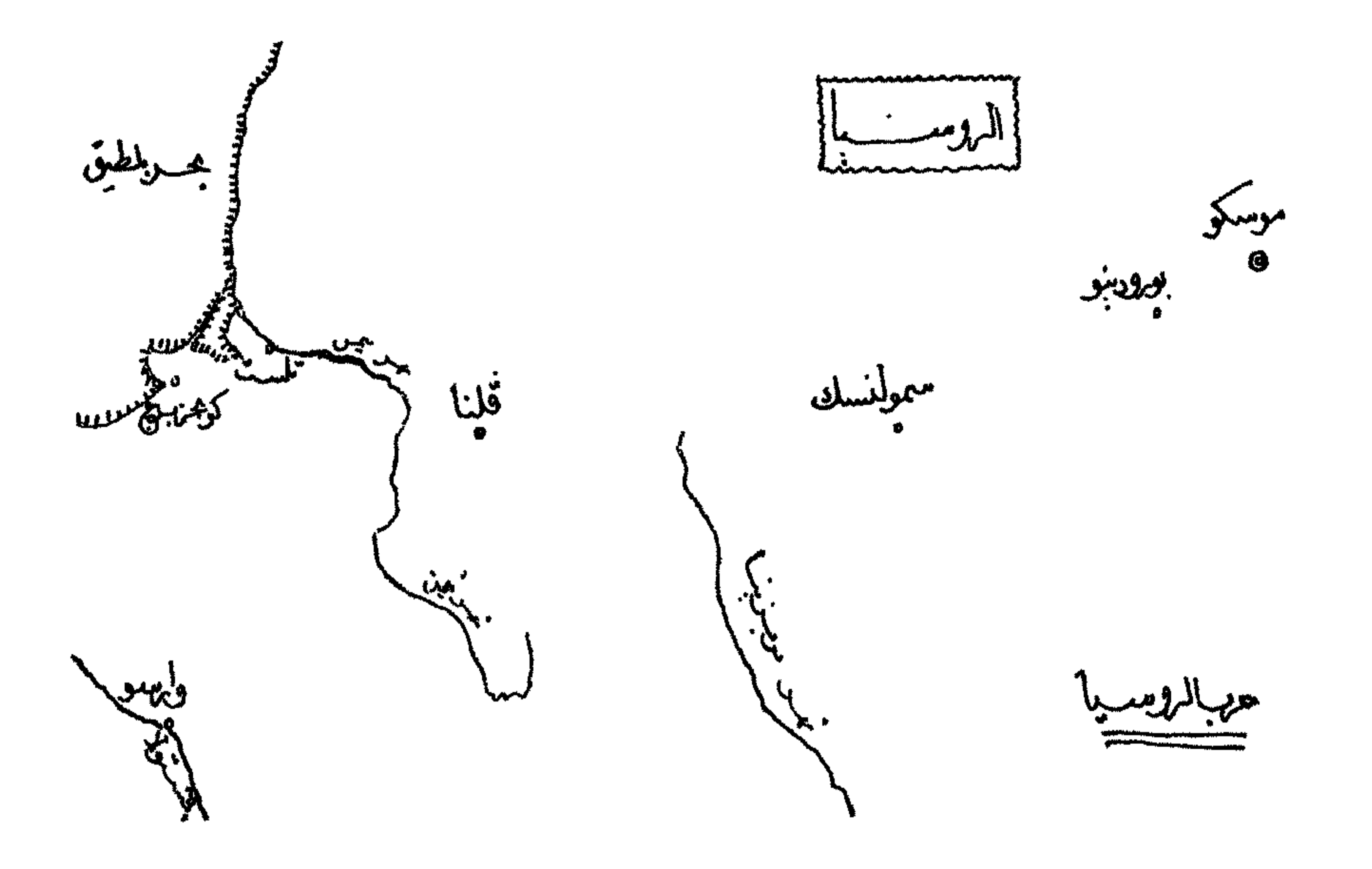
ودارت فى هذه المرة فعلا معركة دامية استمرت سحابة يوم ١٧ اغسطس سنة ١٨١٢ ولم تهدأ ثائرتها كالعادة بنزول الليل على المتقاتلين . ولكن الليل لم يكد ينتصف حتى ادلهم الجو بدخان كثيف لم يلبث أن انكشف عن ألسنة عالية من اللهب الساطع . وفى الساعة الثانيــة صباحا تمكنت طلائع الفرنسيين من دخول المدينــة المحترقة فوجدوها خاوية على عروشها إلا من هذه النار التى اضرمها الروس فيها قبل مغادرتهم لها . وللمرة الأولى أحس نابليون وجنوده بشىء من الخيبة فى هذه الحرب العجيبة التى لا يكادون يجدون لهم فيها مغنما ما . فاذا وجدوه بعد الجهد أكلته النار منهم قبل أن

تمتد اليه أيديهم . !

وهكذا واصل زحفه تحف به كل ويلات الهزيمة ومتاعبها وهو الظافر المنتصر والغازى والفاتح ـ وكانت المرحلة الثانية مرحلة طويلة شاقة اذ لم يكن أمامه بعد سمولنسك الاموسكو . وهى تبعد عن سمولنسك بنحو ٥٠٠ ميل وقد علم أن القيصر ارتد اليها . فلم يجد بدا من الزحف عليها وهو يطمع فى أن يكون دخوله فى هذه المدينة آخر مرحلة من مراحل هذه الحرب المشئومة التى كان يشاهد جيوشه تفنى فى ميدانها الشاسع الفسيح من الجوع والتعب لا من الطعن والضرب

أما القيصر فانه لم يلبث فى موسكو الا ريثما أعطى تعليماته بوجوب احراق المدينة اذا امتدت اليها يد نابليون ثم أسرع الى سنت بطرسبرج حيث أمر بان تقام صلوات الشكر فى كل الكنائس على ذلك النصر المتوالى الذى تحرزه الجيوش الروسية . وبلغ نابليون أمر هذه الصلوات فلم يتمالك أن صاح :

« واها لهؤلاء القوم ! انهم لا يكتفون بالكذب على الناس . لكنهم يتوقحون بالكذب على الله ! »


الروسيا
موسكو
بوروديو
سمولنسك
حرب الروسيا
بحر بلطيق
كونغسبرغ
قلنا
وارسو

موقعة بورودونيو

وكأنما سئم الشعب الروسى سياسة التقهقر. وكأنما خشى أن تفضى هذه السياسة الى اخلاء موسكو امام العدو. واحراقها بين يديه كما حدث فى سمولنسك وكأنما أشفق على تراث الاجداد المركز فى تلك العاصمة القديمة أن تمتد اليه يد التدمير والتخريب. وأن يذهب طعمة للنهب واللهيب. فناشد حكومته أن تقلع عن تلك السياسة. وأن تقف لتدفع العدو عن موسكو. وأن لا تمكنه من الوصول اليها. وقويت هذه الدعوة فى البلاد وكثر أنصارها حتى لم يجد القيصر بدامن عزل قواده دعاة الانسحاب والتقهقر ليحل محلهم كوتوسوف Kutusow القائد الروسى الأشهر الذى عرف بحسن بلائه فى الميادين الاوربية ضد جنود نابليون. فاستحكم كوتوسوف عند قرية بورودونيو أقوى استحكام وجمع كل ما استطاع جمعه من الجنود والمدافع ليحول دون وصول الفرنسيين الى موسكو مهما كلفه ذلك من التضحيات. وأيقن نابليون بان يوم اللقاء الحق قد حان أخيرا. وأن شوقه الى الاشتباك باعدائه قد

أوشك أن ينطفئ في معركة حاسمة يصب فيها على الروس جام حنقه لما لاقى بسببهم من الخسائر والاهوال . فرش بهم جنوده فى نشرة ملتهبة من نشراته المشهورة . ولم يبق بين الجيشين الا ذلك الليل المظلم الذى أسبل عليهما سدوله فحال بينهما بضع ساعات أخرى

وكانت تلك الليلة ليلة باردة على غير المعتاد وكان المطر يهطل فيها بغزارة وعنف . وبات نابليون ليلته يقظان لا يغمض له جفن إذ كان يخشى أن تعاود العدو نزعته الى الفرار فيفلت من قبضته من جديد . واحس بانقباض عجيب يستولى على نفسه كأنما وقع عليها شيء من ظل تلك السحابة القاتمة التى أوشكت أن تكسف نجمه الساطع . ومن عجائب المقادير أن نابليون كان فى تلك الفترة متعبا قضى أكثر من ليلة واحدة وهو لا ينام لانه كان يشكو نوبة برد قاسية وسعال شديد. ووافته فى تلك الليلة نفسها أنباء هزيمة جنوده فى اسبانيا فى معركة (سلامنكا) وأنباء دخول ولسلى الى مدريد . وكذلك حمل اليه الرسل فى تلك الليلة أن الروسيا قد عقدت صلحا مع تركيا وأن جيشا روسيا قويا هو الآن فى طريقه شمالا ليتصل بجنود كوتوسوف وكأنما أراد القدر أن يتم سخريته فى تلك

الليلة فهيأ لنابليون أن يستلم فيها أيضا خطابا من ماريا لويز ومعه صورة كبيرة جميلة لصغيره العزيز «ملك روما» فغلبت عاطفة الابوة على قلبه وخرج والصورة فى يده ودعا اليه الضباط والجنود ليشاهدوها ولكنه ما لبث أن قال لسكرتيره . خذها بعيدا واحتفظ بها فأنه يشهد ميدان القتال قبل الأوان .

وأشرقت شمس اليوم التالى على نابليون وهو فوق جواده ومن حوله قواده وأركان حربه . وكان على الرغم من شدة ما يقاسى لا ينبس قط بما ينم عن آلامه واوجاعه حتى لا يتسرب الوهن الى نفوس اجناده . واراد فى ذلك الصباح ان يكون على عادته من الثقة والاستبشار ، فما هو أن رأى قرص الشمس يرتفع أمامه فى الافق الشرقى حتى صاح فيمن معه :

« أنظروا ! تلك شمس اوسترلتز ! »

وسرت تلك الكلمات المتفائلة المشجعة سريان البرق فى كل الصفوف فشددت من عزائم الجنود . وملأتهم ثقة بالنصر . ونشبت تلك المعركة الخالدة الرهيبة التى عرف نابليون أن عليها يتوقف مستقبله . وادرك الروس ان عليها يتوقف مصيرهم . وظل ميزانها يترجح بين الفريقين طول النهار الى ان آذنت الشمس بالأفول . وعند ذلك شوهد الروسيون يفرون تحت جنح

الظلام متقهقرين . وهكذا كتب النصر للفرنسيين . ولكنه لم يكن نصر من ذلك النوع الذى تهتز له القــــلوب فرحا وتستبشر به النفوس . فان ضحايا الفريقين كانت بالغة منتهى القسوة . إذ خسر الفرنسيون نحو ثلاثين الف جندى بينما كانت خسائر الروس لا تقل عن خمسين الف .

وعلى الرغم مما قاسى نابليون على يد هؤلاء الروس فأنه لم يبخل على جرحاهم بما كان يحبو به الجرحى الفرنسيين انفسهم من العطف والاحسان وقد حدث اثناء مروره فى الميدان بعد المعركة ان مر جواد احد ضباطه على قدم جريح روسى فصرخ الرجل يستغيث فما كان من نابليون الا ان التفت الى ضابطه ووجه اليه قارس اللوم على فعلته وحسب الضابط ان جنسية الجريح قد تكون عذرا مقبولا يشفع له عند الامبراطور فقال:

ان الجريح ليس الا احد رجال الروس اعداءنا يامولاى

فاجابه نابليون على الفور : « ليس بعد النصر اعداء »

موسكو :

أما كوتوسوف فانه تراجع الى موسكو بما بقى معه من الجند وهو يكتسح فى تراجعه كل من صادفه من الاهالى

التعساء ليخلو مساكنهم أمام الفاتحين ومضى ينسف الجسور ويحرق القرى . ولا يبقى على شيء يستطيع الفرنسيون أن ينتفعوا به فى ايوائهم أو تموينهم . وبينما كان هو يفعل ذلك خارج المدينة كان رستوبخن Rostopchin حاكمها يعد المعدات داخل أسوارها لاحراقها اذا ما دهمها الفرنسيون .

وفى ظهر يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨١٢ بدت تحت منظار نابليون للمرة الاولى قباب المدينة وابراجها العالية فصاح فيمن معه . «هاكم يارفاقى مدينة القياصرة الشهيرة ؟ » فأدركت رجاله نشوة طرب كتلك التى تدرك الجواد المكدود وهو يشرف على حظيرته بعد الشقة الطويلة والعمل الأليم . وطابت نفوسهم لقرب دخولهم تلك المدينة التى كانوا يعلمون انها على الأقل ستكون آخر محطة فى رحلتهم الطويلة الشاقة وتركوا لخيالهم العنان يصور لهم ما سوف يلقون فيها من نعيم الاقامة وطيب المآكل وأخذوا يتصايحون ويردد المتأخرون منهم هتاف المتقدمين « موسكو موسكو !» واقتربوا من المدينة حتى باتوا على مرمى الهدف منها . ولكنهم فوجئوا بسكون مخيف ينبعث منها كسكون مدائن القبور . وجاء الرسل الى نابليون ينبئونه بان المدينة خالية خاوية على عروشها وقد هجرها كل سكانها

الاجماعة من المسجونين فتحت لهم أبواب السجن فى آخر لحظة فهم فى طرقاتها هائمون كأنهم أشباح الجن وأرواح الشياطين . وراجت إشاعة فحواها أن المدينة ستحترق فى منتصف الليل . وأشفق نابليون فى أول الأمر أن يواجه تلك المدينة المقفرة فلم يشأ أن يدخلها ونزل فى إحدى ضواحيها وترك جنودة تضرب فى أطرافها لعلها تجد ما يسد جوعها أو يطفىء ظمأها . وقضى ليلته قلقا لا يقر له قرار فكان لا يأوى إلى فراشه الا ليهب منه فزعا حانقا . فيقطع أرض الغرفة ذهابا وجيئة مرة أو مرتين ثم يعود إلى فراشه وهكذا إلى أن اصبح الصباح فأمر بأن ينتقل مقامه الى قصر الكرملين Kremlin مقر القياصرة العظام فى قلب مدينة موسكو . وقضى سحابة النهار فى الأشراف على راحة جنوده الذين نزلوا بعد طول المشقة افخم القصور .

وبرز من مخابىء المدينة نحو عشرين ألف روسى ما بين ذكور وأناث فاختلطوا بالفرنسيين . وكان « رستوبخين » قد ألغم الكرملين كما ألغم معظم القصور الأخرى التى كانت تموج الآن بالجنود الفرنسية ووكل إلى هؤلاء المخلقين أمر إشعال النار واحراق المدينة بعد أن قطع أنابيب الماء وأتلف

المساق وأفسد آلات المطافىء ولم يدع وسـيلة من وسائل النجاة الا اعد العدة لأحباطها .

وانقضى ذلك النهار بسلام وخيم الليل وهبت فيه ريح عاصفة قوية وكانت معظم مساكن المدينة من الخشب وكان المطر قد طال احتباسه . فكانت تلك الأخشاب جافة صالحة للاشتعال كأنما كانت العناية السماويه هى التى تهىء الظروف للحريق .

حريق موسكو

وأوى نابليون تلك الليلة الى فراشه متأخرا متعباً . ولم يكن يستطيع أحد بعد ذلك أن يدخل عليه . وعند منتصف الليل صاح صائح فى المدينة « النـار ! » — وشوهدت ألسنة النار تندلع فى أغنى أحياء المدينة وساعدتها الريح على الانتشار فى أحيائها الأخرى . وهب الجنود مذعورين من فراشهم يحاولون اطفاء النار ولكن لم يكن لهم الى ذلك من سبيل وغلبتهم عناصر الطبيعة الجبارة فلم يبق أمامهم الا الفرار أمام اللهب والانتقام من كل روسى يصادفونه فى الطريق

وفى الصباح قام نابليون وفوجىء بمنظر الحريق فملكته لأول وهلة نوبة من الغضب والهيـاج وأخذ يقطع أرض

غرفته بخطوات عصبية سريعة وهو ينظر بين آونة وأخرى من النافذة إلى خلال ألسنة اللهب صائحا : « يا له من منظر مخيف ! كل هذه القصور تحترق ! ما أفظع عنـــاد هؤلاء القوم ! »

وظلت النار تأكل المدينة طيلة اليوم ولا تجد لها من دافع حتى حل الليل . وكان نابليون قد وقف نشاطه وهمته على مكافحة الحريق . ولكن عند منتصف ليلة الثامن عشر من شهر سبتمبر شوهدت النار تندلع من قصر الكرملين نفسه . فوقف نابليون لا يريد أن يبرح القصر كأنما عز عليه أن يسلم الى اللهب تلك الفريسة الغالية التى لم يحصل عليها الا بعـــد ان ذاق هو ورجاله الأمرين . ولكن النار طوقت النوافذ وأكلت بعض الأبواب . وخرج الأمر من دور الشجاعة والثبات الى دور المكابرة والمجازفة . ولم يبق بد من اخلاء القصر فى طلب النجاة وكاد يكون التفكير فى ذلك قد جاء متأخراً بعد فوات الأوان . اذ لم يجد نابليون عند ما وافق رجاله على الانسحاب طريقاً واحدا آمنا يسلكونه ليصل منه الى ظاهر المدينة . وكان يشق طريقه اكثر من مرة وسط اللهب والدخان .

وبقيت النار ترعى المدينة بعد خروج نابليون منها يومين فلم تبق على شيء فيها . واستحالت أفخر قصورها وأثمن كنوزها فى وسط اللهيب الى دخان ضائع وهباء منثور .

وعاد الجيش الفرنسى يبيت فى العراء بغير طعام . يصطلى فريق منه بحطام الأخشاب الثمينة التى كانت يوما من الأيام آية من آيات الفن . ويتقى البرد فريق آخر بمزق من الحرير الموشى بالذهب . ويأكل آخرون شواء لحوم الخيل الميتة فى صحاف من الفضة . ويموت غير هؤلاء وهؤلاء من الجوع والأرض مرصعة حولهم بأصناف الجواهر واللآلىء الثمينة .

على أن جناحا من الكرملين نجا من الحريق فعاد اليه نابليون وهو يريد أن يوهم الروسيين أنه ينوى قضاء الشتاء فى موسكو ليستأنف الحرب معهم فى الربيع القادم . وظل ينتظر فى جناحه خمسة أسابيع طوال على أمل أن يقنع القيصر بالدخول معه فى مفاوضات للصلح ولكن من ضحى بموسكو لم يكن من المنظور أن يبق على شيء بعدها فى سبيل الحصول على النصر الحاسم المبين . ولذلك فشلت كل جهود نابليون فى الاتفاق وكان ابطاؤه فى موسكو هذه الأسابيع الخمسة من مضاعفات النكبة التى حلت بجيشه فى هذه الحملة المشئومة .

وعند ما أصدر أمره بالعودة الى پولندا لقضاء الشتاء فيها كانت العواصف الثلجية قد جاء موسمها . واستحالت برارى الروسيا وقفارها الى سهل قطبي واحد تغطى صفحته الثلوج .

الانسحاب

وبدأ الجيش ينسحب من موسكو فى التاسع عشر من شهر اكتوبر ليقطع طريقا طوله ٧٥٠ ميلا وليس به إلا محطتين اثنتين (منسك وسمولنسك Minsk & Smolensk) يستطيع أن يتزود فيهما بشيء من المدد والذخيرة وكان لم يبق لنابليون من « جيشه الأعظم » (وهو نحو ٥٠٠,٠٠٠) الا ١٢٠,٠٠٠ جندى . ورأى الروس أن واجبهم لم ينته بتراجع جيوش العدو عن بلادهم وبيتوا نيتهم على أن يشيعوا الفرنسيين فى انسحابهم كما استدرجوهم فى هجومهم بحيث يقضون على كل من تخلف منهم فى الطريق دون أن يتعرضوا للاشتباك معهم فى معركة نظامية يكون الفوز فيها على الأرجح لنابليون وهكذا بدأت سلسلة تلك النكبات التى لم يرو التاريخ لها مثلا . إذ تعاونت الطبيعة مع فرسان القوزاق على قص أجنحة هذه القوة المنكودة التى أصبح نابليون لا يطمع فى أكثر من أن ينجو بأنقاضها من فتك الروسيين !

الثلوج :

وجد نابليون فى سيره حتى يتمادى قسوة الشتاء الداهم ما استطاع . وقطع فى العشرة الايام الأولى نحو ثلثمائة ميل ولكن شهر نوفمبر كان قد حل وحلت معه رياحه الصرصر العاتيـة وأمطاره الثلجية المهلكة وكان النذير الأول فى مساء ٥ نوفمبر سنة ١٨١٢ حيث تلبد الجو بالسحب الدكناء واشتد هبوب الريح الشمالة بقسوة لا يعرفها أهل الجنوب . وعند منتصف الليل تفتحت أبواب السماء فوق معسكر الفرنسيين عن وابل من البرد والصقيع أخمدت تحته النيران وانطفأت المصابيح وتشتتت الجنود تحت تاثير العاصفة وهاموا على وجوههم يلتمسون ما يحتمون فيه فلا يجدون غير الثلوج . الثلوج التى تغوص فيها أقدامهم . . . والثلوج التى تتجمد تحتها أطرافهم والثلوج التى تعشى بها أبصارهم . . .

واخيراً تنفس الصبح . ولكن ألوفا ممن عانوا مرارة الزوبعة لم يتنفسوا معه. بل ظلوا حيث دهمتهم العاصفة لا تنم عن اماكنهم الا كومات عالية من الثلج كان يعرفها الأحياء أنها قباب الطبيعة أقامتها فى خلال الليل فوق الأموات .

ولم تطلع شمس ذلك اليوم على الفرنسيين. ولكن طلعت عليهم فصائل كثيرة من القوزاق المتوحشين الذين كانوا يتنافسون وعقبان الجو فى التمثيل بكل جريح وطريح من الفرنسيين الذين تخلفوا عن اخوانهم فى المسير. وسرعان ما انقضت ساعات النهار القصيرة ودخل الليل الطويل على الفرنسيين من جديد بويلاته وفجائعه. وجددت العاصفة حملاتها على جموعهم فكانوا ينشدون المعونة فى جذع شجرة مبتل يحاولون اشعاله ليصطلوا أو فى جلد حصان ميت ينزعونه عن جثته ليلتفعوا به. وكان الجنود فى يأسهم وبؤسهم يبقرون بطون الخيل السليمة ليفوزوا بشربة من دمها الساخن يدفئون به أجسامهم المتجمدة ويشغلون به معداتهم الخاوية.

وكرت عليهم أيام عدة وهم على هذه الحال من التعاسة والشقاء حتى اقتربوا من مدينة سمولنسك حيث كان نابليون قد ترك حامية قوية وأمر بأعداد ذخيرة وافرة. ولكنه ما أشرف على هذه المدينة حتى وافاه البريد من فرنسا وهو يحمل اليه أنباء مزعجة كانت تكفى وحدها لزعزعة نفسه وهد عزيمته. إذ قرأ فيه أن الجنرال (ماليه — Malet) أحد قواد باريس قد استغل الظروف القاسية التى كان يعانيها هو وجيشه

فى وسط الروسيا فروج اشاعة هناك مؤداها أنه قد قتل وأن جيشه قد فنى معظمه وأسر باقيه ونادى بنفسه حاكما على فرنسا ودعا الناس إلى الاعتراف بحكومته . فكان وقع هذه الاخبار أشد ايلاما فى نفس نابليون من كل ما لاقى من الويلات فى تلك الحملة المشئومة إذ رأى بنيان امبراطوريته ينهار لمجرد إشاعة فاسدة بعد أن ضحى براحته وبصحته وبزوجته فى سبيل تقويته وتدعيمه . ومنذ تلك اللحظة عول على الاسراع فى العودة الى باريس قبل أن يتفاقم الضرر ويشتد الخطر . ولكنه عز عليه أن يترك الجيش قبل أن يستخلصه من أيدى أولئك الروس العنيدين الذين أدركوا حرج مركز خصومهم وعزموا على أن يكفروا بأهلاكهم عما خربوا وأحرقوا من مدائنهم العامرة الزاخرة .

الماريشال ناى :

وكان نابليون يسير فى مقدمة الجيش يشق له الطريق . ويسير الماريشال ناى فى مؤخرته يحميه من غارات القوزاق . وقد لاقى هذا البطل المغوار فى سبيل ذلك من العقبات والصعاب ما لم يكن يستطيع مواجهته غيره من بقية

قواد الجيش الفرنسى . فقد كان ببضع مئات من الجنود الراجلين الذين لا يملكون غير البنادق يدافع عشرات الألوف من الروسيين المزودين بالخيل والمدافع وكانت له فى ذلك مواقف تكفى لتشريف جيش بأكمله على أن الفضل فيها كلها لا يرجع الا لشخصه وهمته وشجاعته النادرة وكان من آثار اعتراف نابليون بحسن خدماته أن أطلق عليه لقب « اشجع الشجعان »

وكان الجيش قد بلغ الآن فى انسحابه آخر مرحلة من مراحل الأمل فى النجاة إذ كان قد تخلى عن معظم مدفعيته فى الطريق لقلة الدواب التى تجرها ولوعورة السير بها فوق الثلوج . وكان يسير فى بلاد معادية بغير ذخيرة ولا زاد اللهم الا ما يحصله كل جندى لنفسه على قدر جهده واجتهاده واصبح ذلك الجيش المنظم المنسق يسير شراذم شراذم كما تسير قطعان الأوابد فى فلواتها بغير ضابط وعلى غير هدى



ناي ينسحب بفلول الجيش الأعظم من الروسا

نابليون والقوزاق :

ولقد حدث لنابليون ذات يوم وهو يسير فى وسط جماعة من ضباطه أن انتبه على صوت صائح يصيح : « الى الوراء . القوزاق أمامكم ! » فالتفت فأذا هو منقطع عن بقية الجيش هو ومن معه . واذا بفصيلة من القوزاق لا يبعدون عنهم اكثر من أربعين خطوة . فثبت نابليون فى مكانه وخيل له عناده وكبرياؤه أن لا يفر أمام هؤلاء القوزاق . ولكن ياوره تقدم إليه وأخذ بزمام جواده قائلا :

— « لا بد لك أن تطيع ! »

وكانت محنة الهمة تلك التى وقف فيها نابليون يستمع إلى هذه الكلمات للمرة الأولى من فم غير فمه ! ولكنه على الرغم من كل ما كان يحيط به من الأخطار ظل فى مكانه ولم يطع نداء ذلك الياور الأمين بل استل سيفه ووقف يحيط به ضباطه شاهرى السيوف واقترب القوزاق وهم يجهلون من يهاجمون . وتكاثر الضباط حول الامبراطور يدافعون عنه حتى وصلت طلائع الحرس فتولت الدفاع وتراجع أمام ظهورها جماعة القوزاق .

ولكنها كانت ساعة رهيبة لم ينسها نابليون فقد رأى الموت فيها ماثلا بين يديه . وعرف بعدها أن الحكومة الروسية قد نشرت بين القوزاق صورته وأوصافه حتى إذا ظفر به جماعة منهم عرفوه ولم يتركوه يفلت من أيديهم . فلم ير بدأ من أن يحتاط للظروف وأمر أن يعد له طبيبه جرعة سامة يلجأ اليها عند الضرورة . ففعل الطبيب وكان نابليون بعد ذلك اليوم يحمل هذه الجرعة فى علاقة من الحرير الأسود مشدودة الى خيط يحيط بعنقه حتى إذا دهمه العدو ابتلع ما فيها ولم يمكنهم من نفسه وهو على قيد الحياة .

موقعة البرزينا :

ولقد يطول بنا الحديث إذا نحن أتينا على وصف كل ما وقع لهذه الحملة المنكودة فى طريق عودتها . فنحن نكتفى بما ذكرنا من أخبارها ليكون حاضرا فى ذهن القارىء يتصور وقوع مثله فى كل ميل من الأميال المائتين الباقية لها حتى تخرج من أرض الروسيا . ولكنا مهما تجاوزنا عن ذكر التفصيلات فلا بد لنا من الوقوف قليلا عند نهر البريزينا Beresina نشهد الفرنسيين وقد اعترضهم هذا النهر بعد أن

سبقهم الى ضفته الأخرى كوتوسوف وجيشه الجرار ونستمع إلى قواد نابليون وهم يشيرون عليه أن ينجو بشخصه حيث لا أمل البتة فى عبور النهر بقواهم المهزولة الجائعة العارية. وتلك جنود كوتوسوف لايحصى لها عدد فى الشاطىء المقابل لهم تتربص بعدتها وذخائرها فى انتظار أية محاولة من الفرنسيين للعبور كى تكتسحهم بقذائفها وتلقى بهم فى جوف النهر.

ولقد تطوع فى تلك الساعة الرهيبة بعض الضباط البولنديين ليقتادوا الأمبراطور فى مسالك خفية يعرفونها فى تلك الجهات ليخرجوا به سالما من أرض الروسيا. ولكنه رفض كل اقتراح من هذا القبيل وأبى إلا أن يشاطر جنوده كل ما يصيبهم فى تلك المحنة التى يجتازونها.

ولجأ نابليون فى ذلك الظرف العصيب إلى مواهبه الخارقة فقام على جانب النهر بمناورات أوهمت العدو أنه يحاول اجتياز النهر فى مكان خاص فما هو أن رأى العدو قد انخدع بحركاته حتى أسرع بجنوده فعبروا النهر فى مكان آخر ولكن الروس لم يلبثوا أن تبينوا خطأهم وارتدوا إلى الفرنسيين سراعا فأدركوهم وهم مايزالون يتسللون فوق جسرين سقيمين أقامهما لهم من بقى معهم من المهندسين. وكان عدد المقاتلين من

جنود نابليون لا يتجاوزون عشرين ألفا يقابلهم أكثر من ماثة ألف روسى . فليس أعجب بعد ذلك من أن يسمع الانسان أن الماريشال ناى يفجأ هذه القوة الهائلة بثمانية آلاف جندى فرنسى يقتحم بهم صفوفها ويستولى فى طريقه على ستة آلاف أسير !

على أن خسائر الفرنسيين فى تلك الموقعة كانت أليمة فادحة وعلى الرغم من عدم الوقوف حتى اليوم على حقيقة عدد الضحايا الذين زهقت أرواحهم فيها فأن جانبا من هذه الخسائر أمكن تقديره وضبطه عندما حل فصل الربيع وذابت ثلوج النهر وطفت فوق مياهه اثنتا عشرة ألف جثة فرنسية !

ولم يكد يجتاز نابليون هذه العقبة الأخيرة بمن بقى معه من جيشه ويرى أنه أصبح على حدود پولندا الشرقية حتى أسرع فى العودة الى باريس تاركا رياسة الجيش من بعده لمورا ملك ناپولى . وكانت قد وصلت إمدادات الى الفرنسيين رفعت عددهم إلى ثمانين ألف جندى غير أن البرد كان قد اشتد وازداد هوله حتى أصبحت درجته ٦٠ تحت الصفر بميزان فهرنهايت . ولذلك لم يعبر منهم نهر النيمن أكثر من ثلاثين ألفا أما الباقون من « فرقة الحرس » الضخمة

الفخمه فلم يكونوا يزيدون على ثلثمائة .

وكان « ناى » آخر من عبر النهر . وآخر من ترك الأرض الروسية من « الجيش الأعظم » . فنى ذات يوم كان الجنرال دوماس يجلس فى بيت طبيب فرنسى على شاطىء النهر من جانب ألمانيا عند ما دخل عليه رجل ملتحف بعباءة واسعة له لحية طويلة كثة ووجه نحيل كادت تختفى ملامحه تحت دخان البارود الأسود الذى يغطيه . فألقى نفسه على مقعد قبالة الجنرال وهو يقول :

ـــ « ها أنا أخيرا قد وصلت ! . . ولكن ما بالك يا جنرال دوماس . ألست تعرفنى ؟ » .

فحدق الجنرال فيه برهة وهو يعجب فى نفسه لأمر هذا الطارق الجرىء الذى يقتحم البيوت على أصحابها بغير إذن ثم قال :

ـــ « بلى ! فمن أنت ؟ » .

قال ـــ أنا « مؤخرة الجيش الأعظم » ـــ أنا الماريشال ناى . أطلقت آخر رصاصة معى وأنا على جسر كونو ثم ألقيت بالبندقية الأخيرة فى النهر وحضرت إلى هنا كما ترانى سعيا على الأقدام . وأنا أسير بين الأحراش والغابات ! »

الفصل الثانى

بروسيا تنتقض على نابليون

يأبى بعض أقزام المؤرخين إلا أن يتحذلقوا وهم يتصدون للكتابة عن نابليون فبعد أن يتفضل الواحد منهم بالاعتراف له بالنبوغ فى الشئون الحربية يعود فيتطاول على مسند هذا البطل العظيم مستدركا بقوله : « أما فى الشئون السياسية والاقتصادية وغيرها فانه كان وراء غيره ممن جرى معه فى تلك الميادين » . . .

مع أن سياسة نابليون الاقتصادية كادت تكسف بنجاحها سياسته الحربية . وليس أصدق حكما فى مثل هذه الأحوال من الأرقام . فبحسبك أن تعلم أن هذه الحروب المدمرة التى أثارتها عليه أوربا قد كادت تذهب بما فى خزائنها وتغلق أسواقها وهى الدول المتحالفة المتكاتفة التى تتمتع بنعمة التعاون وتنعم بثمرة الائتلاف . فى حين أن نابليون قد أنفق وحده وفى وسط كل هذه الحروب أكثر من ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠

فرنك على تحسين حال فرنسا ما بين تشييد القصور الفخمة وإقامة الاستحكامات المنيعة وبناء الجسور وتمهيد الطرق وشق الترع وغير ذلك من وسائل الاصلاح التى كانت موضع الاعجاب عند الجميع . ومثار الدهشة فى نظر من يحسنون تقدير الأمور حتى لقد ختم الكونت موليه Conte Molé (وزير مالية فرنسا) بعض تقريراته بهذه الكلمات الحية التالية التى تصور لك عظمة نابليون فى الشئون الاقتصادية أصدق تصوير .

« لو أن رجلا من عصر المديشى أو عصر لويس الرابع عشر قدر له أن يعود إلى هذه الدنيا فبهرته رؤية كل هذه الأعاجيب فتساءل كم جيل من أجيال السلام وكم عصر من العصور الذهبية لا بد أن تكون قد تعاقبت على هذه البلاد لتنعم فى ختامها بكل هذه الثمرات لما كان الجواب إلا أنها اثنتا عشرة سنة من سنى الحرب المتواصلة وهمة رجل واحد ! »

والواقع ان هيبة نابليون وحكمته وحسن إدارته كانت تغطى دائما على ما كانت تجره تلك الحروب على فرنسا من الويلات حتى أنه بعد عودته من الروسيا خائبا خاسرا كان يتلقى من مظاهر الثقة به والولاء له ما لم يكن يلقاه إلا الفاتح المنتصر الذى عاد من بلاد الأعداء مثقلا بالغنائم والأسلاب

وكانت البلاد المندرجة تحت جناحى أمبراطوريته الواسعة تتنافس فى الأعراب عن تعلقها بشخصه والتفافها حول لوائه. وترى فى ذلك أداء منهـــا لبعض الدّين الذى تحس بفضل نابليون عليها فيه . ونحن نورد هنـا الخطاب الذى تلقاه الامبراطور من ميلان عقب عودته من الروسيا ليكون بين يدى القارىء نموذجا يطالع فيه صورة من عواطف تلك الدول التى تولى إنشاءها وتكوينها فعرفت له هذا الجميل .

« إن مملكتنا ياصاحب الجلالة ليست إلا صنع أيديكم . فهى مدينة لـكم بقوانينها . وبمفاخرها . وبرفاهتها . وبطرقها . وبزراعتها . وبرفع شأن فنونها . والحياة الهادئة التى تنعم بها . وأن أهل إيطاليا ليعلنون فى وجه العالم أجمع أنه مامن تضحية إلا وهم على استعداد لبذلها فى سبيل تمـكينكم من اتمام عملـكم العظيم الذى ندبتكم العناية للقيام به . وأن الظروف غير العادية لتقتضى التضحيات غير العادية أيضاً وسوف لاتقف جهودنا فى التضحية عنـد حد . فأنتم يا صاحب الجلالة فى حاجة الى السلاح والجنود والمال والبقاء على العهد والثبات على المبدأ . ونحن نضع كل ما نملك تحت أقدام جلالتكم ! » .

ولـكن هذا الروح الذى كان يثيره حسن صنع نابليون

فى بلاد أوربا كان يقابله روح آخر يثيره ذهب انجلترا ووعيد الحلفاء . فقد كان لانجلترا مندوبون فى أوربا كل مهمتهم نشر الدعاية ضد نابليون بكافة الطرق المشروع منها وغير المشروع فكانت تتساقط النشرات المسممة بالأكاذيب والمفتريات ضد نابليون على رءوس الناس فى كل مكان كأوراق الخريف وأسرفت انجلترا فى حسن الثقة بأقوالها حتى أنها كانت تساوم فى شراء أمم بأسرها بعد أن رأت أن عملية شراء الأفراد عملية بطيئة لا تحقق فى كثير من الأحوال غاياتها . ومترنيخ نفسه رئيس الوزارة النمساوية يعترف بأن انجلترا كانت تدفع للروسيا ١٧٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنكا وتعرض فى الوقت نفسه ٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠ على النمسا لتغير خطتها مع فرنسا. فلما أحجمت النمسا عن الاشتراك فى هذا الحلف الجديد الذى كان بلاط سانت جيمس يحاول جمعه ضد نابليون ولت انجلترا وجهها شطر بروسيا تدفعها دفعا وتثيرها إثارة وتذكرها بما كان بين نابليون وبينها فى الماضى القريب . وتحى فى أذهان أهلها صنوف المهانة التى أنزلها بهم نابليون عند ما احتل عاصمة بلادهم بجيوشه وأثقل كواهلهم بغراماته . واضطهد زعماءهم وتحكم فى مصائرهم . وكان الشعب البروسى ن جهة أخرى قد تهيأ

لمثل هذه الدعاية أحسن تهيؤ على يد ستاين وشارنهورست كما بينا ذلك فى الفصل الثانى من الباب الخامس. وكان ستاين من جهة ثالثة فى بلاط[1] القيصر يثيره على غريمه الكورسيكى ويستعديه عليه. فاجتمعت كل هذه العوامل على فردريك وليم ملك بروسيا المسالم الوديع الذى كان يناصر نابليون يرجو رحمته ويخشى عذابه. فلم يجد معها بدا من مسايرة التيار والتمشى مع ميول الشعب الساخط الذى ينادى بأخذ الثأر فتورط فى عقد « معاهدة كاليش » مع قيصر الروسيا (٢٨ فبراير سنة ١٨١٣) حيث تعهد القيصر بتقديم ١٥٠,٠٠٠ جندى روسى لمعاونة الجيش البروسى فى الأجهاز على سلطان نابليون فى أوربا.

وفرحت انجلترا فرحا عظيما لما صادفته من النجاح فى سلخ أحد أنصار نابليون عن دائرة نفوذه . . . وأبت إلا أن تعزز نصرها هذا بنصر جديد فبعثت بأساطيلها إلى شواطىء الدانمرك تهددها بالتدمير فى ظرف ٤٨ ساعة إذا لم « تتطوع »

---

١ يذكر القارىء أن ستاين غادر بروسيا عندما غضب عليه نابليون ودخل فى خدمة القيصر وكانت له اليد الطولى فى تدبير كل ما حل بنابليون فى الحملة الروسية من النكبات .

بالدخول فى هذا التحالف الجديد .

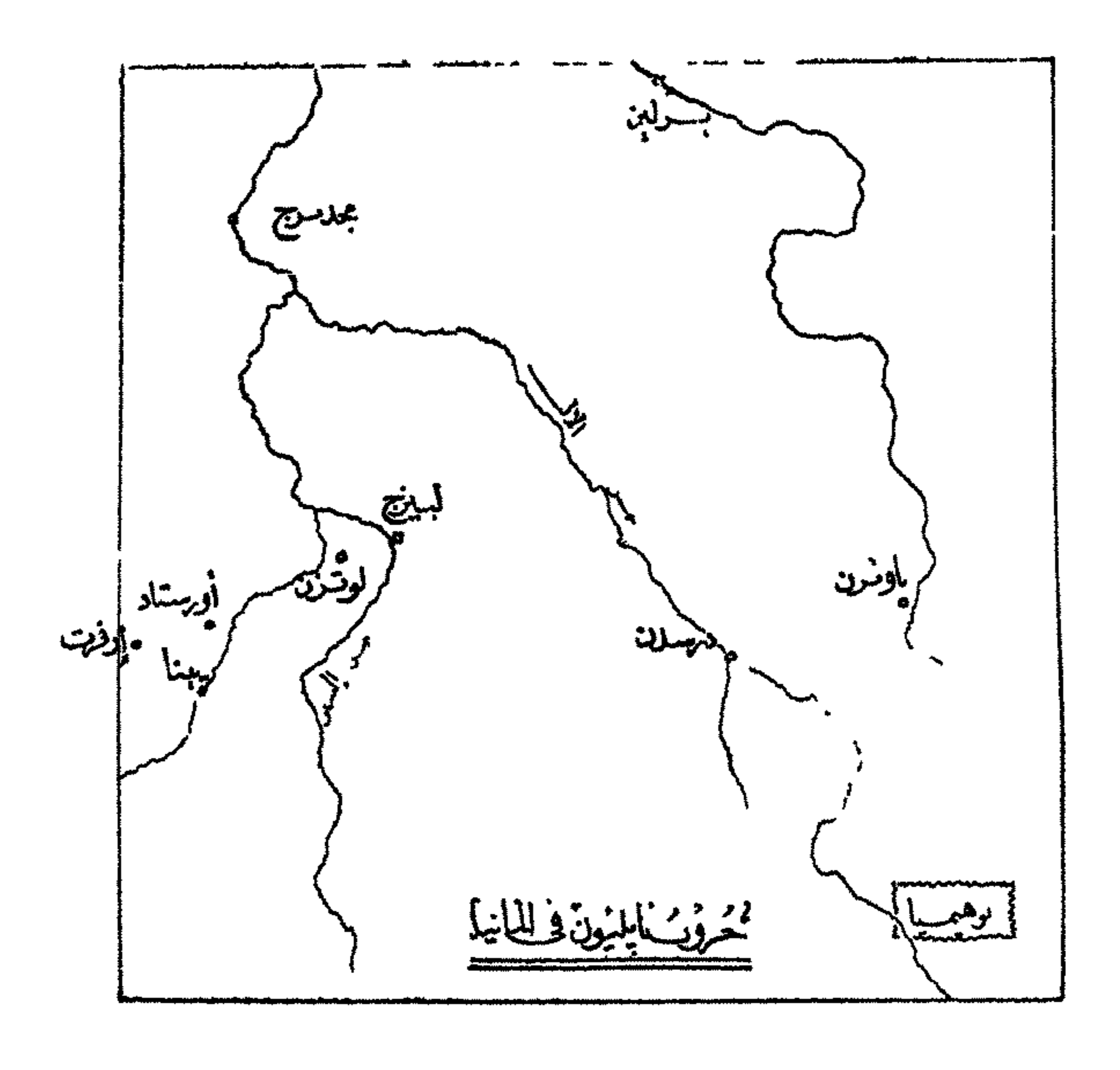
وبينما كانت انجلترا تقوم بهذا الدور لكسب حليف جديد كان زعماء هذا التحالف الآخرون يعقدون مؤتمرا فى مدينة برسلاو يعلنون فيه أن كل أمير من أمراء ألمانيا لا ينضم إلى التحالف لن يكون جزاؤه منهم بعد النصر إلا فقدان تاجه وخسران ملكه . وكان ملك سكسونيا أخلص نصراء نابليون فلم يسعه أزاء هذا التهديد إلا أن يسبق الحوادث فخرج من درسدن عاصمة بلاده حتى لا يقع فى يد هؤلاء الأبطال الأفذاذ الذين يخرجون الملوك من بلادهم باسم نصرة الحرية ومحاربة الطغيان ! .

الفصل الثالث

لوتزن وباوتزن

« Lutzen & Bautzen »

لم تقنع انجلترا باثارة بروسيا وألمانيا . ولا بمعاونة الروسيا والدانمرك فى هذه التعبئة الجديدة التى كانت تقوم بها للقضاء على نابليون قبل أن يفيق من أثر تلك النكبات التى حلت به فى الحملة الروسية ورأت، أن تجعل تعبئتها هذه المرة عامة جامعة لتضرب بها الضربة الحاسمة القاضية . فلم تتهيب أن تقتحم الباب على رجاله أنفسهم لتثيرهم عليه وتسلخهم عنه وتضمهم الى صفوفها . ويعجب الانسان أى عجب حين يراها تنجح فى الاتصال بمثل مورا « Murat » ملك نابولى وصهر نابليون الذى تزوج بأخته كارولين . وأصبح بفضل هذا الزواج صاحب عرش وصاحب جلالة . ولقد كان نابليون يرجو مورا وأمثاله من الأصهار والأنصار لمثل هذا اليوم العصيب الذى خانه فيه الحظ وتكاثرعليه الأعداء فاذاهو يراهم يتخلون عنه واحداً فى أثر واحد واذا هو يرى نفسه فى ساعة الضيق بين عدو محارب . وحليف خائن هارب .



حروب نابليون فى ألمانيا

كان من بين قواد نابليون الذين رفعهم فى عهد الامبراطورية الى درجة الماريشالية قائد اسمه برنادوت Bernadotte . وكان برنادوت هذا من رجال الثورة وأنصارها . وقد تزوج بالمدموازيل « دزيريه كلارى » أخت زوجة يوسف بونابرت التى كان يحسده على زواجها نابليون فى زمانه الأول . ولكن برنادوت كان رجلا واسع الأطماع حقوداً فلم يرقه ماصادفه نابليون من النجاح العظيم . وكان يجهر ببعض عواطفه العدائية لنابليون غير أن الامبراطور كان يداريه اكراما لخاطر أخيه الطيب يوسف وبقيت الحال بينهما على ذلك الى أن كانت سنة ١٨١٠ حيث توفى ولى عهد السويد واتفق أهل هذه البلاد على أن يجاملوا نابليون ويكسبوا عطفه بترشيح برنادوت عديل أخيه ليكون ولى عهد لهم . وقد أبت على نابليون طيبة قلبه الا أن يسمح لبرنادوت بتقلد هذا الشرف لعل حزازته تشفى اذ يرى نفسه ملكا هو الآخر فلا يعود يحقد على نابليون . ولقد أوشك برنادوت أن يسافر هو وأهله الى بلاد السويد ليتولى الملك فيها وهو خاوى الوفاض لا يملك ما يمسك عليه كرامته لولا أن تدارك نابليون الأمر بحكمته وأريحيته فدفع له من ماله الخاص مليونى فرنك حتى يدخل

على شعبه الجديد مرفوع الرأس موفور الكرامة .

وتطورت الحوادث بعد ذلك وعاد نابليون من الروسيا تلك العودة المشئومة . واستأنفت انجلترا جهادها فى سبيل القضاء على غريمها القديم فانتهزت هذه الفرصة لكسب برنادوت وضمه الى التحالف الذى تجمعه . ففى ليلة راقصة أقامتها مدام دى ستايل ببرلين تم الاتفاق بين الطرفين وتعهد برنادوت بأن ينضم الى جانب الحلفاء فى حربهم القادمة ضد بلاده الأولى وقائده القديم .

أما نابليون فانه وقف ثابتاً فى وسط هذه العاصفة المدمرة التى كانت تتجمع تحت عينيه . وقد تمكن بقوة عزيمته وحسن تدبيره من جمع جيش جديد قوامه نحو ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل . ولكن جلهم من الغلمان حديثى السن الذين لم يكن قد حل موعد تجنيدهم بعد . ولم تكن حداثة سن هؤلاء الجنود هى كل ما يعيب هذه الحملة . فان قواتها كلها كادت تكون من المشاة بغير مدفعية ولا فرسان . اذ لم يبق لنابليون بعد الحرب الروسيه شىء من مدفعيته الفخمة التى كانت عماد حركاته . وكذلك كانت قد فنيت خيوله فى سهوب الروسيا ولم يستطع جمع غيرها . فكانت هذه الحملة الجديدة أشبه الأشياء بجملته

الايطاليـة الأولى التى سار فيها على رأس جنود حفاة عراة لاخيل معهم ولا ذخائر . ولعله لم يفته هذا التشابه بين الحملتين حين وقف يتأمل حال هذه الحملة وقصور أدواتها ثم هز رأسه قائلا :

«لا بأس ! فلنقم بأمر هذه الحملة على طريقة الجنرال بو نابرت»
«Je Ferai cette campagne en Général Bonaparte!»

* * *

ولم تكن قد انقضت بعد أربعة شهور على عودة نابليون من الروسيا حين خرج فى الساعة الرابعة من صباح ١٥ مارس سنة ١٨١٣ من قصره بسان كلو ليرأس جيشه الذى أعده للقاء الحلفاء فى ألمـــانيا . وكان كولنكور Caulaincourt رفيقه فى هذه الرحلة المبكرة . فما كادت تسير بهما العربة قليلا حتى انفجر نابليون يبث شكواه وآلامه الى رفيقـه المخلص معرباً عما يخالج نفسه من الحسرة والأسى على فراقه لزوجته وولده وحرمانه من التمتع بهما على النحو الذى يتمتع به أحقر فرد من أفراد رعيته بأسرته .

— « انى لأحسد أقل رجل فى امبراطوريتى على عيشـه فانه فى مثل سنى يكون قد وفى ديونه نحو وطنـه ويستطيع بعد ذلك أن يقيم فى كسر بيته متمتعاً بصحبة زوجه وأولاده.

أما أنا فان واجبي يدفعني الى ميادين القتال ويرمي بي في غمرات الحروب . تلك هي قسمتي في الحياة ! »

وواصل نابليون سيره حتى بلغ مدينة إرفرت في الخامس والعشرين من شهر ابريل سنة ١٨١٣ حيث تولى قيادة الجيش وما كاد يتقدم به قليلا حتى دهمتهم جيوش الحلفاء عند مدينة لوتزن Lutzen فحملت بمدافعها وخيولها على غلمانه الراجلين فمزقتهم وشتتت شملهم وكادت تقضي هذه المباغتة على الجيش الفرنسي لولا اقدام نابليون وضربه المثل الأعلى لجنوده بتعريض نفسه لأشد المخاطر . وظهوره أمامهم في مقدمة الصفوف مستهدفاً لنيران العدو مما أعاد الى جنوده ثقتهم بأنفسهم فثبتوا نحو ثماني ساعات طوال تحت تهطال قذائف الحلفاء . وأخيراً ألقى نابليون بحرسه الامبراطوري على كتائب الحلفاء المتعبة فتراجعت أمامه وتبعها الحرس بكل ما كان مزوداً بهمن مدفعية قليلة واستمر يتعقبها هزيعاً من الليل حتى تم انتصاره عليها . أما نابليون فانه لفرط تعبه طول ذلك النهار كان قد استلقى في ميدان القتال وأغفى اغفاءة قصيرة فلما أيقظوه من نومه ليبلغوه خبر انتصار رجاله على الحلفاء غلب عليه السرور فابتسم لمحدثه قائلا :

— « لقد صدق فى المثل السائر — أن الخير يأتى لصاحبه وهو نائم ! »

وجاء انتصار لوتزن فى وقته بالنسبة لنابليون فان الحلفاء كانوا قد أكثروا من الكلام عن فشله وأفول نجمه وأسرفوا فى اتهامه بالضعف وعدم القدرة على مواجهة دولة واحدة من دول أوربا بله هذا التحالف الجرار . فلما تم له هذا النصر حسنت الحال المعنوية بين جنوده على قدر ما ساءت بين جنود الحلفاء . فظل يتقدم نحو مدينة درسدن وظلوا هم يتقهقرون أمامه حتى دخلها بعد أن أجلوا عنها وإلى جانبه ملك ساكسونى فكان ذلك يوم مشهود فى تاريخ تلك البلاد .

وأقام نابليون فى درسدن أسبوعا ثم تابع زحفه فالتقى مرة أخرى بجيوش الحلفاء عند مدينة باوتزن Bautzen واشتبك معهم فى معركة عنيفة كتب له النصر فيها أيضاً ولكنه كان نصراً فاتراً مريراً . فأما فتوره فلأن الفرنسيين لم يستطيعوا أن يتعقبوا العدو بعد انهزامه لنقص فرسانهم ولذلك لم يكن حاسما مبينا كما كان فى أولم وأوسترلتز أو فى يينا وأورستادت. وأما مرارته فلأن خسائر الفرنسيين المنتصرين كانت فى الواقع أكثر من خسائر الحلفاء المهزومين .

الفصل الرابع

الهدنة المشئومة

زادت معركة باوتزن فى ارتباك الحلفاء ورأوا أن الدائرة توشك أن تدور عليهم كعادتها. وكان الروسيون والبروسيون ينتظرون وصول إمدادات عظيمة اليهم ولكنهم كانوا يعلمون أنه لابد أن تمر بضعة أسابيع قبل أن تصلهم هذه الامدادات. ففكروا فى طلب الهدنة من نابليون.

وكانت النمسا فى مركز يجعل كلا من الفريقين المتحاربين يطمع فى معونتها فنابليون يرى فى امبراطورها أنه صهره الذى تهمه سلامة دولته ورجحان كفته. بينما الحلفاء يرون فى بلاد النمسا ضحية من الضحايا التى فتك بها نابليون وبنى فوق أنقاضها امبراطوريته. والتى يهمها التخلص منه والقضاء عليه إن كانت تطمع فى استعادة شىء من عزها الضائع وكرامتها المهينة.

ولم يكن يخفى شىء من ذلك على مترنخ داهيــة النمسا العظيم فرأى أن يستخدم هذه الظروف لصالح بلاده وأن يساوم الفريقين فمن دفع أكثر من صاحبه فهو حليفه

ومناصره [١] وأحس نابليون بمثل ما أحس به الحلفاء من الحاجة الى الامدادات وجمع الصفوف. فلما جاءته الرسل فى طلب الهدنة وافقهم عليها وشرع يفاوض النمسا فى الانضمام اليه فالتقى به مترنيخ وعرض عليه أن يحارب الى جانبه اذا هو قبل أن يرد لمبارديا والولايات الأليرية وأن ينزل عن هولندا وپولندا ومعاقل نهر الألب والرين وأن ينزل كذلك عن لقب « حامى ولايات الرين » . فثار عليه نابليون ثورة عاصفة ختمها بأن صاح فى وجهه :

— « ترى كم دفعت لك انجلترا لتعلن على هذه الحرب؟ »

على أن نابليون مالبث أن تبين أن فرنسا نفسها تميل الى قبول هذه الشروط حتى لقد نصح له تاليران وكامباسيريس وفوشيه وغيرهم من وزرائه بأن لامندوحة له عن التسليم بهذه المطالب وإلا كان الخطر جسيما بانضمام النمسا الى الحلفاء. فكان هذا الخور من جانب رجاله أشد إيلاما فى نفسه من اجتراء غرمائه على التغالى فيما يطلبون .

وكانت قد وصلت فى هذه الفترة تلك الامدادات التى

---

(١) عرض الحلفاء على مترنخ أن يطلقوا يد النمسا فى ايطاليا وألمانيا تفعل بهما كيف تشاء فى نظير انضمامها الى التحالف

كان يترقبها الحلفاء . وأدرك نابليون أن الهدنة قد أوشك أن ينتهى أجلها وأن مركزه يزداد سوءكل يوم فلم ير آخر الأمر بدا من النزول على إرادة مترنيخ فى كثير مما طلب . وعرض عليه قبوله لمعظم شروطه .

ولكن موقف الحلفاء فى ذلك الوقت كان قد تغير تغيرا تاما . إذ وردت الأنباء من اسبانيا بأن السير أرثر ولسلى قد انتصر على الجيوش الفرنسية انتصارا حاسما فى فتوريا Vittoria وأنه كان إذ ذاك سائرا فى طريقه نحو حدود فرنسا الجنوبية . فلم يتردد الحلفاء فى طلب قطع المفاوضات وإعلان انتهاء الهدنة واستئناف القتال .

ولقد اعترف نابليون فيما بعد بأن موافقته على هذه الهدنة كانت أشأم غلطة ارتكبها فى حياته فأنها كانت سبباً فى تقوية مركز أعدائه بشكل لم يسبق له مثيل حتى أصبح من المحقق لكل ذى بصيرة عند ما استؤنفت الحرب أن نابليون فى محاولته الوقوف فى وجهها لم يكن يحاول غير المستحيل .

الفصل الخامس
حرب الامم

النكبات تترى

رفضت النمسا قبول التسوية التى عرضها عليها نابليون فى سبيل الحصول على معاونتها ضد أعدائه وقررت الانضمام بمائتى ألف جندى إلى هؤلاء الأعداء فارتفع بذلك تعداد الجيوش المتحالفة إلى أكثر من نصف مليون مقاتل . ولم يكن يملك نابليون للقاء هؤلاء غير مابقى له من أولئك الشبان الأحداث الذين خاض بهم معركتى لوتزن وباوتزن .

وكان الحلفاء قد سعوا الى ضم برنادوت اليهم ونجحوا فى ذلك كما سبق لنا البيان فى الفصل الثانى من هذا الباب — وكانوا كذلك بناء على مشورة برنادوت قد استدعوا مورو من منفاه فى أمريكا ليقف الى جانب شريكه فى مقاتلة مواطنيه فلبى الرجل دعوتهم غير مستنكف ولا متردد لعله يتمكن أيضاً من الانتقام لنفسه من نابليون .

وفى تلك اللحظة الرهيبة التى كان يعلق فيها نابليون الآمال الكبار على كل رجل من رجاله فر الجنرال جوميني، الفرنسى Jomini الى صفوف الأعداء يحمل اليهم من المعلومات ما كان يعرفه عن خطط الأمبراطور.

ولقد تولى كولنكور ابلاغ خبر كل هذه النكبات إلى الأمبراطور وهو يروى فى مذكراته كيف تمت هذه المقابلة التاريخية. واليك ما يقول:

« سألنى الأمبراطور هل أعلنت النمسا الحرب رسمياً علينا ؟

قلت — اعتقد يا مولاى أنها انضمت للروسيا وبروسيا

فأجابنى بحدة — ذلك قد يكون رأيك ولكن إذن لم يصبح بعد حقيقة واقعة !

قلت — بل هو حقيقة واقعة يامولاى. ولجلالتكم أن تتأكدوا أنى لا أبنى رأيى فى مثل هذه الموضوعات الخطيرة على مجرد أوهام !

قال — علام إذن بنيت رأيك ؟

قلت — لقد دخل بلوخر البروسى مقاطعة سيليسيا واستولى على برسلاو قبل انتهاء الهدنة بيومين.

قال — ذلك أمر خطير حقيقة فهل أنت متأكد مما تقول ؟

قلت — لقد تناقشت يامولاى مع مترنيخ فى هذا الأمر مناقشة هامة قبل قيامى من براج . وقد علمت أيضاً أن الجنرال جوميني قد فر من معسكرنا وهو الآن مع القيصر اسكندر .

فصاح نابليون : جوميني ؟ ذلك الرجل الذى غمرته بإحسانى ! ياللخائن ! يهجر معسكره فى ليلة المعركة ! ويحمل الى الأعداء أخبار قواتنا وأوصاف حركاتنا ! ذلك مالا يصدقه العقل ! » .

وقد كان هياج الأمبراطور عظيما وهو يقول هذه الكلمات حتى أنى أمسكت فلم أتم ما كنت أريد أن أقول . ولكنه ما لبث أن صاح بى قائلا :

— أهذا كل ما عندك ؟ تكلم يا كوانكور ! أخبرنى بكل شىء ! يجب أن أعرف كل شىء ! .

فقلت — إن دائرة التحالف قد اتسعت يامولاى — فقد انضمت اليها أيضاً السويد !

فأجابنى — ماذا تقول ؟ برنادوت ! برنادوت يحمل السلاح فى وجه فرنسا ؟ حقا هذا هو جزاء سنمار !

قلت — ولم يكتف برنادوت باشهار سيفه فى وجه وطنه ولكنه سعى فى ضم أبناء فرنسا الخارجين عليها إلى صفوف

الأعداء كأنه أحس أنه لا يستطيع أن يتلقى بمفرده لعنات مواطنيه .

قال — ماذا تعنى ؟

قلت — لقد انضم الجنرال مورو إلى معسكر الحلفاء !

فصاح — مورو فى معسكر الحلفاء ؟ هذا لا يمكن ! لست أستطيع تصور هذا يا كولنكور ! أبدا . هذا كلام لا يحتمل الصدق ! وكيف عرفت أنت كل ذلك ؟ »

ويستطرد كولنكور على هذا النحو يسرد هذا الحوار العجيب الذى دار بينه وبين الأمبراطور مبيناً عن الظروف التى سار فيها نابليون على رأس شبانه الأحداث للقاء ما يربو عن نصف مليون من جنود أوربا المدربين .

درسدن — آخر نصر كبير

على أن الخطة التى رسمها برنادوت ومورو للحلفاء بناء على نصائح جومينى ومعلوماته كانت على الرغم من كل ذلك مهاجمة قواد نابليون وتحاشى الاشتباك معه هو شخصياً . حتى تفنى قوته شيئاً فشيئاً دون التصدى لمواجهته والتعرض لأخطاره .

وفطن نابليون إلى ما اعتزمه الحلفاء فعدل عن خطة الدفاع التى كان ينوى انتهاجها على غير عادته وقرر أن يكون جيشه البادىء بالهجوم .

فانقض هو والماريشال ناى على بلوخر فى برسلاو . فما كاد هذا يعلم بقدومه حتى ولى الأدبار هو وجيشه العظيم تطبيقا للمبدأ الذى وضعه الحلفاء وهو تحاشى الاشتباك مع نابليون .

ولكن خروج نابليون من درسدن لمهاجمة بلوخر أطمع بقية جيوش الحلفاء فى الاستيلاء عليها لأفساد خططه التى دبرها على أساس جعل هذه المدينة قاعدة لأعماله الحربية . فزحف عليها شوارتزنبورج Schwarzenberg من الجنوب على رأس جيش جرار قوامه مائتا ألف مقاتل فى حين لم يكن بالمدينة غير ثلاثين ألف فرنسى . فأرسل قائد هذه الحامية الضعيفة يستنجد بنابليون لعله يستطيع إدراكه قبل أن يصل اليه شوارتزنبرج وجنوده .

وفى صباح ٢٦ أغسطس سنة ١٨١٣ بدأت طلائع جيوش الحلفاء تطلق نيرانها على المدينة . فوقع أهلها فى حالة يأس شديد وطلبوا إلى قائد الحامية أن يحقن دماءهم بطلب التسليم . ولكنه كجندى لم يكن يستطيع أن يستمع إلى توسلاتهم وبقى

على رأس قوته يتلقى نار العدو حتى انتصف النهار . وعند ذلك سمع فى الجهة الشمالية من المدينة صياح يشق أطباق الجو . وهتاف حار بحياة الأمبراطور . فكان ذلك ايذاناً بوصول نابليون . ودبت الشجاعة والطمأنينة فى قلوب الأهالى وملك الفرح عقول الجند حتى تعذر على الضباط حفظ النظام بينهم إذ تدفقوا جميعاً نحو مبعث ذلك الهتاف ليلاقوا قائدهم الأعلى فما أن وقع بصرهم عليه حتى أخذوا يتصايحون :

— « هاهو ! هاهو ! انه هنا ! »

والتفوا حوله وانقلب فزع الناس واضطرابهم إلى فرح وصخب وتصفيق وهتاف كأنه لم يكن بينهم وبين الدمار المحقق الا بضع ساعات .

أما نابليون فانه أسرع الى أسوار المدينة الجنوبية يعاين منها موقع الأعداء وكان قد خرج وحده غير مصحوب الا بتابع واحد حتى لا يستلفت أنظار العدو الى نفسه . فلم يسر غير بعيد حتى أصابت تابعه هذا رصاصة أردته قتيلا . فقفل راجعاً وعول على مهاجمة جيش شوارتزنبرج فى الحال . وكانت بقية جيشه قد وصلت فى ذلك الوقت الى المدينة متعبة مجهودة بعد أن قطعت نحو ٩٠ ميلا فى نحو سبعين ساعة . ولكنهم

ما كادوا يدخلون المدينة و يقفون على حقيقة الموقف فيها حتى أبوا أن يضيعوا دقيقة واحدة يتزود فيها الجائع بما يسد رمقه ويتناول فيها الصادى ما يطفىء ظمأه . وأسرعوا يلبون نداء قائدهم لدرء الخطر قبل أن يستفحل ويضيع الأمل فى النجاة

وطال تبادل النيران فى ذلك اليوم العصيب بين الفريقين وأخيراً أطلق نابليون ثلاثة من قواده الأمجاد على العدو فاقتحموا صفوفه وأوقعوا فيها الرعب والفزع . وكان شوارتزنبرج فى تلك الساعة على ربوة عالية يشرف منها على ميدان القتال والى جانبه اسكندر قيصر الروسيا وفردريك وليم ملك بروسيا . وكانوا يحسبون جميعا أن نابليون ما زال مشغولا بمطاردة بلوخر فى سيليسيا فما هو أن رأوا تلك الهجمه العنيفة التى قام بها الفرنسيون حتى صاح شوارتزنبرج قائلا :

— « ان الامبراطور لابد أن يكون فى درسدن . فخير ما نستطيع أن نفعله الآن هو أن نلم شملنا ونجمع صفوفنا . »

وكان الجو عاصفاً والسماء ممطرة ولم يكن نابليون قد برح سرج جواده منذ طلعة النهار . فتمكن المطر منه حتى بلل

قيصه . وأخيراً أقبل الليل فبدأ العدو يسترد المواقع التى أجلى عنها أثناء النهار . وهجع جنود نابليون يلتمسون قسطهم من الراحة بعد كل هذا العناء . أما نابليون فانه بقى الى ما بعد منتصف الليل يعد العدة للغد ويطوف بأنحاء المدينة حتى يبصره رجاله ويرون أنه لا يتركهم فى ذلك القر والعراء ليتقلب هو فى الفراش الدافى والمضجع الوثير .

واستؤنف القتال فى فجر اليوم التالى بعد أن تعززت قوى الفريقين بما استطاعا جمعه خلال الليل من الامدادات واستمرت المعركة حامية الوطيس حتى الساعة الثالثة بعد الظهر . وحدث بطريق المصادفة أن وقف نابليون وسط جماعة من الفرسان تتسلق مرتفعات الأرض قبالته بقصد الاستطلاع فأراد تفريقهم فبعث الى رئيس البطارية رسولا يقول له :

Jettez une douzaine de boulets à la fois, dans ce groupe là, peut être il y a quelques petits generaux.

« صوبوا بضع طلقات مرة واحدة على تلك الجماعه لعل فيها بعض القواد الصغار ! »

وتشاء المصادفة أن يكون مورو وسط تلك الجماعة وأن تصيبه احدى تلك الطلقات فى ساقيه فيكون ذلك سبباً فى

بترهما بعملية جراحية تزهق روحه بعدها بيومين فيحرم من التمتع بثمرة خيانته !

على أن هذه المعركة انتهت بارتداد الحلفاء عن أسوار درسدن وتقهقرهم نحو بوهيميا بعد أن خسروا نحو ٣٠ ألف أسير وأكثر من عشرة آلاف ما بين قتيل وجريح . ولكن هذا النصر كان آخر نصر عظيم أحرزه نابليون فى حياته إذ انعكست الآية بعد ذلك معه فتكاثر عليه أعداؤه وتخلى عنه أنصاره . وفر من معسكره كثير من رجاله . فلم تكن انتصاراته الفاترة التى أحرزها بعد ذلك الا بمثابة الخدوش التى يحدثها النمر الصريع فيمن يحاول الدنو منه وهو فى حشرجة الموت .

ولقد ظهرت على نابليون أيضاً عقب « درسدن » مباشرة أعراض ذلك المرض الشديد الذى ظل ينتابه ويفت فى عضده حتى انتهى آخر الأمر بهلاكه . وقد كنا ذكرنا فى بدء الكلام عن واقعة درسدن أن نابليون أجهد نفسه أياماً فى محاولة العودة الى تلك المدينة قبل وصول الحلفاء اليها ثم فى أثناء الواقعة التى دارت رحاها يومين طويلين لم يكد يذوق فى خلالهما طعم الراحة على الرغم من تأثره بالبرد والمطر . وكان من جراء ذلك كله أن انتابته نوبة برد حادة مصحوبة

بمغص أليم وقيء عنيف حتى خيل اليه أن بعض أعدائه لا بد أن يكون قد توصل الى دس السم له فى شيء من طعامه . ولقد كانت هذه النوبة نفسها ذات أثر عظيم فيما استجد بعدها من الحوادث فانها لم تمكنه من مطاردة أعدائه بعد ارتدادهم عن درسدن وكان ذلك سبباً فى استعادة قواهم بسرعة واستعدادهم للقائه مرة أخرى فى ليپزج . ولو أنه تعقبهم كما كان يفعل فى كل حروبه السابقة وحطم رأسهم بعد أن قطع ذنبهم لما قامت لهم قائمة ولتغير وجه هذه الصفحات الحزينة التى ينتهى بها تاريخ نابليون .

ليبزج — المذبحة الرهيبة :

ولكنه اضطر بسبب مرضه الى أن يوزع الجيش على قواده وأن يطلق كل قائد منهم فى أثر جيش من جيوش الأعداء بغية القضاء على تحالفهم « بالمفرق » ما دام قائد « الجملة » مريضاً لا يقوى على النهوض . غير أن الحظ السيء لازم هؤلاء القواد فى كل مكان فانتصر بلوخر (البروسى) على مكدونالد (الفرنسى) فى الشمال واضطر فندام Vandame فى الجنوب الى تسليم كل قوته للنمساويين بينما انهزم الماريشال

ناى هزيمة منكرة أمام القائد بيلوف (الروسى) وهو يحاول الهجوم على برلين .

عند ذلك تشجع الحلفـــاء واقترح عليهم برنادوت أن يقوموا بهجوم عام يسير هو فى طليعته ليطوق نابليون ويقطع عليه خط الرجعة إلى فرنسا — وعند ذلك أيضاً تنبه نابليون الى خطورة هذه الحركة ولم يجد علاجا لدفعها إلا أن يندفع مرة واحدة هو وكل من معه نحو الشمال لاحتلال كل البلاد الكبيرة التى يكون الحلفاء قد أخلوها وهم يحاولون الالتفاف حول جيشه فيصبح فرضاً عليهم أن يرتدوا للدفاع عن مدنهم ومعاقلهم .

ولكنه ما كاد يشرع فى تنفيذ هذه الخطة المسددة حتى علم بأن حليفه ملك بافاريا قد تخلى عنه وانضم للحلفاء . وأن ملك وورتمبرج أيضاً قد حذا حذوه . وأن جيشاً جراراً من جيوش الحلفاء يزحف نحو الحدود الفرنسية . وأن خمسمائة ألف جندى آخر يطبقون على مدينة درسدن .

فأما هو فلم تزده هذه الصدمات إلا تنبهاً ونشاطاً وقوة عزم وأما قواده — الذين رفع بعضهم بيده من الصفوف وبلغ بهم قمة المجد — فقد سئم معظمهم هذا القتال المتواصل

وودوا لو تفاهموا مع دول أوربا على أى أساس صالح للتسوية حتى يعودوا إلى قصورهم وبلادهم ويقيموا بين زوجاتهم وأولادهم ويتمتعوا بثمرة نضالهم وجهادهم . وكان مسلكهم فى هذا الظرف العصيب أشق على نفس نابليون من مسلك أعدائه المكشوفين حتى لقد بقى على اثر فرارهم يومين كاملين وهو فى حالة عصبية أليمة وعذاب نفسانى شديد ، وأراد كولنكور أن يخفف من ألم مولاه بالتماس العذر للقواد فيما فعلوا . فقال :

— « ان كلام القواد يامولاى لا يمكن أن يحمل الا على أنه اقتراحات . والرأى الأعلى فيها لكم ! »

فكان جواب نابليون الحاضر :

— « ما أظنك تتوهم ذلك يا كولنكور . وسوف يكون لهذا الأمر عواقبه المخيفة المدمرة فان اليوم الذى تقوم فيه « الحراب » بمهمة التفكير هو اليوم الذى تفر السلطة فيه من « الصولجان » !

واضطر نابليون ازاء تخاذل قواده الى العدول عن خطته والرجوع الى « ليبزج » ليقف فيها لأعدائه وقفته اليائسة الأخيرة فقد كان جيشه حوالى مائة ألف يتناقص عددهم

يوماً بعد يوم بينما كانت قوة الحلفـــاء ٣٥٠ ألفاً تصلهم الامدادات من كل صوب فى كل يوم .

وفى الساعة التاسعة من صباح ١٦ اكتوبر سنة ١٩١٣ بدأت معركة ليبزج الشهيرة التى لم تكن فى الواقع الا مذبحة رهيبة يظفر فيها جيش كبير بجيش صغير وتكون كل مهمته أن يجهز عليه .

ومما زاد الطين بلة فى هذه الظروف القاسية ان عاودت نابليون فى ليلة السابع عشر من هذا الشهر — أى بعد ابتداء المعركة بيوم واحد — أعراض ذلك الداء القاتل الذى أصيب به فى معدته فبينما هو فى خيمته يتحدث الى جلسائه عن شئون الغد وما سوف يأتيهم به إذ جاءته النوبة فامتقع لونه وتقلت أنفاسه وتقلص وجهه وارتمى فوق مقعد فى طرف المكان وقد وضع يده على معدته قائلا :

« أشعر بألم شديد . إن جسمى ينهار ولكن روحى لم يعتورها الضعف ! » .

فأسرع اليه كولنكور قائلا :

— « سأبعث فى طلب الطبيب يامولاى ! » .

فأجابه نابليون على الفور :

ــ كلا ! كلا ! أريد أن لا تفعل . إن خيمة الملك شفافة، كالزجاج لا تحجب ماوراءها فيجب على أن أبقى على قدمى حتى يبقى كل انسان فى مركزه . .

وأمسك بيد كولنكور وضغط عليها بلطف ثم رفع بصره اليه قائلا :

ــ سآخذ فى التحسين حالا يا كولنكور فلا تدع أحداً يدخل علينا الآن !

وفى الغد كان نابليون مرة أخرى على ظهر جواده يشرف على قوته الضئيلة وقد أحاط بها العدو من ثلاث جهات ثم مالبث أن جاءه من يبلغه أن برنادوت أغرى السكسونيين، الذين كانوا فى خدمته على أن يتخلوا عنه أيضاً وينضموا بمدافعهم وذخيرتهم الى الحلفاء .فبهت نابليون فى سرجه لهذا الخبر . ووقف جامداً كأنه تمثال من الحجر الأصم . ثم رفع بصره الى السماء كأنما يريد أن يحتج لديها على هذه الخيانة الشنيعة ولم تنفرج شفتاه إلا عن كلمة واحدة أودعها كل ما كان يحس به من مرارة وألم وهى : « ياللعار ! »

وعلى الرغم من كل ذلك فقد وقف الفرنسيون يناضلون طول اليوم . ويدفعون عن مراكزهم تلك الجموع الجرارة

التى كانت تكر عليهم بقضها وقضيضها . ثم لا تلبث أن تتحطم على حرابهم العنيدة . فترتد لتستأنف الهجوم عليهم من جديد

وفى اليوم التالى بلغت خسائر الفرنسيين ستين ألفا . فلم يبق إلا التقهقر والانسحاب . وقد بدأ هذا الانسحاب فى الساعة الرابعة من مساء يوم ١٩ اكتوبر وظل سحابة الليل فى غفلة من الحلفاء . ولم يكن بالمدينة غير جسر واحد يستطيع أن يعبر به الفرنسيون نهر Elster الواقع فى غرب المدينة . فتدافعوا فوقه ولكنه نسف قبل أن تدركه بقية الجيش . وظل منهم نحو ٢٥ ألف تحت رحمة أعدائهم الذين كانوا قد دخلوا الى المدينة مع طلوع شمس اليوم التالى . ولا حاجة بنا الى الافاضة فى وصف ما حل بهؤلاء التعساء فقد تنوعت ميتاتهم فى ذلك اليوم العصيب ولم ينج منهم الا قليل .

الفصل السادس

انهيار البناء

تتابعت الحوادث سراعا بعد معركة ليبزج . وهطلت سماء المحن مدرارا فوق راس نابليون . فاذا هو يرى بنيان امبراطوريته الفخم يتداعى أمام ناظريه كأنه أشباح الأحلام تزاحمت ساعة فى رأس مهموم لم يلبث أن يفيق .

وكان سر نكبته فى تلك الساعة الرهيبة سلسلة من الخيانات لم يكن يتوقعها أشد الناس يقظة وأكثرهم حذرا . فقد تخلى عنه حلفاؤه المخلصون . وخذلته فرنسا نفسها وطنه المحبوب. وأنكره أصهاره وأقاربه بل أنكره إخوته وأخواته الذين رضعوا معه من ثدى واحد . وربطتهم وإياه روابط النشأة والدم

فأما حلفاؤه فقد بادروا إلى الانضواء تحت لواء أعدائه ليجاروا التيار الجديد سالكين فى ذلك مسلك بافاريا وورتمبرج لاسيما بعد أن شاهدوا بأعينهم مصير ملك سكسونيا التعس (حليف نابليون المخلص) الذى أدركه الحلفاء فى ليبزج

فاسروه وبعثوا به سجينا إلى برلين . وبذلك أفلتت من قبضة الامبراطور دفعة واحدة كل المانيا وإيطاليا فضلا عن ضياع اسبانيا التى استولى عليها الانجليز . وهولندا التى أعلن أهلها ولاءهم لأسرة أورانج التى منها ملوكهم القدماء .

وأما فرنسا فقد شاهدت زهرة شبابها تفنى بين يدى نابليون ولا تكاد تدرك من ذلك إلا أنه هو الذى يخرج بنيها صفوفاً إلى ميادين القتال ثم لا يلبث أن يعود من غيرهم ليجمع صفوفا أخرى . وقد كان ذلك محتملا عندها فى أول الأمر حين كانت تراه يعود اليها مثقل الوطاب بالغنائم والأسلاب . أما الآن وليس يسير فى ركابه غير البؤس والهزائم فهى لا ترى إلا أن تخذله وتقعد عن معونته . وتصدق فيه قول خصومه من أنه رجل سفاح مريض بداء العظمة الجوفاء . مصاب بآفة التعطش الى الدماء .

على أن المحنة الحقة التى فتت فى عضد نابليون وكانت أشد وقعاً فى نفسه من وقع كل هذه المحن هى فرار إخوته منه وهم عدته التى كان يدخرها لمثل هذا اليوم العبوس . فأخوه لويس كان أول من خرج عليه . أما جيروم ملك وستفاليا فأنه هجر مملكته وشعبه ليخلى السبيل بينهما وبين الحلفاء . كما

أن يوسف رفض أن يتولى القيادة العسكرية فى مدينة باريس حين عرضها عليه نابليون فى هذه المحنة الأخيرة . أما لوسيان فكان قد ضاع منذ زمان بعيد كل عمار بينه وبين أخيه [١] .

هذا من جهة إخوته . أما من جهة أخواته فأن كارولين — زوجة مورا (ملك ناپولى) كانت أهم عامل فى إغراء زوجها بالانضمام الى جانب الحلفاء لعل ذلك يكون شفيعا لهما عندهم فيبقيان على عرش ناپولى اذا ما دارت الدائرة على نابليون. واما إليزا Elisa فأنها كانت ترى مع « فوشيه » أن الحل الوحيد الذى ينقذ فرنسا من هذه الأزمة التى وقعت فيها هو . . . . . « أن يموت الأمبراطور » !

وهكذا وقف نابليون وحده فى وسط هذه الملمات لا يجد إلى جانبه من بين أهله من يسند ظهره أو يشد أزره اللهم إلا أمه الطيبة ليتيشيا التى حاولت عبثا أن تجمع أبناءها حول أخيهم العظيم والتى لم تكن تملك له بعد اليوم إلا دمعة أسى تذرفها بين يديه .

---

(١) كان لوسيان قد تزوج بسيدة من عامة الناس وأراد نابليون أن يعينه ملكا كما عين بقية إخوته . يوسف ولويس وجيروم . فطلب اليه أن يطلق زوجته حتى يصعد الى العرش والى جانبه أميرة من أميرات أوربا ولكن لوسيان رفض كل ما عرض عليه نابليون مضحيا بذلك فى سبيل الاحتفاظ بزوجته وأولاده .

الفصل السابع

الحلفاء فى باريس

يخال القارىء أن نابليون بعد معركة ليپزج وبعد كل هذه النكبات التى تبعتها سوف يتلقى ضربات الحلفاء فوق رأسه واحدة بعد واحدة ويظل يتقهقر أمامهم من بلد الى بلد حتى يلتجىء آخر الأمر الى باريس فيتحصن فيها ثم يقتحمها الحلفاء عليه فيأسرونه ويبعثون به الى منفاه . فهذا على ما يظهر هو منطق الحوادث المعقول .

ولكن الذى حدث فعلا كان من العجيب يناقض ما يقتضيه هذا المنطق على خط مستقيم . فأن نابليون ظل ينتصر فى تقهقره من بلد الى بلد واستمر يكيل الضربات للحلفاء وجيوشهم حتى دخلوا أمامه باريس . فاعتزل الملك بعد ذلك ثم تفاهم مع خصومه على أن يبرح فرنسا ويستعيض عن ملكه فيها بجزيرة إلبا المتواضعة ليقضى فيها أيامه الباقية .

أما تفصيل ذلك فهو أن نابليون خرج من ليپزج ليلة

التاسع عشر من شهر أغسطس متجها نحو إرفرت ولكن الجيوش الألمانية أصرت على اللحاق به وقطع خط الرجوع عليه ونجح الجنرال Wrede النمسوى فعلا فى الوقوف له عند قرية (هاناو) معترضا طريقه بنحو خمسين ألف جندى . وأكثر من مائة مدفع . عند ذلك رأى نابليون نفسه محصورا بين خصومه من الأمام ومن الخلف . فلم ير إلا أن يلقى ريد وجنوده ليزيحهم عن طريقه ويتابع سيره الى فرنسا . وقد جاء هذا اللقاء فى الواقع آية من روائع آيات نابليون الحربية فأنه جمع رجاله واستجم قوته ثم كر على خصومه فاقتحمهم ومر بجيشه فوق أجسامهم وخلفهم فى الميدان فلولا وأشلاء وواصل سيره حتى بلغ مدينةماينز على نهر الرين .

ولقد كان الحلفاء حتى هذه اللحظة على اتفاق تام إذ لم يكونوا يفكرون إلا فى التغلب على نابليون وكسر جيوشه . ولكنهم بعد أن رأوا آخر جندى فرنسى يعبر حدود الرين القريبة . انقسموا فيما بينهم . فمنهم من رأى الاكتفاء بذلك وعدم مطاردة الفرنسيين داخل حدودهم لأن هذا سيكون حافزاً لهم على استئناف القتال بيأس واستبسال . ثم أنه سوف يبرر عمل نابليون إذا هو طلب إعداد جيش جديد . وفى هذا

أيضا من الخطر مافيه . وعلى ذلك اقترح هذا الفريق — وعلى رأسهم مترنيخ — أن يعرض على نابليون الصلح على أساس الحدود الطبيعية لفرنسا . (وهى من الشرق نهر الرين . ومن الجنوب جبال البرانس . ومن الشمال والغرب بحر المانش وخليج بسكاى) أما الفريق الآخر — وكان على رأسه بلوخر البروسى — فأن الأحقاد التى كانت تغلى فى صدره حالت دون الاستماع إلى هذه الدعوة ورأى فى تلك الظروف فرصة سانحة للقضاء على خصمه الجبار العنيد فأصر على أن يتابع خصمه فى سيره داخل الحدود الفرنسية وأن يواصل زحفه حتى باريس نفسها ليملى إرادته فيها على ذلك الجبار العنيد .

وأخيراً انتصر أهل هذا الرأى . واضطر أصحاب الرأى الأول الى سحب اقتراحهم على الرغم من أن نابليون كان قد بعث اليهم رسوله ليبلغهم قبوله الصلح على هذا الأساس . وتقدم بلوخر من الشرق وإلى جانبه النمسويون بينما كان ولنجتون يزحف من الجنوب . وجيوش برنادوت توالى سيرها لتدخل فرنسا من جهة الشمال .

وقد بلغ تعداد جيوش الحلفاء بانضمام هذه العناصر بعضها الى بعض نحو ٣٠٠ ألف مقاتل . على أن الألمان ما كادوا

يتقـدمون قليلا فى داخل الحدود الفرنسـية حتى دهمهم الأمبراطور فى أربع مواقع وفتك بهم فتكا ذريعاً وذلك فى فى أربعة ايام متتالية .

أزاء ذلك لم ير بلوخر بدا من الارتداد نحو الشمال كى يتصل ببرنادوت لعله إذا أضاف قوته إلى جيوشه يتعزز مركزه وتثبت أقدامه فى اللقاء التالى . ولـكنه لسوء حظه ما كاد يضم إمدادات برنادوت إلى صفوفه حتى أصيب بمرض أقعده عن العمل وحرمه وقتاً ما ثمرة جهوده .

وهكذا بقى نابليون ستة أسابيع طوال يدافع الحلفاء فيها عن باريس بحفنة من الجنود يثب بهم ههنا وههنا ويرد بهم سيلا جارفا من جنود الأعداء إلى أن وهنت فى آخر الأمر قواه . وكان ولنجتون فى تلك اللحظة يزحف من مدينة تولوز فى جنوب فرنسا قاصدا إلى باريز بينما كان بقية الحلفاء فى الشمال قد وقفوا لنابليون وقفة الذئب الجائع العنيد أمام فريسته المحتضرة الثائرة — يخشاها وفى نفس الوقت يطمع فى اغتيالها .

على أن نابليون لم ير أن يستسلم حتى فى هذه الساعة الأخيرة التى لم يبق فيها بارقة من أمل فى النجاة . وعزم على أن

يترك الحلفاء يهاجمون باريس كيف يشاءون ويلتف هو حولهم ليأخذهم من خلفهم . وكانت باريس فى ذلك العهد عاصمة الأمبراطورية النابليونية الواسعة التى كانت تتزايد أطرافها مع كل مطلع شمس . فلم يلتفت أحد الى أمر تحصينها ولذلك أقبل الحلفاء عليها حين أقبلوا وليس يتولى الدفاع عنها إلا القائدان مارمون وموريتيه Marmont & Mortier ومع كل واحد منهما بضعة آلاف جندى . فجد نابليون فى أثر الحلفاء وكاد ينجح فى خطته لولا أن قيض الله لها من نقل تفصيلاتها إلى أعدائه وأوقفهم على سرها فأفسدها عليه .

وعلى الرغم من كل ذلك تقدم نابليون بالخمسين ألف الذين بقوا معه . وكان ذلك موضع الدهشة والقلق فى نظر من يحيط به من القواد . فلم يتمالك أحدهم أن نبهه إلى تفوق الحلفاء عليه فى العدد بشكل لا يدع مجالا لهذا القتال العقيم . فما كان من نابليون إلا أن صاح فيه :

— « ما ذا تقول ؟ إن معى ٥٠ ألفا وباضافتى اليهم نصبح مائة وخمسين ألف ! فهل هذا قليل ؟ » .

وجد نابليون فى طريقه لا يلوى على شىء ولا يشغله إلا خاطر واحد وهو كيف يمكن الحصول على جيش جديد

فى هذه الضائقة التى خذله فيها رفاقه ولم يكد يبقى معه منهم أحد . وأخيرا صاح هاتفاً بنفسه :

« سأجند الفلاحين ! فهم الطبقة المخلصة الوحيدة التى تتبعنى الى حيث أسير . »

وضاعف سرعته عند ما لاح له هذا الخاطر لعله يصل الى باريس قبل الحلفاء فيقبض فيها على زمام الحكم من جديد

ولكنه لم يسر غير بعيد حتى لقى جماعة من الجند على رأسهم ضابط صغير . فتقدم الضابط نحو الأمبراطور وأبلغه أنه مكلف من قبل الجنرال مورتيه بالعمل على إيواء الجنود المتقهقرين . فحدق فيه نابليون تحديقة طويلة لعله يستشف بها معنى كلامه ثم قال مستفسرا :

الجنود المتقهقرين ؟ وأين إذن الأمبراطورة ؟ وأين الملك يوسف ؟ .

— سافرت جلالتها أمس الى بلو Blois هى وملك روما أما الملك يوسف فقد غادر باريس اليوم .

— ومارمون ؟ .

— لا أدرى يامولاى ! .

عند ذلك أدرك نابليون أن باريس فى خطر محدق .

فتجمع العرق قطرات كبيرة على جبهته فى انفعال عميق ثم لم يلبث أن صاح :

— « إلى الأمام ! إن الحرس الوطنى والشعب سيقفان الى جانبى . ومتى احتوتنى أسوار باريس فأنى لن أخرج منها إلا على محفة النصر أو على عربة الموتى ! » .

ولكنه لم يكد يقترب من باريس ويشرف على نهر السين الذى يشق المدينة إلى نصفين حتى رأى أنوارا تتلألأ فوق صفحته ولمح أضواء تنضنض على شاطئه المقابل . فتمعنها جيداً فاذا هى مصابيح معسكر الحلفاء وقد رابطوا فى قلب المدينة وأخذ جنودهم يحيون الليل بالهتاف والغناء وأنغام الأناشيد .

فوقف برهة يرسل نظراته الملتهبة فى ظلمات ذلك الليل ثم انكفأ قائلا :

— لنركب إذن إلى فونتنبلو Fontainbleau !

الفصل الثامن

النزول عن العرش

أشرق فجر يوم اول ابريل سنة ١٨١٤ على فارسين محزونين ظللتهما الكآبة وأثقلت قلبهما الهموم يسير أحدهما نحو باريس ويسير الآخر نحو فونتبلو . فأما فارس باريس فكان كولنكور وزير خارجية نابليون . ورسوله الى القيصر بعث به اليه لعله يستطيع إقناعه بوجوب الاحتفاظ بعرش فرنسا لنابليون والاكتفاء باملاء شروط الصلح التى ترضى أوربا وأما فارس فونتنبلو فكان نابليون نفسه قصد إلى قصره فيها ليكون قريباً من جنوده الذين تراجعوا عن باريس ولينتظر ريثما يأتيه الرسول بما يستقر عليه رأى الحلفاء فى امره .

وقد استطاع كولنكور ان يصل الى باريس وان يتصل بالقيصر . بل لقد استطاع ان يكسب القيصر إلى صف مولاه على الرغم من كل ما كان بينهما . ولكن القيصر لم يخف عن كولنكور ما كان الحلفاء يضمرونه لنابليون فكاشفه بعزمه

على إعادة البربون . بل لقد كاشفه ايضاً بما كان يضمره الغلاة منهم له إذ كانوا يعتزمون القبض عليه اولا ثم نفيه الى اقصى الأرض . غير انه وعد بأنه سيعترض هذه الفكرة ما امكنه الاعتراض . وطلب اليه ان يعجل فى العودة الى فونتنبلو ليقنع نابليون بالنزول عن العرش لولده ملك روما لعله يستطيع بذلك ان يحصل من الحلفاء على قبول هـــذا التنازل والاكتفاء به فسأل كولنكور :

— ولكن ما ذا سيكون مصير الأمبراطور نفسه فى هذه الحالة ؟ فأجابه القيصر :

«اطمئن فأنت تعرفنى تمام المعرفة . ولن اسمح بتقرير اى امر فيه مساس بالأمبراطور . فأسرع الى فونتنبلو وعد إلى بهذا التنازل » !

وعاد كولنكور والأسف يأكل فؤاده على ان سوء حظه جعل من نصيبه ان يقوم هو بهذا الواجب الخطير . واجب مطالبة نابليون بالنزول عن العرش . على ان كل ما كان يعانيه كولنكور بهذا السبب من الآلام النفسية القاسية لم يشفع له عنـد نابليون حينما وقف منه على فحوى رسالته فانفجر فيه كما كان دأبه ان يفعل حين يهتاج فما كان من

كولنكور ايضاً إلا ان صاح به :

« أنت يامولاى لاتعرف الرحمة فأن الصدمة التى يحسها قلبك الآن قد فطرت قلبي قبل أن تصل الى فؤادك . ولقد قضيت ثمانية وأربعين ساعة اتلوى تحت وقعها قبل أن أتقدم اليك ! »

فانهزم نابليون أمام هذه الكلمات ولكنه عاد يهدد بجنوده ومدافعه ويتكلم عن الزحف على باريس والانتصار على الحلفاء واثارة خواطر الشعب عليهم وطردهم من بلاده وكان يطمع فى مؤازرة مجلس الشيوخ له اذا ما خذلته بقية هيئات الحكومة لانه كان أطوع اداة فى يده طوال السنين الماضية كما كان عليه اعتماده فى كافة ما أحدثه من التشريعات الاستثنائية والانقلابات . غير أن رياسة هذا المجلس كانت قد آلت أخيراً الى « تاليران » داهية فرنسا الذى أقصاه نابليون من مركزه فى وزارة الخارجية لما آنس فيه من الاعتداد بالنفس والاستقلال بالرأى . فكان ذلك سبباً فى نكبة جديدة نكب بها نابليون فى هذا الطرف الدقيق اذ استطاع تاليران أن يحمل المجلس على تقرير خلع الامبراطور. واقامة حكومة مؤقتة بدل حكومته ريثما يتم الصلح مع الحلفاء .

فلما فوجىء نابليون بهذا القرار عول على رد كيــــد هؤلاء المتخاذلين فى نحورهم فقام باستعراض جنوده الباقين . وعقد اجتماعاً عاماً فى فونتنبلو من سراتها وكبار القواد فيها ليضعوا من القرارات ما ينسخ أثر قرارات مجلس الشيوخ من أذهان الشعب بيد أن القرار الوحيد الذى قبل هؤلاء النـاس أن يعلنوه هو أن كل شىء قد ضـاع وأنه لم تبق أدنى فائدة فى المقاومة .

عند ذلك سقط فى يد نابليون وانسحب الى غرفته وقضى بضع ساعات اليمة وهو يقلب وجوه الرأى ويلتمس الهداية فى هذه الظلمـات التى أطبقت حواليه فلم ير بدا من الأخذ بنصيحة القيصر ولذلك أرسل يستدعى كولنكور وسلمه نص هذا التنازل :

(انه لما كان الحلفاء قد اعلنوا أن الامبراطور نابليون هو العقبة الوحيدة فى سبيل عودة السلم الى أوربا فأن الامبراطور نابليون يعلن استعداده للنزول عن العرش وترك فرنســـا ومفارقة الحياة نفسها نزولا على حكم القسم العظيم الذى أقسمه للعمل على ما فيه صالح الوطن . وذلك من غير مساس بحقوق

ولده ووصـــاية الامبراطورة عليه والاحتفاظ بقوانين الامبراطورية)

صدر عن سرانيا بفونتنبلو فى ٦ ابريل سنة ١٨١٤

* * *

على أن كأس النحس التى أبت المقادير إلا أن يكرعها نابليون حتى الثمالة كانت لا تزال فيهـــا بقية . فان القائد مارمونت الذى كان لا يزال على رأس أكبر قوة فرنسية سليمة والذى كان يطمع نابليون فى جيشه حين كان يتكلم عن مهاجمة باريس وطرد الحلفاء منهـا جاء فى هذه اللحظة الرهيبة وانضم بجنوده الى الحلفاء أنفسهم . فانقطع كل أمل لنابليون فى النجاة . ولم يفت الحلفاء تقدير هذا العامل الجديد وهم يتفاوضون فقضوا أن لا بد من نزول نابليون نزولا مطلقاً لاقيد فيه ولا شرط ولم يكن لهذا من معنى إلا التصميم على إعادة البربون إلى فرنسا .

فعاد نابليون فى بادىء الأمر الى هياجه وثورته . وعاد يهدد بأنه يستطيع أن يثير كل فرنسا على هؤلاء الذين جاءوا ينكرون على الفرنسيين حقهم فى اختيـــار مليكهم والذين يريدون اكراههم على قبول ملك خلع الشعب أسرته وبلغ

من سخطه على أفرادها أن قطع رأس آخر واحد منهم كان يلي شئونه وألقاه للغوغاء .

وكان ما يزال حول نابليون فى ذلك الوقت جماعة من القواد المخلصين الذين لم تفتنهم دعوة الحلفاء ولم يميلوا اليهم مع المائلين . فدعاهم نابليون اليه ثم قال لهم :

— « لقد قدمت للحلفاء إقرار نزولى عن العرش . ولكنهم اليوم يطالبوننى باقرار نزول أسرتى كلها . أنهم يريدوننى أن أخلع زوجتى وولدى وكل من ينتمى الى دمى . فهل تسمحون بذلك . ان لى من القوة ما يمكننى من اختراق الصفوف التى تحيط بى . انى أستطيع أن أصل الى أطراف فرنسا واثيرها كلها . إنى أستطيع أن أزحف على ايطاليا وأقيم بكم هناك امبراطورية أخرى . فاذا طلبت اليكم ان تتبعونى أفلا تفعلون ! »

على ان احداً من اولئك القواد لم يفتح الله عليه بكلمة يقولها ردا على هذه الدعوة الحارة وتشجيعاً لتلك الروح النبيلة التى قادتهم عشرين عاما فى ميادين العزة والمجد بل بقى الجميع فى برود مطبق يقلبون عيونهم ولا يحركون لسانهم .

ولم يستطع كولنكور اخفاء عواطفه ازاء هذا الجمود

العجيب . فهم بالانصراف من الغرفة . ولكن نابليون أدرك مغزى حركته فاستوقفه ثم جلس فجأة إلى مكتبه فى الغرفة وخط عليه هذه الكلمات السريعة الملعثمة التى يرى القارىء صورتها على الصفحة المقابلة والتى ضمنها نزوله المطلق عن عرش فرنسا

ثم سلمها الى كولنكور وبعد ذلك حول نظره الى جماعة القواد قائلا :

— « أيها السادة ! أريد أن أكون وحدى ! »

فلما خرجوا من حضرته نظر برهة الى كولنكور ثم قال :

— « ان هؤلاء الناس لا قلب لهم ولا ضمير . انى لم تهزمنى الحوادث بقدر ماهزمتنى آنانية هؤلاء الرفاق ونكرانهم للجميل . والآن قد انتهى كل شىء . فدعنى ياصديقى وانصرف أنت أيضا ؟ »

صورة اســـتقالة نابليون

276. Palais de FONTAINEBLEAU — Fac-Similé de l'abdication de Napoléon Ier.

« Les Puissances alliées ayant proclamé que l'empereur Napoléon était le seul obstacle au rétablissement de la paix en Europe, l'Empereur, fidèle à son serment, déclare qu'il renonce pour lui et pour ses successeurs aux trônes de France et d'Italie et qu'il n'est aucun sacrifice personnel même celui de sa vie, qu'il ne soit prêt à faire aux intérêts de la France ».

الفصل التاسع

وداع فونتنبلو

كان يوم اعتزال نابليون الملك يوماً عظيما فى تاريخ الملكية فان ملوك أوربا بعدأن حاربوا رجال الثورة ٢٢ عاماً تمكنوا فى آخر الأمر من دخول باريس . وردلويس الثامن عشر الى عرشه الذى استحقه بحكم مولده والذى استوىعليه نابليون حينا من الدهر بارادة الشعب .

وفى ١١ ابريل سنة ١٨١٤ انتهى هؤلاء الملوك من مفاوضاتهم ومناقشاتهم وفرغوا من وضع المعاهدة فى صيغتها الأخيرة فتقرر فى نظير قبول نابليون النزول عن عرش فرنسا بلاقيد ولا شرط :

١) أن يستبقى الامبراطور نابليون والامبراطورة مارى لويز لقبيهما

٢) ان تستبقى ام نابليون وأخوته وأخواته ألقابهم كأمراء واميرات فى اسرة بونابرت

. ٣) ان يمنح نابليون مُلكَ جزيرة إلبا وان تدفع له الخزانة الفرنسية فوق ذلك مرتبا سنوياً قدره مليونان ونصف مليون من الفرنكات

٤) وتمنح الامبراطورة دوقية پارما وولايتين أخريين تنتقل ملكيتها جميعا الى ملك روما بعد وفاتها .

٥) رتبت مرتبات اخرى لأمراء الأسرة كلهم وخصصت مقاطعات فى فرنسا لتقوم ايراداتها بسداد هذه النفقات .

٦) خول لنابليون الحق فى ان يستصحب معه الى مملكته الجديدة حرسا قوامه ٤٠٠ رجل ممن يقبلون التطوع لمرافقته والسفر معه .

وأرسلت هذه الشروط الى نابليون ليصادق عليها فى ظرف يومين ويقول بعض المؤرخين ان نابليون ضاقت به الدنيا فى بحر هذين اليومين حتى انه فكر فى الانتحار ويروون فى ذلك روايات يعززونها بالشواهد ويقول بعضهم : « انه بلغت به خيبة الأمل الى حد عقد معه النية على امر حاسم فنام تلك الليلة قبل الساعة التى اعتادها وترك باب الغرفة مفتوحا قليلا . وقد نام الخادم « هوبر » على عتبته ونام « كونستان » فى غرفة مجاورة . فلما انتصف الليل نادى

الخادم وطلب اليه أن يشعل النار ثم أمره بالانصراف ..
فذهب هوبر ولكنه لم ينم لريبة فى نفسه بل أخذ يراقب
مولاه من شق الباب فرآه يمشى طولا وعرضا ثم يجلس
ويكتب على ورق ثم يمزق الورق ويلقيه فى النار وبعد حين
رأى الامبراطور يتناول مسحوقاً من إحدى حقائبه ويذيبه
فى الماء ويتجرعه فخاف وأسرع فأخبر كونستان وعاد معه
ودخلا بلا استئذان على مولاهما فوجداه فى حالة تهيج شديد
وسرعان ما انتشر الخبر فى القصر أن الامبراطور قد شرب
السم فأنيرت الغرف وقطع سكوت ذلك الليل وقع أقدام
الخدم جيئة وذهاباً . وأقبل الطبيب إيفان Evan ومعه
كبار الضباط فوجدوا الامبراطور شاخص العينين جامد
النظر . أما هو فالتفت الى إيفان وابتدره بهذه الكلمات .

— إيه إيفان ! لقد أعطيتنى سما لا يفعل !

فاضطرب إيفان وخاف أن يفهم من ذلك أنه أراد
تسميمه . فترك الغرفة ونزل السلم مسرعاً وذهب الى
الاسطبل فامتطى جواداً . وانطلق به الى باريس ! »

ويقول آخرون أنه تأثر كثيراً من خيانة زملائه له وزاد
تأثيره عند ما عرضت عليه شروط الحلفاء . فاظلمت الدنيا

فى عينيه وأراد أن يسم نفسه فتناول علاقة السم التى كانت فى عنقه منذ سنوات ولكن الطبيب ما لبث أن جاء مسرعا عند ظهور أعراض السم عليه فأنقذه ولما أفاق قال لكولنكور:

« لم يشأ الله أن أموت . . . وليس فقدى للعرش هو الذى جعل حياتى لا تطاق فأن أعمالى الحربية تكفى لمجدى . أتدرى ما حمله على النفس أثقل من تقلبات الحظوظ . أتدرى أى شىء يفطر القلب . . .ذلك هو دناءة الناس وقظاعة جحودهم . . . وهذا الذى جعلنى أكره الحياة وأنفر منها . . . ألا إنما الموت راحة ! »

هذا مايقول بعض المؤرخين عن محاولة نابليون الانتحار تحت تأثير هذه الصدمة الأخيرة . والواقع الذى لا شك فيه أنه كان فى حالة ذهول عميق على رغم أعصابه وما اشتهر عنها من الصلابة . والمتانة . والقوة . والسلامة . وقد جعله هذا الذهول فى شبه غيبوبة حتى لقد كان يرسل فى طلب أحد الناس . فاذا أتى لبث نصف ساعة دون أن يوجه اليه الخطاب وذكر خادمه الخاص انه كان ساعة لبسه وزينته صامتا لا ينبس ببنت شفه .فاذا عرض عليه أن يشرب الدواء كعادته فى مثل ذلك الوقت لم يكن يجيب بل لم يكن يظهر على ملامحه

أنه سمع كلام الخادم . وكان كل يوم يزداد حزنا وميلا الى الوحدة . وكانت الرسائل التى ترد عليه من باريس تسبب له هياجا خاصا حتى انه أنشب يوما اظافره فى فخذه وأسال الدم منه دون ان ينتبه .

وليس يبعد ان يكون نابليون قد فكر حقاً فى الانتحار وهو يعانى آلام هذه المحنة المنكرة وقديما قيل :

يقضى على المرء فى ايام محنته . حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

على ان بعض المعجبين به يصرون على نفى هذا الخبر ويؤكدون انه بقى على عادته ينفر من فكرة الانتحار حتى فى هذا الوقت العصيب وينسبون اليه انه قال فى هذا المقام :

« إن من الناس من ينتحر لأسباب غرامية فيالها من حماقة ! وان منهم من لا يستطيع العيش إذا لحقه العار . فياله من ضعف ! أما من كان فى الناس ملكا ثم فقد عرشه وخسر تاجه وظل يحمل عبء الحياة وهو عرضة لشماتة نظرائه وطعن زملائه . فتلك هى الشجاعة الحقة وذلك هو الخلق العظيم ! »

* * *

ووقع نابليون المعاهدة فى موعدها . وتحدد ظهر يوم ٢٠ ابريل للسفر إلى إلبا . فلما حل ذلك اليوم ودنت ساعة

الرحيل . اصطف جنود الحرس الامبراطورى فى فناء قصر فونتنبلو ليرفعوا تحيتهم الأخيرة الى مولاهم قبل سفره الى منفاه . واجتمع أهل الجهات القريبة كلهم ليشتركوا فى هذا المشهد الرهيب . . .

وأخيراً خرج نابليون من غرفته وأخذ سمته نحو سلم القصر فلم ينزل منه بضع درجات حتى لمحت عينيه صفوف الحرس وقد اصطفوا لاستقباله الاستقبال الاخير . فوجم لمرآهم وثبت فى مكانه فوق السلم برهة كأنما خانته قواه ولكنه تشدد وجال ببصره فى تلك الصفوف وفى جموع الناس الذين احتشدوا من ورائهم خارج القصر ثم استأنف المسير وعند ذلك قرعت الطبول ونفخت الأبواق تحييه بسلامه الامبراطورى ولكنه أشار إليها بيده إشارة السكوت . فتعلقت الأنفاس وثبتت فوق شخصه الضئيل انظار المجتمعين وإذ ذاك تقدم اليهم وقال بصوت ثابت النبرات واضح المخارج:

« ايها القواد الأبطال . ويارجال الحرس الصناديد . أودعكم الوداع الأخير ! لقد انقضى عشرون عاماً لم أركم فيها الا فى طريق المجد والشرف ولقد ظللتم فى أيام محنتنا الأخيرة كما كنتم دائماً فى أيام اقبالنا الأولى من الشجاعة

والشهامة والولاء . وما كنا لنخسر قضيتنا ومعنا أمثالكم . ولكنا خشينا أن ينتهى بنا ذلك الى حرب أهلية تذهب بسعادة فرنسا ورفاهتها فلم نتردد فى تضحية مصالحنا أملا فى الاحتفاظ بصالح الوطن . والآن أفارقكم أيها الاصدقاء ونصيحتى الأخيرة لكم أن تكونوا مخلصين لمليككم الجديد الذى قبلته فرنسا . . . . فالوداع يا أبنائى . . . . ولكم كنت أودأن أضمكم جميعاً الى صدرى ولكنى اعانقكم فى شخص قائدكم هذا : . . .

وتقدم قائد الحرس نحو الامبراطور فطوقه بذراعيه وأجهش بالبكاء فسرت فى صفوف الحرس من خلفه عدوى تأثره وعلا ضجيج الجنود وزاد فى ألم الموقف أن دعا نابليون بحامل العلم قائلا .

— « هات هذا العلم حتى أقبله ! » فتقدم اليه الرجل بالعلم وعلى رأسه النسر — وهو الرمز المجيد الذى اختاره نابليون لجنوده — فقبله نابليون فى فمه الفضى ثم ضم العلم الى صدره قائلا:

— « أيها النسر العزيز ! لِتَدُمْ الى الابد هزة هذه العناقة الأخيرة فى قلب كل جندى من جنودى المخلصين . . الوداع مرة أخرى يارفاقى . . . الوداع ! »



وداع الجند فى فونتنبلو

الكتاب الخامس

المَنْفَى

الباب الأول : إلبا
« الثاني : حكومة الأيام المائة
« الثالث : سنت هيلانة

ألباب الاول : إلبـــا

الفصل الأول ـ ملك إلبـــا

« الثـانى ـ البربون فى فرنسا

« الثالث ـ عودة نابليون الى فرنسا

الباب الأول

إلبـــا

الفصل الأول

ملك إلبـــا

خرج نابليون من قصر فونتنبلو قاصداً مينا فريجوFrejus ليبحر منها الى مملكته الجديدة . وكان يصحبه فى رحلته بعض أعوانه. وأربعة من مندوبى الدول المتحالفة لحراسته فى الطريق ولكنه ما كاد يغادر رجاله فى القصر ويشق طريقه وسط الجماهير حتى أحس إحساساً عملياً بأنه انتقل من حال الى حال ذلك لأن شعور الناس نحوه كان قد بدأ يتحول تحت تأثير الدعاية القاسية التى كان يبثها الحلفاء ضده وتحت تأثير النكبات المتتالية التى من شأنها أبد الدهر أن تصرف النـاس عن صاحب البأساء .

والناس من يلق خيراً قائلون له   ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

فلم تكد تبرح عربته تلك المقاطعات الشمالية فى فرنسا حتى رأى من مظاهر العداء ما كان انكى لنفسه وأدمى لفؤاده من كل ما أصابه من الصدمات اذ اجتمع الغوغاء حول عربته وأخذوا يسبونه ويلقبونه بالغـــول الكورسيكى وبالجائر الغشوم . واندفع بعضهم الى المركبة فتشبث بدواليبها . أما الجبناء من القوم فكانوا لا يجسرون على الاقتراب منهـــا واكتفوا برجمها من بعيد

وكانت تتزايد شدة الناس عليه كلما أوغل الموكب فى طريقه . وذلك لسيادة الروح الملكية منذ القدم على أهـل الولايات الجنوبية . ويروى أن المرحلة الأخيرة من هذا السفر كانت من الخطر بحيث خشيت حاشية الأمبراطور عليه من الموت . فألح رجاله عليه بوجوب التنكر فى زى خادم ليتمكن من قطع بقية الطريق بسلام . ويزيد الرواة على ما تقدم أنه نزل على إرادتهم ولبس ملابس أحد الخـدم الذين كانوا يسيرون أمامه ثم أخذ يعدو أمام المركبة !

ومهما يكن من أمر هذه الرحلة وما صادفه فيهـا نابليون فأنه نجا منها على كل حال ووصـل سالما الى Frejus ـ ذلك

الثغر الذى لقيه باسما عند عودته من مصر فأسلمه الى منصب القنصلية ثم الى عرش الامبراطورية . والذى قدر له أن يعود اليوم فيلفظه الى إلبا شهيد نبوغه وكفايته وطريد تلك الأمة التى لم تبلغ من المجد فى كل تاريخها مثل ما بلغته على يديه .

وفى ليلة التاسع عشر من شهر ابريل أقلعت به المركب البريطانية – « the Undaunted » وكانت قد أعدت لنقله مركب فرنسية ولكنه رفض أن يسافر عليها تحت علم البربون ومما يجدر ذكره انه لم تمض عليه ساعات على ظهر تلك المركب البريطانية حتى كان قد فتن ركابها بلطف حديثه واستولى على ألبابهم بجاذبيته بل ان البحارة أنفسهم الذين كانوا يتلقنون من حكومتهم كل القبائح الواجبة فى حق نابليون ما لبثوا أن غيروا رأيهم فيه فأنسوا اليه وأحبوه وأصبح من المألوف أن يميل أحدهم على صاحبه فيقول له :

"Bony" is a good fellow, after all !

أما جزيرة إلبا فلم تكن تبعد عن فرنسا اكثر من مائتى ميل. وقد وصلها نابليون بعد رحلة خفيفة استغرقت نحو خمسة أيام فاستقبلته حامية بورتو فراجو Porto Ferrajo عاصمة

ملكه الجديد باطلاق مائة مدفع تحية لقدومه .على أنه لم يتورط. بتلك التحية الملكية ووقف يشرف على نقل (عفشه) الى الرصيف ويشترك بنفسه أحياناً فى انجاز تلك العملية كأنه سائح بسيط. وما كاد يفرغ من ذلك حتى أمر بجواده فامتطى صهوته . ومضى يعاين « امبراطوريته الجديدة » .فلم يسر غير بعيد حتى وجد نفسه فوق ربوة عالية تشرف على أطراف الجزيرة كلها. ولم تكن تزيد على ١٦ ميل طولا فى عرض تتراوح بين ميلين. و١٢ ميلا . أما عدد السكان فكان ١٣ ألف نسمة . فوقف نابليون برهة يقلب عينيه فى أطرافها ثم ما لبث أن قال باسماً:

« الواقع ان امبراطوريتى هذه يغلب عليها الصخر ! »

ولم يمض على نزول نابليون فى إلبا يومان حتى كان قد زار كل مكان فيها وحتى كان قد رسم مشروعاته الكثيرة لاصلاحاتها ورفع مستوى المعيشة فيها فبعد أن درس معادنها . وملاحاتها. وكرومها . وغاباتها . وموانيها . وحاميتها بدأ يشق الطرق فيها ويحفر القنوات .ثم أنشأ فيها مستوصفاً لعلاج المرضى وأخذ يعمل فى تنمية موارد الثروة فيها بتحسين حال الملاحات ومصايد الأسماك . وكان بجوار إلبا جزيرة أخرى صغيرة مهجورة لا حياة فيها كان يأوى اليها قرصان البحر . فقرر نابليون أن

يرسل اليها جماعة من رجاله ليستولوا عليها ويحصنوها فى وجه أولئك القرصان . ثم ابتسم لرفاقه قائلا :

« سوف تقول أوروبا أنى بدأت سلسلة فتوحاتى من جديد ! »

وبدأ يستشعر نابليون شيئاً من اللذة فى مقامه الجديد . وعول على أن يشغل وقته بكتابة مذكراته — «واعطاء صورة واضحة عن نفسه للعالم الذى لم ير منه قط الا صورة جانبيه (Profile) » — كما كان يقول .

على أنه كان فى الواقع أبعد الناس عن أن يحقق مثل هذه الغاية . فان حركته الدائمة لم تكن تترك له سبيلا الى الجلوس والكتابة . اذ كان يخرج كل يوم قبل الفجر على ظهر جواده . ويسير فى انحاء الجزيرة مخترقا سهولها وحزونها مستطلعاً مخابئها وخوافيها حتى ضج منه المندوب الانجليزى القائم بمراقبته وكثيراً ما تململ شاكيا من أن « نابليون لا يجد لذة الا فى إنهاك قوى من يرافقه . »

اما الامبراطور فكان كل نشاطه منصباً على تحسين حال الجزيرة كما أسلفنا . فانقلبت بعد حلوله فيها كقفير النحل تعج بالحركة عجا ولم تكن تسمع فيها بعد ذلك اليوم الاقرع المطارق

بين هدم و بناء . «وقد صدرت أوامره الى كل جانب بتطهير البيوت والثكنات وتنظيف الطرق والشوارع والزام السكان بوضع الأقذار فى آنية خاصة تفرغ فى الليل. ومعاقبة من يطرح من بيته شيئاً فى الشارع . ومنع كل غريب من دخول الجزيرة قبل أن يكشف عليه طبيا للتحقق من سلامة جسمه من الامراض . وأمر بتجفيف المستنقعات وتنقية مياه الشرب وتشييد أحواض كبيرة يخزن فيها الماء لأيام الحاجة. فانتعشت الجزيرة بعد الموات وازدهرت فيها الحياة وذاق السكان للمرة الاولى طعم العيش الرغيد (١) »

وفى صيف ذلك العام (يونيه سنة ١٨١٤) سافرت الى إلبا والدة نابليون تصحبها اخته پولين Pauline وقد ملأت الغبطة قلب ليتشيا لما رأت ولدها يعيش هادئاً هانئا فى تلك الجزيرة الوادعة وشعرت بالسعادة الحقيقية لاطمئنانها عليه فى هذا الوسط البعيد عن مخاطر الحروب والمؤامرات .

وكان نابليون ينتظر وصول زوجه مارى لويز أيضاً وولده «ملك روما» من يوم الى يوم ولم يكن يهيج خواطره فى عزلته الهادئة الا شوقه اليهما وقلقه عليهما. وقد كتب عدة

---

(١) كتاب « حول سرير الامبراطور » لمؤلفه الدكتور كابانيس

رسائل الى زوجه يستقدمها فيها ويتوسل اليها أن لا يحرمه من ذلك الهناء الذى لم يعد يطمع فى اكثر منه . ولكنه فى الوقت الذى كان يبكى فيه أمام صورة ولده شوقاً وحنيناً كانت زوجه ترمى بنفسها فى أحضان ضابط نمسوى أعور هو الكونت نيبرج Neipperg وتنسى بين يديه زوجيتها لنابليون وامومتها لملك روما ـ وواجبها كأمبراطورة وسليلة بيت من أكبر بيوتات اوربا المالكية هو بيت هابسبورج .

ويأبى القدر الساخر إلا ان يسوق الكونتس واليسكا فى هذه الظروف لزيارة نابليون فى منفاه . فاستصحبت ولدها (وقد بلغ الرابعة من عمره) . وسافرت اليه وهى ترجو ان تقضى بقية ايامها معه . ولكنه لم يستطيع استبقائها طويلا الى جانبه وهو ينتظر قدوم زوجته الشرعية بين كل صباح ومساء . فرحلت عنه بعد يومين اثنين لم يفارقها نابليون فى خلالها ليلا ولا نهارا . وكان هذا آخر لقاء بين الرفيقين .

الفصل الثانى

البربون فى فرنســـــا

لما قرر الحلفاء ابعاد نابليون عن فرنسا لم يكن ذلك تحقيقاً لرغبة الشعب — الذى كان معظمه مايزال يحب نابليون ويحنو إليه — ولكنه كان تحقيقاً لرغبة ملوك أوربا الذين كانوا يحاربون الديموقراطية فى شخص نابليون ويطاردونه ليطردوا من أذهان العامة مبدأ سيادة الأمة وأنها هى مصدر السلطات فليس غريباً بعد ذلك أن يسمع الانسان برواج تلك الصورة الكاريكاتورية الشهيرة التى انتشرت فى فرنسا عقب سفر نابليون والتى لم يكن يخلو منها بيت هناك — تلك الصورة التى تمثل سراى التويلرى وقد خرج منها نسر نخم يحلق فى الفضاء بجناحيه العريضين بينما يتسلل إلى أبوابها قطيع من الخنازير البرية . (إشارة إلى دخول البربون وخروج نابليون) .

ولقد ذكرنا أن نابليون حين سافر إلى إلبا كان قد نفض يده من شئون فرنسا كلها . وعقد النية على أن يحيا حياة جديدة

لا صلة بينها وبين فرنسا الا ما كان قد اعتزم تدوينه من المذكرات فكانت الفرصة واسعة أمام لويس الثامن عشر ليثبت أصول عرشه على قواعد جديدة تكون أكفل لبقائه من تلك التى كان يقوم عليها عرش أخيه لويس السادس عشر . ولم يكن الملك الجديد يعوزه الناصحون فى هذا الشأن . فقد تقدم إليه القيصر غداة عودته إلى باريس مبيناً له عن روح العصر الحاضر فى فرنسا . واختلافها عن روح العصر القديم ونبهه إلى ما استجد من المبادىء والأفكار فى المجتمع الفرنسى ثم نصح له بأن يقلع عن التمسك بنظرية الحق الالهى فى الحكم التى مؤداها أن الملوك قوامون على رعاياهم من قبل الله وأشار عليه أن يطلب إلى مجلس الشيوخ أن يصدر قراراً بتوليته العرش خلفاً لنابليون ليكون بذلك أقرب إلى قلوب العامة وعقولها فأن ارتقاء العرش الآن باسم الأمة أدنى إلى الاحتفاظ به من ارتقائه باسم أية قوة أخرى . ولكن لويس لم يجد ما يرد به على هذا النصح الحكيم إلا أن يسب الأمة ومجلس الشيوخ . والمبادىء الحديثة وأن يجيب صاحبه بكل أنفة واستكبار قائلا :

— « وأى حق لمجلس الشيوخ — الذى لم يَعْدُ أن يكون اداة وشريكا لذلك الغاصب المجنون — أى حق له فى تاج فرنسا

ليتصرف فيه كيف يشاء ؟ هل هذا التاج ملك لمجلس الشيوخ ؟
وهل لو كان التاج ملكا للمجلس كان يرضى بوضعه على رأس
فرد من اسرة البربون ؟ انى اؤكد لك انه لم يكن يفعل ! ولكنى
استحققت هذا التاج عن اخى وعن ابن اخى اللذين قتلا فى
سبيله . وان اوربا حين اعادتنى الى العرش لم تكن تعيد شخصاً
بعينه او اسرة بعينها ولكنها كانت تعيد فكرة وتقر مبدأ .
وانت نفسك — ياصاحب الجلالة — بأى حق تحكم فوق
اولئك الملايين الذين جاءوا بى هنا واعادونى الى عرشى تحت
إمرتك ؟ »

فلم ير القيصر ازاء هذه الثورة إلا ان يترك الرجل يسير
فى سبيله ويقول لنفسه : « انى قد بلّغت اللهم فاشهد »

وكان اول ماتقدم به لويس الثامن عشر إلى الشعب الفرنسى
ان سن له دستوراً جديداً . ولكنه اعلن هذا الدستور على
انه منحة منه الى الشعب . فكانت تلك اول صدمة لعقول
الفرنسيين الذين ظلوا ٢٥ عاماً يقولون ان الأمة هى التى تمنح
رئيسها حقوق الرياسة وانها هى التى تأذنه بالاشتراك معها
فى الحكم .

على ان لويس ما لبث ان ندم حتى على هذا الدستور .

وعادت فتملكته نزعة آبائه واجداده وتكاثرت حوله العناصر الرجعية من المهاجرين الساخطين والملكيين المتطرفين حتى اضطر فى النهاية إلى العدول عن اعتداله النسبى والى الأخذ بأساليب انصاره العنيفة التى كان من شأنها القضاء على كل ما تشتم منه رائحة امبراطورية نابليون . ولم تمض شهور الا وقد عادت الى فرنسا كل مساوئ العهد الماضى . فاستولى المهاجرون الذين عادوا مع الملك على كل مرافق الدولة الرئيسية وحُرِّمَ ذلك على عامة الفرنسيين واعيدت الى الأشراف امتيازاتهم فكانوا يتمتعون بايراد الدولة ولا يقومون بشىء من تكاليفها . واهمل انصار العهد الامبراطورى فى اول الأمر . ثم ابعدوا عن وظائفهم واحداً بعد واحد . وحل محلهم شبان من الأشراف لافضل لهم الا كرم المحتد ورفعة النسب . وسرحت الحكومة الجديدة فرق الحرس الوطنى واحلت محلها فرقاً جديدة من المرتزقة السويسريين . وسقط علم الثورة المثلث الألوان وارتفع مكانه العلم الأبيض الملكى والغيت قوانين الامبراطورية واستبدلت بها قوانين جديدة جعل تاريخ اول واحد فيها «العام التاسع عشر من حكم ملك فرنسا لويس الثامن عشر»

ولم يكن لكل هذا من معنى إلا انكار وجود الامبراطورية

اصلا . واعتبار عهدها حلماً من الأحلام . وانتشر الجواسيس يترصدون رجال الدولة البائدة . ويوقعون بهم حتى أصبح الناس ينكبون فى أموالهم وأعمالهم بسبب انتمائهم الى هذه الدولة ونشأتهم فى عهدها الغابر

وكان من الطبيعى أن لا يستسلم الشعب الفرنسى لكل هذه المظالم التى ثار من أجلها ثورته الأولى . وزاد فى سخطه على هذه الحكومة الجديدة أن رآها تتخلى للحلفاء عن عشرات المعاقل والحصون التى كانت لا تزال فى يد الفرنسيين وعن شيء كثير من الذخيرة والسلاح ثم عن بلجيكا نفسها وعن كل ما كانت فرنسا قد ربحته منذ أيام الثورة الأولى . وكان من الطبيعى أيضاً أن يعود الحنين إلى نابليون فيحل فى تلك القلوب التى كانت فى أيامه الأخيرة قد بدأت تتذمر من دكتاتوريته . وكان من اهم العوامل التى ادت الى هذا الانقلاب انتشار جنود نابليون الذين سرحتهم الحكومة فى انحاء فرنسا وتنويههم بمحاسن العهد الماضى وتنديدهم بمساوئ العصر الحاضر . مما جعل الناس يترحمون على نابليون و ايامه ويتمنون لو هيأت لهم العناية نابليوناً آخر ينقذهم من هذا الذى ألم بهم كما أنقذهم من مساوئ العهد الأول نابوليونهم القديم .

اما نابلبون نفسه فقد كان كما اسلفنا يعيش هادئاً هانئاً في جزيرة إلبا منصرفاً الى مهامها وشئونها . ولكن اخبار الاستياء الذي عم الفرنسيين من حكومة البربون ما لبثت ان تسربت إليه . فلم يعرها في اول الأمر جانباً عظيما من اهتمامه . . ولكنها اخذت تتزايد . واصبحت تصله تلك الأخبار مصحوبة بحنين الناس الى عهده وحكومته فبدأ يلقي باله الى فرنسا ومصائر الأمور فيها . ثم قطعت عنه حكومة فرنسا مرتباته التي قررتها له معاهدة فونتنبلو فزاد ذلك في سخطه عليها . ثم مالبث ان علم بأن الحلفاء قد دب الخلاف فيما بينهم بسبب تضارب مطامعهم وتصادم صوالحهم الشخصية . وأن بعضهم قد اقترح تلافياً لخطر الموقف استبعاد نابليون من إلبا الى سنت هيلانة لتكون أوربا في مأمن منه لاسيما بعد ما تبين من اتجاه ميول العامة في معظم الدول الأوربية اليه .

وكانت پولين Pauline أخت نابليون قد تمكنت من القيام بسياحة قصيرة في أوربا اتصلت فيها بكثير من الأقطاب . ثم عادت تؤكد لأختها صحة كل ما كان يصله من التقارير السرية عن توتر الحالة في فرنسا وتأهب الشعب للانقلاب على حكومته اذا ما عاد اليهم مليكهم وزعيمهم القديم .

فلم ير نابليون ازاء كل هذه الظروف الا أن يخرج من عزلتـه ليقوم بعمل حاسم قبل أن يدهمه الحلفاء على الأقل بمثل هذا الاقتراح الخطير الذى أرادوا به اسقاطه مرة أخرى واخراجه من ملكه الجديد .

الفصل الثالث

عودة نابليون إلى فرنسا

فى السادس والعشرين من شهر فبراير سنة ١٨١٥ أولمت Pauline اخت نابليون وليمة فاخرة فى إلبا دعت بها ضباط الحرس الأمبراطورى وهيئة اعيان الجزيرة . وحضر نابليون هذه الوليمة وظل المدعوون فى قصف ولهو الى ساعة متأخرة من الليل .

وحوالى منتصف الليل انسحب نابليون ودعا اليه قائديه Bertrand ودرويه Drouet . فلما اختلى بهما قال لهما : — « سنرحل عن هذه الجزيرة غداً . فأريد ان تحجز السفن التى فى المينا كلها ولا ينبغى ان يسمح لمركب واحدة بمغادرة المينا قبل ان نغيب فى جوف البحر . ولست احب ان يقف احد غيركما على هذا البيان ! » .

فانصرف الضابطان من حضرته وقضيا بقية ساعات الليل فى تنفيذ هذه التعليمات .

وفى الليلة التالية جلس نابليون كعادته يلعب الورق مع بعض رفاقه ثم ما لبث ان وقف فجأة ثم خرج الى حديقة المنزل ينشد العزلة ولكن امه لحقت به تحت شجرة تين هناك وقد رابها منه شيء من القلق الخفيف لم يكن يخفى على مثل عينها اليقظة — فتردد نابليون فى الكلام اولا ولكنه مالبث ان قال :

— « اجل يجب ان اخبرك ولا اخفى عنك . . . ولكنى احذرك من افشاء ما اقول لك الى كائن من كان . . . ولا الى پولين اختى نفسها ! » — وبعد ان حدق فيها برهة قال لها بلهجة حازمة كما لو كان يوجه الحديث الى بعض ضباطه :

— ليكن فى علمك انى سأرحل الليلة !

— ترحل الى اى مكان ؟

— الى باريس! . . . ولكنى اطلب رأيك قبل كل شيء

وكان خبر الرحيل صدمة قاسية لقلب امه التى كانت قد بدأت تشعر بنعيم الحياة فى ظل هذا العيش الهادئ الأمين . ولكنها كانت فى الوقت نفسه تعلم بفطنتها انها لن تفلح فى ثنى ولدها عما اعتزم — فتجردت من عواطف امومتها لحظة وتقدمت اليه قائلة :

— « دعنى أنسى أذن أنتى أمك . ولقد شاءت الأقدار أن لا تموت مسموماً . وقضت أن لا تفيض روحك وأنت فى هذه العزلة التى لاتتفق مع همتك . وأبت إلا أن تموت وسيفك مشهور فى يمينك . فأسأل الله الذى كتب لك السلامة فى ماضيك ان يحوطك بحمايته فى حاضرك ! »

* * *

وفى فجر اليوم التـالى خرج نابليون فى الف من رجاله المخلصين فركبوا البحر . واخذت الريح تزجى سفنهم نحو الشواطىء الفرنسية حتى غابت عن انظارهم جزيرة إلبا . وعند ذلك برز نابليون لجنوده الذين كانوا حتى هذه اللحظة لا يعلمون من امر رحلتهم شيئاً . فلمـا قال لهم ان وجهتهم فرنسا وانهم قاصدون الى باريس أدركتهم نشوة أذهلتهم عن خطورة الغاية التى يسعون اليها . وأخذوا يصيحون « لتحيا فرنسا وليحيـا الأمبراطور ! » ثم ما لبثوا ان انقلبوا الى سلاحهم يصقلونه والى ملابسهم يصلحونها حتى لا تراهم فرنسا بعد غيبة عشرة شهور إلا فى أتم زينة وأبهى منظر .

ولقد صادف نابليون من التوفيق فى هذه الرحلة مثل ما صادف فى رحلته وهو عائد من مصر . فلقد أبصرت به

البارجة Zephyr (وهى احدى السفن الحربية الفرنسية) فى اليوم التالى من رحلته . وكان ذلك عند الغروب . فاتجهت نحو أسطوله الضئيل ولما اقتربت من سفينته وأصبحت على مرمى الصوت منهـا وقف ربانها على ظهرها وبوقه فى يده — كما هى العادة فى البحار — فتبادل مع ربان مركب نابليون بضع كلمات ثم سأله : « وكيف حال الأمبراطور ؟ »

فاختطف نابليون البوق من يد ربانه وصاح فيه :

« على غاية ما يرام ! »

ثم استأنفت كل سفينة سيرها بين جرجرة الأمواج وقهقهة الأقدار !

وكان نابليون قد أعد منشورات كثيرة ليوزعها على اهل فرنسا . فما هو ان نزل إلى الشاطئ فى أول مارس سنة ١٨١٥ حتى بدأ بتوزيع هذه المنشورات داعياً الأمة الى القيام لنصرته مهيباً بالجنود ان يلتفوا حوله ويجتمعوا تحت لوائه — « ليطير النسر الأمبراطورى من قبة الى قبة حتى يحط على ابراج نتردام فى باريس ! »

وكانت اول بقعة من ارض فرنسا وطئتها أقدام نابليون وجنوده عند « خليج جوان » — وهو نفس المكان الذى

نزل فيه عند عودته من مصر فخرج اليهم جماعة من الفلاحين يستطلعون أمرهم . وهم مايزالون يجهلون حقيقة حالهم. وكان من بين هؤلاء رجل سبقت له الخدمة تحت قيادة نابليون . فما هو أن وقعت عينه عليه حتى صمم على الالتحاق بفرقته . فنظر نابليون الى رفاقه باسما وهو يقول :

— « هذه يارفاقى أول دفعة على الحساب من المدد الذى توقعنا الحصول عليه من فرنسا . »

وواصل نابليون سيره بعد ذلك وهو ينتقل من بلد الى بلد فلا يزيده ذلك إلا قوة على قوة وتأييدا فوق تأييد حتى بلغ مدينة جرينوبل وهناك وقفت امامه أول قوة استطاعت أن تحشدها له الحكومة لتعترض بها طريقه . وكان الموقف دقيقا . وخشى أنصار نابليون أن تتبدد أوهامهم فى إمكان الوصول بسلام الى باريس . ولكن نابليون ظل يتقدم نحو صفوف الحكومة حتى اقترب منها . ثم أوقف جنوده القلائل وانطلق هو على ظهر جواده حتى أصبح على بعد حطوات منها. وكان اذ ذاك يلبس قبعته العريضة وبذلته الرمادية التى لم يكن يجهلها أحد من أهل فرنسا . فنزل عن جواده وسار الخطوات الباقية على قدميه . ثم كشف عن صدره قائلا: « أيها الجنود ! إن

كان بينكم من يريد قتل امبراطوره فهذا صدرى مفتوح له! ».
وكانت جرأة عجيبة أذهلت الجنود عن واجبهم الذى سيرتهم الحكومة من أجله . فنكس أحدهم بندقيته فتبعه ثان وثالث ثم ما لبث أن وقف الجميع أمامه مشدوهين . وصلح صائح من جانب رجال نابليون قائلا :

— « ليحيي الأمبراطور ! »

فكأنما فك الطلسم الذى ختم على أفواه القوم فاندفعوا يضجون بهتاف بشق اطباق الفضاء — « ليحيي الأمبراطور» — وأحاطوا بنابليون يقبلون يديه ورجليه ويعانقونه . وانعكست الآية على البربون وتعززت قوة الأمبراطور بمن انضم اليـــه فى ذلك اليوم من جند الحكومة . فوالى زحفه يتقدمه طالعه السعيد . ويعززه هذا الروح الحى الشديد .

أما لويس الثامن عشر فقد تخاذل عندما بلغته طلائع هذه الأخبار المزعجة ولم ير أمامه إلا شقيقه الكونت دارتوا Comte d'Artois فوكل اليه أمر الدفاع عن المملكة والوقوف فى وجه نابليون ولكنه فكر أيضاً فى الماريشال ناى الذى أقسم يمين الولاء حديناً للحكومة الجديدة والذى لا يقل فى كفايته وشهرته ومكانته بين رجال الجيش عن نابليون فاستدعاه



العودة من جزيرة إلبا

وافضى اليه بثقته التى لاحد لها واستودعه آماله وملكه قائلا :

« إنى لا أعتمد فى هذه الضائقة إلا عليك ؟ »

وكأنما صادفت هذه الكلمات الوتر الحساس من نفس الماريشال فألهته عن حقيقة الموقف وأنسته مقدار تعلق الشعب بنابليون وسخطه على الحكومة . وجعلته يندفع مؤكدا للملك وثوقه من النصر وأنه « سيضع نابليون فى قفص من حديد يجره به الى باريس ! »

وسافر ناى فعلا وهو على هذا الرأى . ولكنه ما لبث أن تبين الحقيقة وخاب أمله فى النجاح إذ رأى روح التمرد والعصيان سائدة على الجنود الذين باتوا يحنون الى امبراطورهم العظيم . ورأى نابليون يثير الحماسة أينما سار وتلهب طلعته النفوس حيثما حل . وما هو إلا أن يلوح للجماهير بيده أو أن يخاطبهم بكلمة من الكلمات التى يعرف كيف يتخيرها حتى تنطلق الألسنة هاتفة باسمه والأكف مصفقة له والأقدام جارية فى ركابه . وهو يتنقل بأتباعه من بلد الى بلد فى سرعة لم تبق فى نفوس الملكيين على أمل . وزاد فى حرج موقفه ما وصل الى علمه بعد ذلك مباشرة من أن مدينة ليون استسلمت لنابليون بن غير قتال وأن الكونت دارتوا انسحب بغير

مقاومة وأن جزءً كبيراً من جيشه هجر المعسكر لينضم الى جيش الامبراطور وراجت فى نفس الوقت اشاعة مؤداها أن الملك قد هرب من باريس ناجيا بنفسه هو ومن لحق به من أعضاء البيت المالك .

وكان رسل نابليون يسبقونه الى المدن فينبثون فيها مروجين له . داعين الى الالتفاف حوله . فوفد بعضهم على ناى وهو فى هذا الموقف العجيب الذى وضعته فيه الظروف. وسلمه رسالة كان يحملها اليه من الجنرال برتران . فقرأ فيها ناى :

« إن المقاومة جهد ضائع فخير لك أن لاتحاول المستحيل. وان الامبراطور قد غادر جزيرة البا باتفاقه مع حكومتى النمسا وانجلترا . وأن هاتين الحكومتين رضيتا أن يعود الى عرشه بعد أن وضعتا واياه تسوية شاملة لجميع أنواع الخلاف التى كانت تجر الى الحروب والى تعكير صفو السلام فلا مجال اذن للخوف من أن يعود الامبراطور فيجر فرنسا وراءه الى حروب لا نهاية لها . وأن الملك مورا صهر نابليون يسير فى طليعة جيش كبير يشد به أزر الجيش الأمبراطورى . فمن العبث اذن أن تعمد الى مقاومة مقضى عليها بالفشل . بل ان

من الأجرام أن نسوق فرنسا الى حرب أهلية لا تسيل فيها غير دماء الفرنسيين . »

وأحدثت الرسالة أثرها فى نفس ناى فلم يعد يرهق نفسه بتلك الاعتبارات التى كان يريد أن يتقيد بها لاسيما بعد أن رأى لويس الثامن عشر نفسه يبادر بالفرار هو وأهله مع أن بينه وبين نابلبون مسيرة يومين كاملين .

وســـــار الماريشال بنفسه الى بلدة أوكسير حيث التقى بنابليون فلما دخل عليه لاقاه بالعناق كأن عهد الملكية لم يفصل حيناً من الدهر بين الرجلين أو كأن عودة الملكية الى فرنسا ـ كما يقول بعض الكتاب ـ كانت فوسا فتح ثم أقفل ولم يترتب عليه شىء .

ولم يبق بعـــد انضمام ناى الى نابليون الا مواكب الاستقبال ، وحفلات الترحيب . التى كان يتبارى الشعب فى اقامتها لزعيمه المحبوب وأخيراً أشرف الأمبراطور على باريس فخرج للقائه الباريسيون وحملوه على أكتافهم وذهبوا به الى قصر التويلرى فدخله نابليون دخول من غاب عن بيته أياما فى رحلة قصيرة ثم لم يلبث أن عاد اليه من جديد .

وليس أفكه فى هذا المقام من تتبع عبارات الصحف

وهي تروى انباء عودة نابليون الى باريس . ونحن نورد هنا كلمات مقتبسة منها ليرى القارئ فيها سرعة التطور الذى كانت تتأثر به الأذهان فى ذلك الحين :

ـــ فر « الشيطان » من معقله وغادر منفاه . . . . . .

ـــ نزل اليوم « الذئب الكورسيكى » فى مدينة كان « Cannes » . . .

ـــ شوهد « النمر أخيراً فى كاب « Cap » . وقدسيرت الجيوش للقائه وسوف ينتهى الى أتعس ما تنتهى اليه حياة قطاع الطرق ورواد الجبال . . . .

ـــ تمكن « الوحش » من الوصول الى جرينوبل بفضل خيانة الجنود . . .

ـــ مر «الطاغية» بمدينة ليون والرعب سائدعلىالجميع...

ـــ تقدم « الغاصب » حتى لم يبق بينه وبين العاصمة الا ستين ساعة . . . .

ـــ يسير «بونابرت» بخطوات ماردة ولكنه لم يدخل باريس . . . .

ـــ سيكون « نابليون » غداً على أبواب المدينة . . . .

ـــ وصل حضرة « صاحب الجلالة » إلى فونتنبلو ؟

الباب الثاني

حكومة الايام المـــائة

١٩ مارس — ٢٢ يونيه سنة ١٨١٥

الفصل الأول : تغير نابليون
» الثانى : ووترلو
» الثالث : نابليون بعد الهزيمة

الفصل الأول

تغير نابليون

لما دخل الحلفاء باريس فى شهر مارس سنة ١٨١٤ ونزل لهم نابليون عن الملك عقدوا صلحاً مع فرنسا يعرف فى التاريخ باسم « صلح باريس » وقد سويت فى هذا الصلح العلاقات بين فرنسا من جانب والحلفاء من جانب آخر . وكان الحلفاء أسخياء الى حد ما مع فرنسا . فلم يفرضوا عليها غرامة ما . ولم يحتلوا شيئاً من أرضها . بل إنهم تجاوزوا لها عن بعض فتوحاتها التى تمت لها فى عهد الثورة فقرروا أن تتمتع بحدود سنة ١٧٩٢ وهى تفضل حدود سنة ١٧٨٩ باشتمالها على أفنيون وبعض بلاد أخرى . وكان السبب فى كل هذا التسامح من جانب الحلفاء أنهم اعتبروا الحرب التى كانت تشغلهم حربا مع شخص نابليون لا مع

فرنسا . فلما اعتزل نابليون الملك لم يكن ثمت ما يدعو الى التشدد مع فرنسا نفسها .

ولكن الأمور ما كادت تستقر فى فرنسا على هذا الأساس حتى واجه الحلفاء بعضهم بعضا يطلبون تسوية الشئون المعلقة بينهم . فتقرر عقد مؤتمر جامع فى مدينة فينا للنظر فى تلك الشئون والعمل على تسويتها وايجاد حل لمشاكلها . وكان برنامج هذا المؤتمر فى الواقع لا يبشر بشىء كثير من النجاح . فأن الدول ما كادت تتخلص من نابليون حتى أسرع كل منهم يدعى أنه صاحب الفضل الأول فى ذلك ويطالب أصحابه بأن يكون نصيبه من الغنائم متفقاً مع جهوده وتضحياته . متناسباً مع حسن بلائه . وبرز قيصر الروسيا يقول لزملائه انه هو الذى كسر شوكة نابليون . فينبغى أن يجامله الحلفاء فى تنفيذ سياسته الاستعمارية فى الشرق . فانبرت له انجلترا تقول : بل انها هى التى تحملت ويلات هذه الحرب أكثر من أية دولة أخرى . وضحت على مذبحها بالنفس والنفيس . فلا يجوز أن يتقدم على نصيبها فى الغنيمة نصيب آخر . وقالت النمسا انها هى الضحية الوحيدة التى يجب أن تتنحى لها كل دول أوربا عن كل ما من شأنه أن يعيد اليها كيانها وسلطانها

وتقدمت بروسيا أيضاً بمثـــل هذا الـكلام - وكانت مهمة المؤتمرين فى فينا أن يتفاهموا على هذه الدعاوى المتنافرة وأن يقربوا بين وجهات النظر المتقابلة . فكانت فى الحق مهمة شاقة لا تدعو الى التفاؤل والاستبشار .

على أن الحلفاء لم يكونوا يحسون أن هناك ما يدفعهم إلى الاستعجال . فتباطئوا فى عقد هذا المؤتمر . ولما تقرر افتتاحه انقضت الأسابيع الأولى على انعقاده فى اقامة حفلات التكريم . وفى تهيئة الجو الصالح لحسن التفاهم . بتبـــادل الزيارات وعمل الرحلات . وأخيراً (فى شهر نوفمبر سنة ١٨١٤) بدأ أعضاء المؤتمر ينظرون فيما بين يديهم من المشاكل الجدية . وانقضت أسابيع أخرى فيما أشرنا اليه من التناجذ والتنابذ . ولما اشتد تنافس المندوبين وازداد تغاليهم فى مطالبهم وتعقدت بينهم الأمور بحيث لم يعد لأحد أمل فى تفريجها فوجئوا بخبر فرار نابليون من ألبا ووصوله الى باريس . فـكان ذلك هو الحل الطبيعى الوحيد الذى أعاد اليهم وفاقهم . والذى جمعهم مرة أخرى حول غاية واحدة - هى الوقوف فى وجه نابليون من جديد !

وكان نابليون منذ عاد من البا قد أدرك أن فرنسا التى جاء يواجهها كانت غير فرنسا التى خلفها قبل سفره . وأن العهد عهد دستور لا يسمح بدكتاتوريته الأولى فأسرف فى الوعد بالأصلاح ومنح الحريات الدستورية فى كل نواحى العمل . ولم يفته أن دول أوربا سوف تتألب عليه مرة أخرى مهما حسنت نيته لهم ومهما سعى الى التفاهم معهم . فكانت مهمته الأولى أن يستعد للقائهم ويتأهب لدفع عدوانهم.

بيد أن نابليون نفسه كان قد طرأ عليه من التحول والتغير مثل ما طرأ على فرنسا . فلم يعد هو نابليون الذى غادر فرنسا منذ عام واحد فقط . إذ كانت الحوادث الأخيرة قد أثرت فى أعصابه فأرختها وأجهدتها . وأصبح بفضل هدوئه النسبى فى إلبا بدينا ثقيل الحركة لا يقدر على المشى ولا يستطيع الركوب . ويقول أطباؤه إن تجافيه للركوب فى مدته الأخيرة كان يسبب اصابته بالبواسير من جهة وتشنج المثانة من جهة أخرى . وهكذا بدأ الانحطاط يظهر على كل قواه . وأصبح يميل كثيراً إلى النوم . وهو الذى لم يكن ينام أكثر من اربع أو خمس ساعات كل يوم . وكانت تعرض له أشباح حوادث المستقبل بصور مخيفة لضعف أعصابه . فيتخيل فرنسا

مقهورة مغلوبة على أمرها فيرتعش لذلك بدنه . ويتألم فكره .
ولا يجد سبيلا الى ابعاد هذه التخيلات إلا بالنوم . ولحسن
حظه أن النوم كان يواتيه فى مثل هذه المواقف التى ينفر
منها عادة ويتجافى عن العيون

الفصل الثانى

ووترلو

نابليون يريد السلم :

كان أول ما فعله نابليون بعد عودته الى باريس أن جلس الى مكتبه فى قصر التويلرى . ثم أمر بأن تبسط أمامه خريطة فرنسا . ولم يكد يستقر بصره على حدودها الجديدة حتى قال :

— « مسكينة يافرنسا ! »

ثم التفت الى كولنكور قائلا :

« لقد ظللت طول الطريق أعلن عن عزمى على الاستمساك بالسلم . وأعرب عن استعدادى للاعتراف بشروط معاهدة باريس . فأقبل بذلك ما لم أقبله قبل رحيلى إلى إلبا . وذلك لأن فرنسا كانت ملزمة فى ذلك العهد بأن تقوم بتضحيات كبيرة . وها هى قد قامت بها فعلا . فلم يبق لمثلى إلا أن يقبل الحالة على ما هى عليه . »

وهكذا كان يغالط نابليون نفسه فى مبدأ الأمر فيتحدث عن إمكان التفاهم مع أوربا من غير الدخول فى حرب جديدة وكان ذلك منه طبيعياً فانه لم يكن فى حالة تسمح له بالتفكير فى الحرب أو التهيؤ لها .

غير أن الحلفاء كانوا أكثر منه صراحة فى التعبير عن خواطرهم أزاء عودته الى فرنسا . فأنهم لم يترددوا فى اصدار القرار التالى فى أول جلسة عقدها «مؤتمر فينا» بعد أن وصلته أخبار هذه العودة .

— « إن ملوك التحالف يعلنون للعالم بمناسبة هرب نابليون بونابرت من البا وعودته الى فرنسا أنه خسر بهذا العمل حقه الوحيد فى البقاء كما أن عودته الى فرنسا بنية إثَارَتِهَا وقلب نظامها قد حرمته حق التمتع بحماية القوانين وجعلته فى نظر العالم أجمع بمنزلة لا يحق له معها ان يطمع فى صلح ولا أمان . وتعلن الدول بناء على ذلك أن نابليون بونابرت قد خرج بنفسه عن دائرة العالم المتمدين . وأنه بوصف كونه عدواً للعالم وعاملا جوهريا لأخلال الأمن فيه قد استحق أن يكون موضع انتقام الجميع . »

وكان تعبير الحلفاء فى الواقع أصدق تعبير لما كان يحسه

نابليون ويريد أن يتجاهله . فأن انجترا وباقى دول أوربا التى أنفقت فى سبيل التخلص منه أكثر من ثمانمائة مليون من الجنيهات . وبذلت ما لا يقل عن مليونين من الأنفس لم تكن لترضى أن تقف فى آخر الأمر مكتوفة الأيدى أمام الأمر الواقع الذى كان يريدها أن تقبله . ولذلك اتفق الحلفاء فيما بينهم على أن يبدءوا بجمع نحو مليون مقاتل ثم يتعهد كل واحد منهم جيوشه بما يكفل لها التفوق على جيوش نابليون « حتى يصبح عاجزاً تماماً عن تكدير صفو الأمور من جديد »

الحلفاء يستعدون للقتال

واستشير دوق ولنجتون فى رسم خطة القتال فأشار بأن يقسم الحلفاء جيوشهم الى ثلاثة أقسام :

أولها — يطبق على فرنسا من جهة الشمال (بلجيكا) ويكون مؤلفاً من جيوش بروسيا وانجلترا .

وثانيها — يزحف على فرنسا من الشرق ويكون مؤلفاً من جيوش بافاريا والنمسا

وثالثها — يزحف عليها من الجنوب الشرقى ويكون مؤلفاً من جيوش الروسيا

وتقرر ان تبدأ جيوش القسم الأول بالهجوم فوراً ريثما تتم تعبئة جيوش القسم الثانى . أما الجيوش الروسية التى يتأخر وصولها لطول الطريق وصعوبة المواصلات . فأنها تكون آخر من ينزل الميدان .

على أنه لم يقدر لأحد من رجال القسمين الآخرين الاشتراك فى هذه الحرب . فأن المعركة الفاصلة وقعت مبكرة فى الميدان البلجيكى . اذ علم نابليون بأنه قد اجتمعت فعلا تحت قيادة ولنجتون Wellington فى بلجيكا طلائع جيوش الحلفاء وأنه شرع يزحف بها جنوباً نحو الحدود البلجيكية الفرنسية بينما كان بلوخر البروسى على رأس قوة أخرى قاعدتها نهر الرين . وهو يجد زاحفاً بها نحو الغرب كيما يتصل بجيوش ولنجتون فلم ير نابليون خيراً من أن يسرع الى لقاء هذين الجيشين والقضاء عليهما قبل أن يتصل أحدهما بالآخر . وقبل أن تتم أهبة الجيوش الأخرى ما بين نمسوية وروسية . وغادر باريس فى يوم ١٢ يونيه سنة ١٨١٥ وبعد يومين كان يعسكر على مقربة من شارلروا . وفى اليوم التالى (١٥ يونيه) تمكن من الاستيلاء على هذه المدينة .

* * *

هولندا

أنفرس

بروكسل

بلجيكا

ووترلو

لييج

كاتربرا

لينى

نهر الموز

شارلروا

نهر السامبر

معركة ووترلو

معركة ليني Ligny

ويجب قبل بدء المعركة ان نبين كيف كان موقف كل واحدمن هذه الجيوش بالنسبة للجيش الآخر فى ذلك اليوم :

فأما البروسيون بقيادة بلوخر فكانوا مبعثرين على نهر الموز عند لييج — وأما ولنجتون فكان يسوق رجاله جنوبا من بروكسل نحو كاتربرا . وقد عرفنا مما سبق أن نابليون كان عند شارلروا . ولما تبين نابليون موقف خصومه رسم خطته كالآتى :

« يسير جروشى) شرقا للقاء (بلوخر) والقضاء على جيشه .

ويسير (ناى) شمالا بغرب للقاء (ولنجتون) ومنعه من التقدم وامداد البروسيين

وقرر أن يبقى هو بين الجيشين ومعه قوة احتياطية يمد بها من يحتاج الى معونته من جناحيه . على أن الذى قدره نابليون لهذا القتال أن جروشى سوف يتمكن وحده من القضاء على بلوخر وعند ذلك تتاح له هو الفرصة لينقض بقوته الاحتياطية على الانجليز بمعونة ناى فيكسر جيوشهم

ويدخل بروكسل. وقد ضرب نابليون بينه وبين نفسه موعداً لدخول هذه المدينة يوم ١٧ يونية. ولم يكتف برسم هذه الخطة فى دائرة فكره وخياله. بل انه أخرج دقائقها الى حيز الفعـــل والتنفيذ فطبع المنشورات التى سوف يذيعها من بروكسل عند مايدخلها ليعلن فيها لأهل باريس أخبار انتصاره وفوزه.

على أن نابليون لم يهجم فوراً كعادته بل أضاع بقية اليوم الخامس عشر فى اســـتعراض جنوده. ولم يعبر نهر السامبر الا فى اليوم السادس عشر وكان ذلك كافياً لأن يستعد له بلوخر اليقظ الذى انتهز فرصة هذا التأخير وجمع جنوده عند مدينة ليني. فلما شرع نابليون فى تنفيذ خطة الأمس رأى أن البروسيين قد اجتمعوا أمامه فى جبهة واحدة متماسكة. فعدل خطته على الفور وقرر تطويقهم وسحب ناى من الميدان الغربى موقتا للاشتراك معه فى هذه الحركة. ودارت معركة ليني بين الفريقين واصطدمت فيها عزمة نابليون على أن يشق طريقه نحو المجد من جديد ويغسل عن نفسه عار الغلبة وذل الأسر بعزمة البروسيين على الدفاع عن كيانهم والحيلولة بين نابليون وبين التحكم فى مصائرهم. فكانت معركة رهيبة

عنيفة لا نغالى إذا قلنا أنها كانت أعنف المعارك التى خاضها نابليون . . .

ودامت المعركة من الساعة الثالثة بعد الظهر الى الساعة العاشرة مساء وتم النصر فيها لنابليون . ولكنه كان آخر نصر قدر له أن يلقاه. واندحر البروسيون فيها «اندحارا لا يتصوره العقل» كما يقول بعض المؤرخين . ولكن عظمة بلوخر تجلت فى ثباته المدهش الذى أبداه عقب هذه الهزيمة فأنه تمكن من تنظيم فلول قوته . واعادة شىء من التماسك اليها . وتقهقر بما بقى منها بانتظام كان له أثره المباشر الغريب عندما دارت المعركة التالية بين ولنجتون ونابليون بالقرب من ووترلو كما سنبين فى هذه السطور

وقضى الفرنسيون ليلة السابع عشر وهم يحلمون أسعد الأحلام عن ذلك المستقبل البسام الذى عاد اليهم بطلهم المحبوب لأحيائه والذى كانت معركة لينى فاتحة لعهده . وباتوا وهم لا يدرون أن هذه الومضة الخلابة انما كانت تخفى وراءها تلك النكبة العظمى التى لم يكن بينهم وبينها أكثر من ثمانى وأربعين ســــاعة . والتى تفرق بعدها شملهم وتصدع بنيانهم وسقط عاهلهم وحُمل الى أقصى الأرض ليجتر وحده

ذكريات الماضى الأليمة . وليختم أنصع حياة عرفها التاريخ بأسود ساعات سجلها التاريخ .

معركة ووترلو :

كان من أثر ذلك الركود الذى كانت نوباته تعترى نابليون بعد عودته من البا على ما وصفناه فى الفصل السابق أنه عاد للمرة الثانية يضيع وقته الثمين ويبدد الساعات الطويلة فى السكون والهدوء بينما كان خصومه ينتفعون بالثوانى ويستغلون اللحظات . فأنه أخذ بعد معركة لينى يطوف راكبا حول ميدان القتال وهو يحدث قواده عن الحالة السياسية فى باريس. وذهب فى تهاونه وتراخيه إلى حد أن فكر فى تسريح جيشه يوماً كاملا للراحة .

ولعله من سوء حظ فرنسا أن عاود المرض نابليون فى نفس تلك الليلة التى تم له النصر فيها على البروسيين . فلقد كان احساسه بالفتور والمرض هو الذى أوحى اليه بتلك الراحة التى فكر فى منحها لجيشه . وهو الذى كفه عن مطاردة فلول البروسيين عقب هزيمتهم مباشرة والايقاع بمن بقى منهم بعد المعركة حتى لا تقوم لهم من بعد يومهم ذاك قائمة

وترتب على هذا المرض المفاجىء أن أتيحت الفرصة لبلوخر لجمع شمل رجاله وسار بهم شمالا يحاول الاتصال بولنجتون بينما كان نابليون يعتقد خطأ أن الجيش البروسى أصبح جيشاً مقهوراً مفروغاً من أمره . ولذلك لم يرسل خلفه (جروشى) لمطاردته والقضاء على أنقاضه الا عند ظهر يوم ١٧ . وزاد الطين بلة أن هطل المطر غزيرا طيلة ذلك اليوم . فلزم نابليون فراشه وأضاع ذلك اليوم أيضاً فى جملة ما أضاع من الوقت

أما ولنجتون فأنه بعد أن وصلته أخبار لينى كان قد قرر الانسحاب شمالا واخلاء بروكسل أمام نابليون . ولكنه لما عرف بعد ذلك من بعض رسله بأن (بلوخر) لا يرتد إلى نهر الرين — كما كان يتوقع هو ونابليون معاً — وانما هو يزحف الى مدينة وافر ليتصـــــل بالجناح الأيسر للجيوش البريطانية قرر الثبات فى مركزه عند « مون سان جان » حتى يصله المدد البروسى ما دام فى ذلك ابقاء على بروكسل وما خلفها من خطوط القتال .

وفى الساعة الرابعة من صباح اليوم الثامن عشر من شهر يونيه سنة ١٨١٥ انقطع المطر الذى استمر طول اليوم السابق . وكان حقاً على نابليون أن لا يضيع بعد ذلك دقيقة

واحدة . ولكن ضباط مدفعيته قرروا له بأن حالة الأرض لن تسمح باستعمال مدافعهم على الوجه الأصلح قبل أن تجف الأرض قليلا . فأخذ بمشورتهم . ولم يبدأ هجماته إلا فى منتصف الساعة الثانية عشرة ظهراً . وعند ذلك استمات له ولنجتون ورجاله وبدأ نابليون بحس بحرج الموقف حيث كانت قد نمت اليه بعض أخبار بلوخر وعلم من كشافته أن المطر والأوحال التى عطلته هو عن الهجوم حتى الظهر لم يعرها بلوخر العاتى اهتماماً كبيراً وظل يخوض غمارها جادا مثابراً هو ورجاله حتى أشرف على الميدان أو كاد . وعند ذلك ضاعف نابليون حدته وأرسل على جيش ولنجتون ما بين الساعة الرابعة والسادسة بعد الظهر أربع هجمات عنيفة كبدت الانجليز خسارة طائلة ولكنها لم تفلح فى إجلائهم عن مواقعهم إلا أشباراً محدودة . وبات الفرنسيون ولا أمل لهم فى التغلب على خصومهم الا إذا ساعدتهم المقادير بأن يرجع اليهم جروشى بقوته التى كان يطارد بها البروسيين . وعاد الجيشان يشتبكان ويفترقان ويهجم من يهجم فيهما فلا ينتصر . ويدافع من يدافع فيهما فلا ينكسر الى أن تحرجت بينهما الحال أعظم تحرج . وتعادلت كفتاهما بحيث أصبح الترجيح

بينهما موقوفاً على أتفه الأسباب . وعند ذلك سمعت من جهة الشرق طلقات كثيرة . فاستبشر الفرنسيون وصاحوا قائلين :

ـــ « هذا جروشي ! الانتصار ! الانتصار ! »

غير أن هذه الطلقات لم تكن فى الواقع الا طلقات خمسين ألف جندى بروسى وصل بهم (بلوخر) الى الميدان فى تلك الساعة من النهار . فأدرك نابليون لاول وهلة ما فى الموقف من حرج بالغ . ولاح له شبح ماضيه المجيد وهو يوشك أن يندك فى هذه المعركة الفاصـــلة . ورأى بعين خياله ما فى المستقبل من ظلمات ومخاوف فلم يجد أمامه من أمل باق إلا رجال حرسه الامبراطورى الخاص الذين كان يضن بهم أن ينزلوا أى ميدان من ميادين القتال . فرتب أولئك الفدائيين الأعزاء فى صفين وسلم قيادتهم للمارشال ناى ثم امتطى صهوة جواده ورافقهم هو بنفســـه مسافة طويلة وهو صامت لا ينبس ببنت شفة حتى بلغ النقطة التى رأى أن يفارقهم عندها الفراق الأبدى . ثم رفع يده وهو ما يزال على صمته المطبق وأشار اليهم بسبابته نحو الانجليز . كأنما يريد أن يقول لهم : « هذا هو طريق خلاصكم الوحيد . فضحوا بالحياة فى سبيل استبقاء الشرف ! »

عند ذلك صاح رجال الحرس بصوت واحد « Vive l'Empereur » وانحدروا كالسيل الدافق الى الوادى . وظلوا يكافحون الانجليز لغاية التاسعة مساء . وقد فنيت صفوفهم ولم يبق منهم الا أفراد قلائل تحت قيادة الجنرال كامبرون Cambronne وكان من المحقق ان يلحقوا قريباً بأخوانهم الذين سبقوهم وكان كامبرون نفسه مصاباً بستة جروح خطيرة تنزف منها دماؤه . ولكنه ظل مع ذلك يدافع ويقاتل حتى أشفق عليه أعداؤه أنفسهم . فأرسلوا اليه راية بيضاء يعرضون عليه الهدنة والتسليم هو ومن بقى معه إبقاء على أرواحهم . فما كان منه إلا أن قال كلمته التاريخية الخالدة :

« ان الحرس يموت ولكنه لا يُسلّم »

وكأنما عز على نابليون أن تكون هذه المحنة الأليمة خاتمة رجاله البواسل . وقد وقف كل واحد منهم يقاتل ثلاثين من رجال العدو فاستل سيفه وسار على رأس من بقى معه قائلا :

— « لقد طاب الموت اليوم أيها الرفاق ! »

فأسرع اليه سولت وأمسك بزمام جواده وهو يقول :

— « ماذاتريد أن تصنع يامولاى ؟ أفرأيت حظ الأعداء



« الحرس يموت » « ولكنه لا يسلم »

ناقصاً فأنت تريد اليوم أن تتمه عليهم ! »

ولوى عنان الفرس به وتمكن هو وبقية القواد الحاضرين من رد نابليون بعد الجهد الجهيد . فخرج من آخر ميدان قدر له أن يخوض غماره وهو يقول : لقد خسرنا كل شيء الا الشرف !

أما بقية القصة التي يرويها التاريخ عن ليلة واترلو المشهورة فقد سطرها بلوخر بسيوف جنده في رقاب الهاربين والملهوفين من انقاض القوة الفرنسية . وأحس كل جندي بروسي في تلك الليلة العظيمة بأنه قد اقتص لنفسه ولوطنه من الفرنسيين وأنه قد وفى نفسه حقها من التشفي والانتقام !

الفصل الثالث

نابليون بعد الهزيمة

خسر نابليون معركة ووترلو. ولكنه لم يخسر فيها شيئاً من سمعته الحربية أو الفنية. فقد أجمع الثقات على أن خطة القتال كانت من أبرع الخطط وضعا وتصميما وأنها إنما خابت فى اخراجها وتنفيذها. وانهزم الفرنسيون فى تلك المعركة ولكنهم لم يسجلوا لأنفسهم صحيفة أبهى ولا أنصع منها فى تاريخ جهادهم وشجاعتهم. ومات جنود نابليون فى ميدان ووترلو زرافات ولكن لم يكن بين من مات فى ذلك اليوم من الفرنسيين من لم يعرف كيف يشهد العالم على أن فى الموت أحياناً من الشرف ما لا يجده الأنسان كثيراً فى الحياة.

ولقد أشرنا غير مرة الى ما جد على نابليون أثناء وجوده فى البا من الترهل والسمن وما أعقبه ذلك فيه من ضعف الهمة وكلال العزيمة. وبينا كيف أنه أصبح كثير

النوم طويل الغيبوبة بادى الفتور غير أنه ما كاد يلج ميدان القتال فى بلجيكا حتى تنبهت فيه كوامن طبيعته وأخذت تتجلى فيه صفاته القديمه تباعا حتى كان صباح يوم ووترلو فاذا هو قد عاد سيرته الأولى من النشاط الخارق والهمة الحادة التى لا تعرف الملال ولا الكلال . وعلى الرغم من توعكه يوم ١٧ يونية فأنه استيقظ فى اليوم التالى (وهو يوم ١٨ يونية الذى دارت فيه معركة ووترلو) فى الساعة الواحدة صباحا وطاف بمواقف الجيش الأمامية ثم عاد فى الساعة الثالثة فسمع تقارير الكشافة والعيون وأصدر أوامره الجديدة . وفى الساعة التاسعة صباحاً ركب الى ميدان القتال حيث اتخذ لنفسه مقعدا وراء قلب صفوفه وبسط أمامه خوانا نشر عليه خرائطه وأمسك فى يده مرقبا يرقب به حركات جنوده . ووقف الى يساره الجنرال سولت يتلقى أوامره فيرسلها سراعا الى بقية الضباط لتنفيذها وظل على هذه الحالة منذ نشبت المعركة قرب الظهيرة حتى أذنت الشمس بالافول . وأقبل الليل بعد ذلك وفى ركابه بلوخر ورجاله . وكان ما كان مما نشرناه فى الفصل السابق . ولما انكسر الجيش ذلك الانكسار الذى لا يجبر بذل نابليون

كل ما فى وسعه ليلم شعث الهاربين ولكنه حاول ذالك عبثاً. فأن العنف الذى كان يطارد به (بلوخر) فلول الفرنسيين لم يترك مجالا للم الشعث أو ضم الصفوف. ولقد ظل نابليون فى يوم المعركة أكثر من أربع وعشرين ساعة من غير أن ينال أدنى قسط من الراحة فضلا عن انه بقى على ظهر جواده اكثر من سبع وثلاثين ســـاعة فى خلال الايام الاربعة الحرجة التى استغرقها القتال (من ١٤ — ١٨ يونية سنة ١٨١٥)

ولعل هذا الجهد الشـــاق قد استنفد ما بقى فى جسم نابليون من النشاط . فأنه عاد بعد الهزيمة الى غيبوبته الأولى . ويقول أحد من رآه غداة وصوله الى باريس (٢١ يونية) أنه كان فى ذلك اليوم أشبه الناس بالمجانين . يضحك طوراً بقهقهة عصبية كأنها خلجات المتشنجين ثم لا يلبث أن يصيح قائلا : يا إلهى ! يا إلهى ! وهو رافع عينه الى السماء. ثم ينكفىء يدور حول جدران الغرفة كما تفعل الوحوش فى حدائق الحيوان . وأخيراً قر قراره وهدأت حركاته ولكنه دخل فى بحران عميق . فكان حوله أصدقاؤه وأنصاره يهيبون به أن يعمل عملا لتلافى الخطر المحدق بالبلاد . وأحاط الشعب بقصر

الاليزيه يناديه ليتولى قيادته كى يقوم بثورة يعقوبية أخرى يصد بها زحف أوربا على الحدود الفرنسية، ولكنه لم يكن يستجيب الى أولئك ولا الى هؤلاء. ووقع صك تنازله عن الملك من جديد بناء على طلب الهيئتين النيابيتين (٢٢ يونية) وبقى فيما هو فيه من الذهول حتى تشكلت حكومة موقتة فى باريس برياسة (فوشه) لتحل محل حكومته. ثم لم يلبث أن طلب اليه رئيسها مغادرة باريس فورا. فرحل عنها وذهب يقيم فى قصر مالميزون حيث كانت تقيم زوجته الاولى جوزفين بوهارنيه. على أنه لم تطل اقامته فى هذا القصر اذ علم أن الجيش الالمانى قد دخل الحدود الفرنسية ومع قواده التعليمات المشددة بالقبض عليه حيا أو ميتا. ففكر فى السفر الى أمريكا ليقضى فيها بقية أيامه. وقصد فعلا الى مينا روشفور (٣ يولية) ليركب البحر منها الى الدنيا الجديدة. ولكنه وجد مياهها تعج بالمراكب البريطانية التى وقفت لحراسة الشواطىء الفرنسية والحيلولة بينه وبين الفرار.

وفى ٩ يوليه أمرته الحكومة الموقتة بمغادرة فرنسا فى ٢٤ ساعة فأشار عليه بعض انصاره ان يسلم نفسه لربان احدى هذه المراكب ليحمله الى البلاد الانجليزية على اعتبار كونه

لاجئا سياسيا . والعرف الدولى يقضى دائماً بقبول اللاجئين السياسيين وحماية أشخاصهم . فأخد نابليون بهذا الرأي وعرض الأمر على الكابتن ميتلند ربان البلرفون

« Captain Maitland of the Bellerophon »

فقبل ميتلند نقله الى انجلترا ولكن السفينة ما كادت تبلغ مينا بليموث فى جنوب انجلترا حتى كانت الحكومة البريطانية قد أصدرت أمراً باعتبار نابليون أسير حرب وقررت نفيه الى جزيرة سنت هيلانة .

وما كاد يصل ذلك الى علم نابليون حتى ثارت له ثائرته وصاح قائلا :

— « انى ضيف انجلترا ولست أسيرها . ولقد تقدمت بمحض ارادتى لأضع نفسى تحت حماية القوانين البريطانية . ولكن الحكومة بعملها هذا قد انتهكت حرمة قوانينها وضربت عرض الحائط بالقوانين الدولية . وأنكرت انكاراً صارخاً واجب الضيافة المقدس ! »

وصادف احتجاج نابليون عند بعض الشعب البريطانى آذانا صاغية وبدأت بعض الصحف فعلا تردد صدى شكايته فارتاعت الحكومة لذلك وخشيت أن تستفحل دعايته ضدها

فأصدرت أوامرها المستعجلة الى الباخرة « نورثمبرلند Northumberland » التى تقرر سفرها الى سنت هيلانة أن تتأهب للرحلة فى أقصر وقت . فلم يملك نابليون أزاء هذه الاجراءات إلا أن يرسل الى الحكومة البريطانية احتجاجه التاريخى المشهور .

« انى أشهد العالم على احتجاجى هذا لما تتخذه الحكومة البريطانية معى من وسائل العنف ولانتها كها أقدس حقوقى التى تمس شخصى وحريتى لقد جئت بمحض اختيارى الى البلرفون فما أنا بأسير انجلترا ولكنى ضيفها . فأن كانت الحكومة حين سمحت لربان البلرفون بحملى الى أرضها لم ترمى الى أكثر من القاء شبكة تقتنصنى بها فأنها تكون قد خفرت ذمتها ودنست رايتها .

وانى لأستشهد بالتاريخ ليسجل على صفحاته أن خصماظل يحارب انجلترا عشرين عاما ثم أقبل من تلقاء نفسه يحتمى بقوانينها فلم تقابل انجلترا منه هذه الشهامة باكثر من أن مدت له يدا مضيافة حتى اذا ما استسلم لها وهو واثق من كرمها غدرت به وأكلته غيلة واغتصابا

نابليون
فى ٤ أغسطس سنة ١٨١٥ عن ظهر البلرفون فى البحر

الباب الثالث

سنت هيلانة

الفصل الأول : لنجوود Longwood

» الثانى : هدسون لو Hudson Lowe

» الثالث : وفاة نابليون

» الرابع : نابليون يرقد على ضفاف السين

الفصل الأول

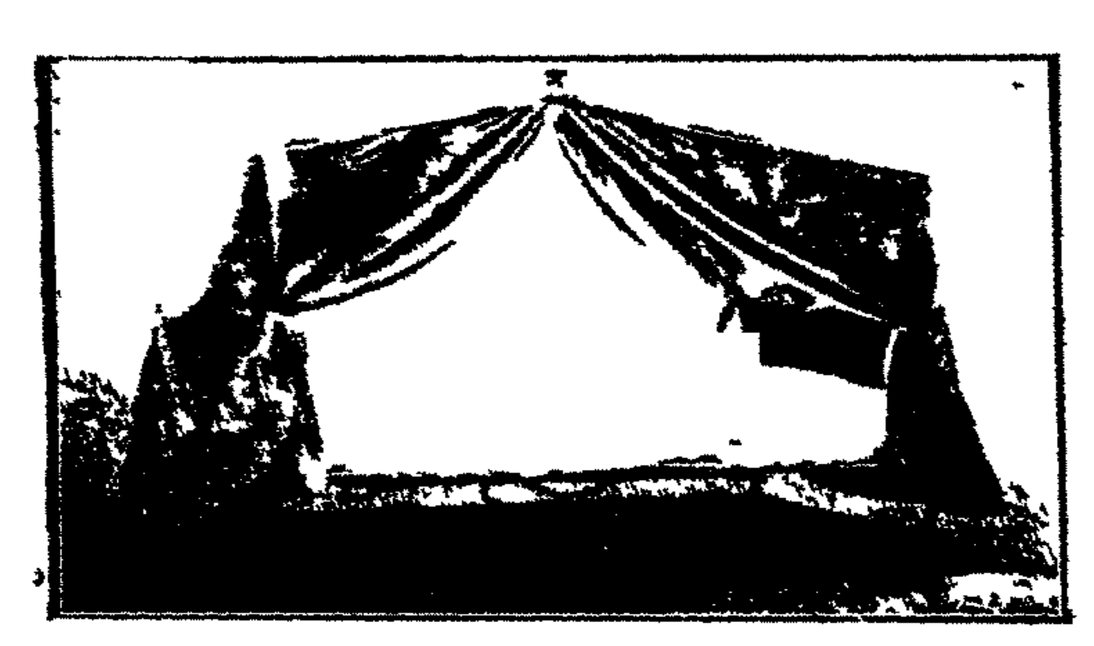
لنجوود

لم تثمر احتجاجات نابليون. وذهبت صيحاته كلها صرخة في واد. ولم ير بدا في آخر الأمر من الاستسلام لقضاء الله فرضخ لما جرت به المقادير وقابل بلواه بالصبر. وانتقل هو وحاشيته التي اختارت البقاء معه إلى « النورثمبرلند » وفي ٨ اغسطس أقلعت السفينة بشحنتها الغالية ميممة نحو جزيرة القديسة هيلانة وكان مع نابليون من أصدقائه الكونت مونثلون Montholon وزوجته وولده والكونت برتران Bertrand وزوجته وأولاده الثلاثة والبارون جورجو Gourgaud والكونت لاكاز Las Casas والدكتور أوميرا O'Meara البريطاني الذي استأنس له نابليون منذ عرفه على ظهر البلرفون. وبلغت الجماعة كلها بالاختصار ٢٤ نفساً.

أما جزيرة القديسة هيلانة التي كانوا يقصدونها فهي صخرة عظيمة نائتة في وسط الأوقيانوس تبعد عن أوربا

بستة آلاف ميل وليس بينها وبين أقرب بقعة من أرض أفريقيا المجاورة لها أقل من ألف ومائتى ميل ولها جوانب منيعة تقوم فى وجه الأمواج كأنها أسوار قلعة حصينة. وقد أصبحت الجزيرة بفعل هذه الجوانب التى تحول بين نسيم البحر وبين باطنها كالأتون المستعر لا سيما فى فصل الصيف حيث تتكاتف الرطوبة مع الحرارة على إحداث جو خانق لا يمكن أن تترعرع فيه الأعمار وتبلغ فيه غاياتها الطبيعية. وكان تعداد أهل الجزيرة عندما سافر اليها نابليون نحو ٥٠٠ نفس من بينهم مائتان من الجنود وكان فيها ثلاثمائة أيضاً من العبيد ويقرر مونثولون أنه لم يحدث أن بلغ أحد من سكان الجزيرة بيضاً كانوا أو عبيداً سن الخمسين !

وبعد رحلة طويلة مرهقة استغرقت نحو سبعين يوماً ألقت النورثمبرلاند مراسيها (يوم ١٦ أكتوبر سنة ١٨١٥) على صخور هذه الجزيرة. ونزل نابليون هو وجماعة من حاشيته فاستقلوا زورقا نقلهم إلى الشاطىء حيث دخلوا مدينة جيمستون — أستغفر الله — بل قرية جيمستون الحقيرة التى كانت وما تزال عاصمة الجزيرة والتى لم يكن بها إذ ذاك الا شارع واحد.



سرير نابليون فى سانت هيلانة

وفى غرفة غيرمؤثثة بين أكواخ هذه القرية نزل نابليون وكان يحمل معه سريره الحديدى الذى نام عليه فى ميدان أوسترلتز . فنصبه له أصحابه وسط الغرفة ثم نثروا حوله قليلا من الأثاث الذى استعاروه خصيصاً من السفينة ليزينوا به « غرفة الامبراطور » .

وكانت أوامر الحكومة البريطانية أن ينزل نابليون فى بيت مهجور هناك يبعد عن جيمستون بنحو ثلاثة أميال . وكان يعرف هذا المنزل بمنزل لونجوود . ولكنه كان خربا يحتاج الى ترميم كبير . ويقال انه كان يستعمل حظيرة للابقار . فلزم له هذا الترميم ليصلح لنزول نابليون فيه وقد اهتمت حكومة الجزيرة بأمر هذا الأصــــلاح ففرغت منه بعد شهرين . ومع ذلك فقد كثرت شكوى نابليون منه طول مدة اقامته فيه لأن الأمطار كانت اذا هطلت بغزارتها المعهودة فى تلك الجهات خر عليه السقف من فوقه . ولأن الجرذان كانت قد استوطنت جحور المنزل وفجواته فاستعصى أمرها وعز التخلص منها . وكانت تتخذ لنفسها مسارب فى حوائط البيت وسقفه بل وفى جيوب ملابس نابليون نفسه . وفى قبعته حتى اضطر آخر الأمر الى اعلان الحرب عليها والاستعانة ببندقيته فى مطاردتها

الفصل الثانى

هدسون لو

مرت الأيام على نابليون فى منفاه وهو ينام كل يوم الى ساعة متأخرة من النهار خلافا لعادته . ولكنه لم يلبث أن عاد الى النهوض مبكراً فكان يستقيظ فى الســـاعة الخامسة صباحاً فيخرج على ظهر جواده للرياضة ثم يعود للاستحمام وعند الساعة الحادية عشرة يتناول طعاماً خفيفاً يبقى عليه حتى الساعة السابعة مساء . حيث كان يتناول طعام العشاء . غير أنه ما لبث أن عدل عن هذا النظام اكراماً لمدام مونثلون فجعل الغداء فى الساعة الثالثة والعشاء فى نحو الساعة العاشرة . وكان بعد العشاء يجلس الى رفاقه يحدثهم أو يلعب معهم الشطرنج حتى اذا كانت الساعة الحادية عشرة دخل الى غرفته لينام .

وقد كان من شأن هذا النظام الهادىء أن أكسب نابليون سمنا على سمنه وضعفا فوق ضعفه . فزادت آلامه واضمحلت

صحته وقل نومه . وأصابه ورم فى رجليه وخور فى أعصابه وفتور فى عضلاته .

وزاد الطين بلة أن الحكومة الانجليزية لم ترتح الى تصرفات الأميرال كوكبرن حاكم الجزيرة مع نابليون لتسامحه معه فى بعض الشئون وملاطفته إياه فى بعض الأحايين فندبت بدله حاكما آخر هو سير هدسون لو — وكان رجلا شريراً صارماً يمقت نابليون شخصياً فأتيحت له الفرصة كاملة ليبدى فيها مواهبه الشيطانية فى ايلامه وتعذيبه . وقد نفر منه نابليون أول ما رآه وقال عنه ان عينه كعين الضبع الذى وقع فى فخ .

وقد كان هذا الرجل خليطاً عجيباً من الطباع المرذولة فكان سخيفاً بالغاً فى سخافته كما كان ظنيناً مفرطاً فى توجسه. ومن حماقاته أنه أبى أن يخاطب أحداً الا بالانجليزية وكان مندوب الحكومة الفرنسوية فى الجزيرة لا يعرف كلمة من الانجليزية بينما كان (لو) يجيد الفرنسية ولكنه بقى مصرا على رأيه لا يتكلم الا بلغته وأخيراً تم الاتفاق بينهما على أن يتخاطبا باللغة اللاتينية !

ومن نوادره أيضاً التى تدل على مبلغ توجسه وهوسه أنه علم بأن المندوب الفرنسى قد وصلته بذور من اللوبياء البيضاء

والخضراء . ليزرعها فأوجس (لو) من ذلك شرا وحسب أن فى الأمر دسيسة إذ قد تكون البذور البيضاء رمزا الى البربون لأن علمهم أبيض والخضراء رمزا لنابليون لأنه يلبس فى الغالب سترة خضراء .

وعلى الرغم من أن كل صخرة فى الجزيرة كانت تحمل مدفعاً مُصَوَّباً نحو الشاطىء استعدادا للطوارىء فان (لو) ما زال يستنجد بحكومته ويطلب منها الامدادات والسفن الحربية حتى أصبحت بقعة سنت هيلانة شاكية السلاح بحراً وبراً كأنها أهم مركز فى ميدان حمى فيه وطيس القتال . ولا تسل بعد ذلك عن ضغطه على نابليون ورفاقه وتهجمه عليهم فى كل حين وتعقبهم فى كل مكان بدعوى مراقبة شئونهم حتى ضاق به نابليون ذرعاً وكف أخيراً عن الخروج من غرفته حتى لا يرهقه (لو) بجواسيسه وعيونه . فلما طال احتجابه لعبت الوساوس بقلب (لو) وأوجس خيفة من أن يكون سجينه قد حفر لنفسه نفقا فى الأرض وخرج عن طريقه من الجزيرة . هذا مع أن نظام الحراسة كان لا يسمح بخروج جرذ واحد من جرذانها الصغيرة أو الكبيرة . فقد كانت الجزيرة على ما وصفناها عبارة عن صخر مستدير فى وسطه

سهل عميق لا يمكن الوصول اليه الا عن طريق ثغرة واحدة أو ثغرتين حتى لو أن الجزيرة هاجمها عشرة آلاف مقاتل فأن خمسين جندياً بداخلها يستطيعون ردهم لقوة استحكامهم وعدم تمكن المهاجم ممن يكون فى مثل موقفهم . ولقد كان كوكبرن يقول لمن يحدثه فى أمر زيادة تحصين الجزيرة من رجاله :

«لا تخف فأن بوارجي تكتنف الجزيرة حتى لو أن الشيطان نفسه أراد أن يبرحها لتعذر عليه ذلك ! »

أما هدسون لو فأنه كان لا يطمئن الا اذا رأى نابليون بعينه أو تحسسه بيده ولذلك كتب (فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨١٩) طالباً اليه أنه لا بد من أن يراه كل يوم ضابط من ضباط الحرس الانجليز وانه اذا لم يتقدم نابليون من تلقاء نفسه ليراه هذا الضابط حتى الساعة العاشرة حق للضابط أن يدخل على نابليون عنوة . ولكن نابليون رفض الرضوخ لهذه التعليمات . وبالغ فى التخفى وعدم الظهور نكاية فى سجانه المتعب فكان الضابط المكلف بمعاينته كل يوم يذوق الأمرين فى مراقبته . تارة يوصوص من الباب . وتارة ينظر من ثقب المفتاح . وتارة يشرف عليه من كوة حمامه .

وتصادف أن ظفر به نابليون مرة وهو على هذه الحال ففتح الباب بغتة وخرج اليه عاريا !

ويطول بنا الشرح اذا نحن تتبعنا وسائل هذا الحاكم الغليظ وأساليبه الفظة فى مراقبة نابليون . ولكن لا بد لنا هنا من الأشارة الى أنه لم يكن فى كل ذلك يرمى الى المحافظة على أسيره . بل انه كان أحيانا يعمد بتصرفاته هذه الى ايلام نابليون وجرح عواطفه ليس الا . فمن ذلك انه كان كلما رآه شديد التعلق بأحد من رفاقه عمل على اقصائه واخراجه من الجزيرة حتى يحرمه من أنس مجلسه . والراحة التى يستشعرها فى محادثته وصحبته . ووصل الجزيرة يوماً أحد المسافرين من أوربا وكان هذا المسافر قد رأى مارى لويز وملك روما فلما علم ذلك هدسون لو حرم عليـــه ان يقابل نابليون حتى لا يحمل اليه شيئاً من أخبار أسرته .

على ان (لو) كان فى الواقع الى حد ما يردد فى جزيرة سنت هيلانة صدى أحقاد رجال الحكومة الانجليزية فى انجلترا فقد قرروا منذ البداية ان لا يلقب نابليون بلقب « امبراطور » وان لا يخاطب الا بلقب «الجنرال بونابرت» بدعوى انه اغتصب ملك فرنسا اغتصاباً فهو لا يستحق ان

يلقب بألقاب الملوك . مع أنه لا قيمة لهذا الأمر ما دام نابليون قد ترك فرنسا وغادرها لملوكها مرة أخرى . ومع أن انجلترا نفسها كانت تخاطب نابليون وهو فى البا بلقب امبراطور هى ووزرائها الرسميين إلا أنها عادت وشددت على (لو) فى تطبيق هذا القرار . على أن الرجل لم يكن بحاجة الى توصيه . « فأن ما أرادته حكومته بالدرهم كان يجريه هو بالقنطار » على حد قول بعض الكتاب

ومن المضحكات المبكيات أن يعرف الانسان الى أى حد ذهب سير هدسون لو فى تطبيق نظرية حكومته . فأن رفاق نابليون اجتمعوا بعد موته . وأعدوا له قبرا فى تلك الجزيرة الموحشة على قدر ما سمحت لهم به الظروف ثم شرعوا يعدون اللوحة التى تقام عادة على مقابر الأموات فكتبوا عليها :

« هنا يرقد . . . . .

وأرادوا اتمام العبارة بأضافة كلمتى :

. . . . الأمبراطور نابليون »

فما كان من (لو) إلا أن أسرع اليهم ومنعهم من كتابة ذلك مشيرا بوجوب تسميته « الجنرال بونابرت » فقال له رجال نابليون :

« لقد كان نابليون ملك يدكم تتصرفون فيه كيف تشاءون آما وقد مات فقد أصبح ملكا لنا ولفرنسا ولنا اليوم أن نسميه كيف نشاء فأصر هدسون لو على وجهة نظره وأصروا هم أيضاً على وجهة نظرهم . وانتهى الأمر بينهم بأن يدفن نابليون وتبقى اللوحة التى على قبره وليس عليها الا هاتين الكلمتين :

« هنا يرقد »

وهكذا كان

وظل نابليون « راقدا هناك » فعلا أكثر من خمس وعشرين سنة لايحمل قبره الا هذه اللوحة البتراء . ثم نقل بعد ذلك إلى فرنسا باحتفال مهيب لم تكن تضارعه الا تلك الاحتفالات المهيبة الأخرى التى كانت تقام له وهو فى أوج عظمته وبسطة سلطانه .

الفصل الثالث

وفاة نابليون

لما سلم نابليون نفسه بعد واقعة ووترلو الى انجلترا كتب لورد لفربول رئيس وزرائها الى لورد كاسلرى وزير الخارجية فيها يقول :

— « حبذا لو كان ملك فرنسا يتولى استلام بونابرت وقتله شنقاً أو رميا بالرصاص لعصيانه ! »

ثم عاد فكتب اليه ثانية يقول :

— « إن كان ملك فرنسا لا يرى من نفسه المقدرة على معاملة بونابرت كما يعامل العصاة فنحن نأخذ على أنفسنا حراسته . »

وليس أدل على سوء نية الحكومة الانجليزية نحو شخص نابليون من صدور مثل هذا الكلام من أكبر رجالها المسئولين . ويستطيع القارىء بعد ذلك أن يفسر لنفسه لماذا وقع اختيار القوم على سير هدسون لو للقيام بواجب هذه

« الحراسة » التى قرر لورد لفربول أنه « سيأخذها على نفسه . »

ولقد ضربنا فى الفصل السابق بعض الأمثال التى توضح مسلك هذا الرجل الخشن نحو سجينه وأبنا كيف أن تضييقه الخناق على نابليون كان سبباً فى لزوم الامبراطور غرفته . واعتكافه فيها وكيف أن هـذا كان بدوره سبباً فى انحلال جسمهوانحطاط قوته والدنو به حثيثاً من قبره .

ولقد كانت رياضة نابليون الوحيدة عند أول حلوله فى جزيرة سنت هيلانة ركوب الخيل وكان يعود على أثر هذه الرياضة أهدأ نفساً وأوفر نشاطاً وأحسن صحة . ولـكن (لو) لم يلبث أن وكل به ضابطاً انجليزياً يلازمه عند ركوبه لزوم الظل بحجة أن ذلك يقتضيه واجب الرقابة الدقيقة التى تتطلبها الحـكومة الانجليزية على شخص نابليون . فما كانمن نابليون الا أن عدل عن الخروج أصلا واصطنع لنفسه جواداً من الخشب وجعل يتأرجح عليه داخل منزله كلما أعوزته الحركة وابتغى لنفسه شيئاً من النشاط .

على أن (لو) لم يكن يقصر همه فى مضايقة نابليون على حرمانه من هذه الكماليات . بل انه كان يقتر عليه فى

نفس مأكله ومشربه هو وحاشيته الصغيرة وكان نابليون نفسه قليل العناية بأمر طعامه فلم يكن ليكترث بما يصنعه (لو) معه . ولكنه زار مرة مائدة أتباعه فرأى طعامهم قليلا لا يقوم بحاجتهم . فأمر وكيل خرجه أن يبيع ما عنده من الآنية الفضية لينفق من ثمنها على رجاله . وأصبح فى اليوم التالى فاذا بالطعام يقدم اليه فى صحاف من الخزف . فانقبضت لذلك نفسه واعتراه الخجل وعاف الأكل من هذه الصحاف . وكان وكيل الخرج قد خالف أمر مولاه واستبقى بعض الآنية الأولى على غير علم منه . فعاد الى تقديم الطعام فيها . فسر نابليون بذلك وعاود الأكل فيها كما كان .

وقد ندم (لو) على مافعل . وخشى سخط الرأى العام فى أوربا إذا أذيع فيها أن نابليون باع صحافه الفضية لينفق من ثمنها على طعام أصحابه . ولم تكن تفوت أمثال هذه الأمور نابليون . بل إنه كان شديد التنبه اليها واسع الحيلة فى استخدامها واذاعتها . وقد حصل يوماً أن قل الوقود عنده فأمر خادمه أن يكسر سريره ويوقده ليصطلى به . وشاع الخبر فى الجزيرة فأسقط فى يد (لو) وخشى أن يذاع فى أوربا وصار منذ ذلك اليوم يجانب نابليون . ويجتهد فى كيده عن طريق أصحابه

المقربين اليه الذين كان يأنس اليهم ويرتاح دائما الى مجالستهم وكانت عادة نابليون كل يوم أن يجلس ساعة أو ساعتين يملي فيهما مذكراته على صديقه لاكاز . فما كان من (لو) إلا أن تصداه تم أمره بمغادرة الجزيرة وعاد بعد ذلك فطرد الدكتور أوميرا ثم عززهما بالجنرال جورجو . على أن نفي جورجو هذا عاد على (لو) بأوخم العواقب . فأنه ما كاد يصل الى أوربا حتى أذاع فيها كل ما كان يلقاه الامبراطور على يدى سجانه من ضروب العنت والارهاق . وكان أداة حينه لنشر الدعاية ضد جور الحكومة البريطانية وسوء معاملتها لأسيرها المريض .

أما نابليون نفسه فأنه وقع فى حيرة شديدة بعد سفر أوميرا وأصبح يرى أن لا مفر له من أن يقبل الاطباء الذين يعينهم له سجانه أو يبقى مريضاً بغير طبيب . وكانت أوجاعه تتزايد يوماً بعد يوم . وبدأت القرحة التى كانت فى معدته تدخل فى طورها الأخير . وضعفت شهيته للطعام . وساورته فكرة الخوف من أن يموت مسموماً . فامتنع عن كل دواء يصفه له اطباء (لو) . « وصار مونتلون يقضى الليالى الى جانبه مواسياً ومعزياً . فيضع الكمادة الساخنة على معدته وهو يشهد



على سرير الموت

عن كتب دبيب الداء ويرى آثار فتكه فى اصفرار الامبراطور وهزاله . وفى عينيه الغائرتين ورجليه اللتين لم تعودا تقويان على حمله .

وبقى على هذه الحال بغير علاج من شهر يوليه سنة ١٨١٨ الى يناير ١٨١٩ وهو كلما عرض عليه (لو) طبيباً رفضه بحجة أنه لن يصف الداء ويعالجه الا بقدر ما يرضى الانجليز فكان هدسون لو يقول عند ذلك .

— « اذا كان بونابرت لا يقبل من أعينه له من الاطباء فلأنه متمارض ويخاف أن تنكشف حيلته ! »

وغضب مندوب الروسيا والنمسا لهذه المعاملة فاحتجا بشدة وأنذرا الحاكم أنه اذا قضى الامبراطور نحبه فهما لا يتحملان تبعة ما ينتج عن ذلك . »

وكان جورجو قد اتصل بأم نابليون وأفضى اليها بما آلت اليه صحة ولدها من الضعف والخور فقامت مدام ليتيشيا بحملة واسعة ناشدت فيها دول الحلفاء أن يهتموا بأمر ولدها فى سجنه القصى . فسمحوا بارسال الدكتور انتومارشى من فرنسا اليه ولكنه كان طبيباً جاهلا استسلم له نابليون قليلا فى أول الامر ثم ما لبث أن تنبه الى خطأ

علاجه وسوء تطبيبه فواجهه ذات يوم صاخبا مقرعا وهو يقول :

« ليس من العدل أن يقضى على مسكين مثلى بهذا الوجه . فأنت جاهل وأنا أجهل منك لقبولى علاجك ! »

وفى عام ١٨٢١ ازدادت حالة الامبراطور سوءاً فأصبحت معدته تلفظ كل مايدخل فيها . وكان القىء أسود اللون مما لم يدع محلا للشك فى موطن الداء . ولكن انتومارشى لم يكن على ما يظهر يستطيع أن يشخص الامراض الا بأنها احتقان فى الكبد . وذلك لانتشار هذا المرض فى جزيرة القديسة سنت هيلانة فى ذلك الوقت فكأن المسألة كانت فى نظره مسألة أغلبية وما تشكوه الجماعة يجب أن يكون هو موضع شكاية الفرد . وظل يتابع علاجه معه على انه مريض بكبده لا بمعدته

ولكن الامبراطور يئس منه أخيراً فرفض كل علاج يقترحه له وعاد الى أساليبه الخاصة الأولى وهى لزوم الحمية واستعمال المغاطس وتناول الاشربة المبردة غير ان الداء كان يدب فيه بسرعة هائلة حتى آمن هدسون لو نفسه بصحة دعواه وصار يعرض عليه من شاء من الاطباء .

وفى ٢ ابريل سنة ١٨٢١ (اى قبل وفاته بنحو شهر)

ذكر أمام نابليون ان نجما ذا ذنب قد ظهر فى السماء . فما كان منه الا أن صاح قائلا :

« ان ظهور مذنب أنذر بموت يوليوس قيصر »

ولم تكن فكرة الموت لتزعج نابليون بل أنه كان مستسلماً لها مستبشراً بها وكان يقول : أنى انتظر الموت صابراً لأنى أرى فيه شفائى من كل هذه الآلام ! »

ومما قاله لرفاقه عندما اشتدت به الحال ودخل فى دور النزع : « عند ما أموت سيتعزى كل واحد منكم بالعودة الى أوربا حيث أهلكم وأصدقاؤكم وفرنسا . . . . أما أنا فأنى سألاقى أبطالى فى الجنة . . . أجل ! إن كليبر وديزيه وبسيير وديروك وناى ومورا وماسينا وبرتييه سيأتون جميعاً للقائى ! فأذا رأونى جنوا من الفرح . وسوف نتحدث هناك عن حروبنا وأعمالنا أنا وأولئك الابطال . . ! »

وفى ٢٨ ابريل أفاق نابليون بعد ليلة قضاها فى التوجع والألم وأعطى لأنتومارشى التعليمات الآتية :

« بعد موتى — ولا أخال ميعاده بعيداً — أريد أن تفتح جثتى وأن يستخرج قلبي ويحفظ ليحمل الى حبيبتى مارى لويز

فى پارما . ثم اذهبوا الى روما وقابلوا والدتى وأهلى وقولوا لهم : إن نابليون العظيم لفظ النفس الأخير على هذه الصخرة فى أتعس الحالات وأشقاها محروماً من كل شيء ومتروكا لنفسه وللمجد ! »

ولم تكن الأيام التاليــــة إلا نزاعاً بين الموت والحياة فى ذلك الجسم المهزول . وأحس نابليون بدنو أجله فاستدعى الأب فينيالى واعترف له بخطايا حياته ثم التفت الى مونثلون قائـلا :

« إنى سعيد بأن تممت واجباتى الدينية . وإنى أتمنى لك أيها القائد مثل هذه السعادة عند موتك . »

وكتب وصيته بيده وقد جاء فى أولها :

إنى أموت فى حضن الدين الكاثوليكى الرسولى الرومانى. ذلك الحضن الذى ولدت فيه منذ أكثر من خمسين عاماً ...

. . . . وإنى أرغب فى أن ترقد رفاتى على ضفاف نهر السين بين الشعب الفرنسى الذى أحببته حباً جماً . »

* * *

وفى صبـــاح ٥ مايو هبت عاصفة عاتية على لونجوود اقتلعت أشجارها وحطمت مساكنها الزرية . وتحرك نابليون



وجه نابليون بعد وفاته مطبوعاً على قالب من الجبس

فى فراشه حركة خفيفة ثم سمعه رفاقه يتمتم قائلا : « رأس . . .
جيش . . . . فرنسا . . . . ملك روما . » ثم خفت صوته
وبدا على شفتيه زبد أبيض . وعلم الحاضرون من اتباعه
أن مولاهم قد انتقل من هذه الدنيا إلى العالم الآخر !

الفصل الرابع

نابليون يرقد على ضفاف السين

لما قررت انجلترا نفى نابليون الى جزيرة سنت هيلانة امرت بتفتيش حقائبه وأمتعته هو ورجاله واستولت على كل ما كان فيها من المال والنفائس بدعوى أنها تحتاط حتى لا يجد نابليون ما يعينه على الهرب مرة أخرى من منفاه . غير أنها أعلنت فى نفس الوقت أنها إنما تحتفظ بهذه الأشياء كوديعة وتحفظ لنابليون الحق فى أن يتصرف فيها بوصيته عند موته كما يشاء . وتعهدت بأنها تنفذ نصوص هذه الوصية بحروفها وحذافيرها .

ولما أحس نابليون بدنو أجله كتب وصيته بيده . وهى التى أشرنا اليها فى الفصل السابق وزع فيها ما بقى من حطام ماله وجسمه على أهله وأتباعه وزوجته مارى لويز . ثم أبدى رغبته فى أن ترقد رفاته بعد موته على ضفاف السين

ولكن هذه الرغبة . لم يتيسر لانجلترا تنفيذها فورا

بسبب الروح الذى كان يسود كل أوربا فى ذلك الوقت . فقد كانت الرهبة لا تزال تسيطر على قلوب ملوكها لدى ذكر نابليون وحروبه . وكانت فرنسا من ناحية أخرى تعانى ضغط حكومة لويس الثامن عشر الرجعية التى بدأت عهدها بمحاكمة المارشال ناى واعدامه فى ساحة من ساحات باريس العامة . ولذلك ظل نابليون فى قبره المتواضع بسنت هيلانة يحرسه أيضاً فى رقدته الاخيرة أحد الجنود الانجليز . ودار الزمن دورته فمات لويس الثامن عشر فى سنة ١٨٢٤ . وولى ملك فرنسا من بعده شارل العاشر الذى أثبت للفرنسيين أنهم كانوا فى عهد سلفه الغابر فى نعيم وحظ عظيم . وذلك بقضائه القضاء الاخير على معظم ما بقى للشعب من حريات حتى ضاقت به الصدور آخر الامر . وعاد وميض الثورة يلمع فى عين كل من كنت تلقاه من الفرنسيين . وعلى الرغم من تهالك الشعب ألفرنسى وكثرة ما مر به من المحن والرزايا بسبب ثورته الاولى فأنه لم يبال بالقيام بثورة أخرى فى سنة ١٨٣٠ خلع فيها نير هذا الملك الغاشم وتخلص بها من حكومته الممقوتة .

واعتلى عرش فرنسا بعد شارل هذا « لويس فيليب » ابن

دوق أورليان الذى كان فى عهد الثورة الأولى نصيراً للشعب وزعيماً من كبار زعمائه . فحاول أن يقيم فى فرنسا حكومة ديمقراطية يكون الرأى الأعلى فيها لسواد الأمة وأكثر فى بدء عهده من الأصلاحات التى كان يتوق اليها الشعب . وبدأ الناس يحسون على يديه بشىء من العزة والكرامة التى حرموها منذ فارقهم نابليون . وكان هذا فى ذاته مذكياً لذكرى امبراطورهم العظيم الذى أصبح اسمه عندهم رمزاً للعظمة والمجد . وكل ما بلغته فرنسا فى عهده من السؤدد والفخار . فتقدمت عدة اقتراحات للحكومة بوجوب العمل على نقل رفات نابليون وسعى الناس افرادا وجماعات لرد غربة هذا البطل الخالد . وأخيراً كللت مساعيهم بالنجاح وأسفرت المفاوضات بين الحكومتين الفرنسية والانجليزية عن الاتفاق على اعادة جثمان نابليون الى فرنسا .

وندب الملك لويس فيليب ابنه البرنس جوانفيل ليكون رئيساً على البعثة التى تقرر سفرها الى سنت هيلانة للقيام بهذه المهمة .

وفى ٧ يوليه سنة ١٨٤٠ أبحرت من مينا طولون المركب الفرنسية لابل پول « La Belle Poule » التى أعدت لنقل

رفات الأمبراطور . وعلى رأسها البرنس جوانفيل وبعثته وهي تضم معظم من كان حياً من رفقاء نابليون ورجاله الذين قضوا معه مدة النفى — وكانت تحرسها لافافوريت « La Favorite » إحدى مراكب الأسطول الفرنسى الحربية. وبعد ثلاثة شهور كاملة فى البحر صاح صائح : «La Terre» فعلمَ الجميع أنهم أشرفوا على الجزيرة . وأنهم أوشكوا أن يكونوا فى حضرة الأمبراطور . فاستولى عليهم شعور الرهبة والخشوع .

«وفى ٩ أكتوبر الساعه الحادية عشرة صباحاً نزل البرنس جوانفيل والبعثة كلها الى البر بصفة رسمية وتوجهوا الى منزل الحاكم حيث وجدوا سلحفاتين عظيمتين كانتا هناك منذ زمن نابليون وهما لا تزالان حيتين الى ذلك اليوم . ثم انتقلوا الى القبر ثم الى منزل نابليون فى لنجوود فوجدوا الحيطان تكسوها كتابات كتبها الذين زاروا المكان ومعظمهم من جنود نابليون وأتباعه ومن تلك الكتابات الجملة الآتية التى تدل على تعلق رجال نابليون بسيدهم :

« استخدم ميشيل روبير الذى كان جندياً فى الحرس على

الباخرة أماليا ليتمكن من السلام على منزل كابوراله الصغير. الوداع. »

و « الكابورال الصغير أو الاومباشى الصغير » هو الأسم الذى كان يطلقه الجنود على نابليون على سبيل الدعابة والتدليل

وفى منتصف ليلة الخامس عشر من شهر أكتوبر قام رجال البعثة بمهمتهم الرهيبة فنزلوا قبر نابليون وفتحوا تابوته وأزاح طبيب البعثة لفائف القطن التى كانت تحيط بجثمان الامبراطور فبدا من تحتها وجهه كامل التقاسيم. ماعدا تشويه خفيف عند أنفه وفى خديه. وتحقق رجال البعثة من هويته. وشاهد الحاضرون على صدره الوشاح الاكبر لجوقة الشرف. وكان بين الساقين وعاء من الفضة فيه قلب نابليون الذى أوصى به لزوجته مارى لويز.

وأقفل التابوت بعد ذلك وحمل الى (البل پول) وما كادت تمس الجنازة ظهر المركب حتى طفقت مدافع السفن الفرنسية تحيي نقلها وشاركتها فى ذلك مدافع الانجليز من حصون الجزيرة وقلاعها. وبلغ عـــدد الطلقات فى ذلك الاحتفال المهيب ثلثمائة طلقة.

وفى آخر نوفمبر رسا اســـطول البعثة الصغير فى مياه

شيربورغ حيث بقيت جثة نابليون نحو ثمانية أيام تقاطر فى خلالها عشرات الالوف من الناس لتحيتها وتكريمها . وكانت فى خلال هذه المدة أيضاً قد تمت المعدات اللازمة فى باريس للقاء الجثة . فانتقلت الجنازة اليها .

وفى فجر الخامس عشر من شهر ديسمبر ١٨٤٠ كانت الموسيقى تصدح فى كل مكان بباريس . ثم قصفت المدافع وقرعت نواقيس الكنائس . واجتمع كل من بقى حياً من جنود نابليون تحت قوس النصر المشهور . فما هو أن وقعت أعينهم على النعش حتى أجهشوا بالبكاء . وأحاطوا بالعربة لا يبغون عنها حِوَلا . ولقد كان البرنامج يقضى بأن يأتى أولئك الجنود خلف المستشارين . ومندوبى البلديات فى تشييع النعش . ولكنهم رفضوا قائلين :

« ان الامبراطور كان يسير دائماً بين حرسه ! »

وقد كانت الطرق فى ذلك اليوم المشهود زاخرة بالجموع وكانت الشرفات والابواب مجللة بالسواد . وكان الشعب يتلقف النعش أفواجا عن أفواج بتلك الصيحة القديمة المحبوبة :

" Vive l'Empereur "

على أن مظاهر الحماسة التى غمرت باريس فى يوم هذا

الموكب الخالد ليس مما يصوره الكاتب بقلمه ولكنه مما يتصوره القارئ فقط بخياله .

ولما انتهى الركب الى سراى (الأنفاليد) التى تضم مفاخر فرنسا الحربية والتى تقرر أن يودع فيها جثمان الامبراطور تقدم رئيس البعثة البرنس Joinville بين يدى الملك قائلا :

« مولاى ياصاحب الجلالة . اقدم لك جثمان الامبراطور نابليون ! »

فأجابه الملك بصوت جهورى :

— « باسم فرنسا أتقبله ! »

وأودعت الجثة مثواها الأخير وتحققت رغبة نابليون ورقدت رفاته على ضفاف السين بين ذلك الشعب الفرنسى الذى أحبه حباً جماً .

٨٠ ٢٠٣ ٣

انتهى الكتاب

ن ١٠